



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

آية الله العظمى شهاب الدين

تكملة التلويح

شرح مختصر على شرح التلويح

مكتبة دار الفقه
إصدار المجلس العلمي

الجزء الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٩	نفحات الولاية (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ٨
١٩	اشاره
٢٠	اشاره
٢٤	الخطبه ٢٠١
٢٤	اشاره
٢٤	نظره إلى الخطبه
٢٤	الشرح والتفسير: سبيل النجاه
٢٦	الخطبه ٢٠٢
٣٢	اشاره
٣٢	نظره إلى الخطبه
٣٤	الشرح والتفسير: لوعه على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام
٤٠	تأملات
٤٠	اشاره
٤٠	١. فاطمه الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه و آله
٤١	٢. حرمه بيت الزهراء عليها السلام فى القرآن والسنة
٤١	٣. انتهاك حرمه بيت الزهراء عليها السلام
٤٩	٤. القبر الطاهر لفاطمه الزهراء عليها السلام
٥٠	٥. زمان شهاده بضعه النبى
٥٢	الخطبه ٢٠٣
٥٢	اشاره
٥٢	نظره إلى الخطبه
٥٤	الشرح والتفسير الدنيا ممز
٥٨	تأمل: الإكثار من هذه العبارة

٦٠	الخطبه ٢٠٤
٦٠	اشاره
٦٠	نظره إلى الخطبه
٦٢	الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلب الدنيا
٦٨	الخطبه ٢٠٥
٦٨	اشاره
٦٨	نظره إلى الخطبه
٧٠	القسم الأول
٧٠	الشرح والتفسير: حجج طلحه والزبير
٧٤	القسم الثاني
٧٤	الشرح والتفسير: حكم الله
٧٦	تأملات
٧٦	١. عله التسويه في العطاء
٨٣	٢. مكانه المشوره
٨٤	٣. طلحه وحلم الخلافه
٨٦	الخطبه ٢٠٦
٨٦	اشاره
٨٦	نظره إلى الخطبه
٨٨	الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!
٩٠	تأمل: السب واللعن
٩٢	الخطبه ٢٠٧
٩٢	اشاره
٩٢	نظره إلى الخطبه
٩٤	الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي صلى الله عليه و آله
٩٥	تأمل: شبهات وردود
٩٨	الخطبه ٢٠٨

٩٨	اشاره
٩٨	نظرة إلى الخطبه
١٠٠	الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهال
١٠١	تأمل: التضحية بالفرصة الكبرى
١٠٤	الخطبه ٢٠٩
١٠٤	اشاره
١٠٤	نظرة إلى الخطبه
١٠٦	القسم الأول
١٠٦	اشاره
١٠٦	الشرح والتفسير: الدار الواسعه
١٠٧	تأمل: الدار الواسعه في الروايات
١١٠	القسم الثاني
١١٠	اشاره
١١٠	الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا
١١٢	تأملات
١١٢	١. ذم عموم الافراط والتفريط
١١٣	٢. التصوف ونتائجه
١١٧	٣. الانتفاع بالطيبات
١٢٠	الخطبه ٢١٠
١٢٠	اشاره
١٢٠	نظرة إلى الخطبه
١٢٢	القسم الأول
١٢٢	اشاره
١٢٢	الشرح والتفسير: نقد الروايات
١٢٦	القسم الثاني
١٢٦	اشاره

الشرح والتفسير: وضع المنافقين للحديث	١٢٦
تأملات	١٢٩
١. المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وآله	١٢٩
٢. المنافقون بعد النبي صلى الله عليه وآله	١٢٩
٣. عداله الصحابه	١٣١
القسم الثالث	١٣٤
اشاره	١٣٤
الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ	١٣٤
تأمل: النسخ في أحكام الشرع	١٣٧
القسم الرابع	١٤٠
اشاره	١٤٠
الشرح والتفسير: حفظه الحديث	١٤٠
الخطبه ٢١١	١٤٤
اشاره	١٤٤
نظرة إلى الخطبه	١٤٤
القسم الأول	١٤٦
اشاره	١٤٦
الشرح والتفسير: بدايه خلق الكون	١٤٦
القسم الثاني	١٥٠
اشاره	١٥٠
الشرح والتفسير: خلق الجبال	١٥٠
الخطبه ٢١٢	١٥٤
اشاره	١٥٤
نظرة إلى الخطبه	١٥٤
الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين	١٥٦
الخطبه ٢١٣	١٦٠

١٦٠	اشاره
١٦٠	نظره إلى الخطبه
١٦٢	الشرح والتفسير: قبسات من صفات الله ورسوله
١٦٨	الخطبه ٢١٤
١٦٨	اشاره
١٦٨	نظره إلى الخطبه
١٧٠	القسم الأول
١٧٠	اشاره
١٧٠	الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي صلى الله عليه و آله
١٧٤	القسم الثاني
١٧٤	اشاره
١٧٤	الشرح والتفسير: حفظه علم الله
١٧٨	القسم الثالث
١٧٨	اشاره
١٧٨	الشرح والتفسير: المهتدون
١٧٩	تأمل: الحاجه إلى المرشد في السير والسلوك
١٨٤	الخطبه ٢١٥
١٨٤	اشاره
١٨٤	نظره إلى الخطبه
١٨٦	القسم الأول
١٨٦	اشاره
١٨٦	الشرح والتفسير: اللهم كلّ شيء لك
١٩٠	القسم الثاني
١٩٠	اشاره
١٩٠	الشرح والتفسير: النعم المكملة
١٩٤	الخطبه ٢١٦

١٩٤	اشاره
١٩٤	نظره إلى الخطبه
١٩٤	القسم الأول
١٩٤	اشاره
١٩٤	الشرح والتفسير: سعه حجم الحقوق
١٩٩	تأمل: الثواب استحقاق أم تفضّل؟
٢٠٢	القسم الثاني
٢٠٢	اشاره
٢٠٢	الشرح والتفسير: حق الوالى والرعيه
٢٠٨	القسم الثالث
٢٠٨	اشاره
٢٠٨	الشرح والتفسير: ضروره التعاون فى أداء الحقوق
٢١١	تأمل: الحكومات الشعبيه
٢١٥	القسم الرابع
٢١٥	اشاره
٢١٥	الشرح والتفسير: الشكر على الواجب
٢١٨	تأملان
٢١٨	١. المدح والثناء
٢١٩	٢. ألسنه التملق
٢٢١	القسم الخامس
٢٢١	اشاره
٢٢١	الشرح والتفسير: لا تتملقوا أمامى
٢٢٥	الخطبه ٢١٧
٢٢٥	اشاره
٢٢٥	نظره إلى الخطبه
٢٢٧	الشرح والتفسير: تحمل الصعاب

٢٣١	الخطبه ٢١٨
٢٣١	اشاره
٢٣١	نظره إلى الخطبه
٢٣٣	الشرح والتفسير: جنایات أصحاب الجمل فی البصره
٢٣٥	الخطبه ٢١٩
٢٣٥	اشاره
٢٣٥	نظره إلى الخطبه
٢٣٧	الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل
٢٣٩	تأملان
٢٣٩	١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمه
٢٤٠	٢. الكفاءه الشرط الاوّل لكل عمل
٢٤٣	الخطبه ٢٢٠
٢٤٣	اشاره
٢٤٣	نظره إلى الخطبه
٢٤٥	الشرح والتفسير: سالک طريق الحق
٢٤٧	تأمل: مقامات السير والسلوك
٢٥١	الخطبه ٢٢١
٢٥١	اشاره
٢٥١	نظره إلى الخطبه
٢٥٢	القسم الأوّل
٢٥٢	اشاره
٢٥٢	الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!
٢٥٩	القسم الثانى
٢٥٩	اشاره
٢٥٩	الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت
٢٦٥	القسم الثالث

٢٦٥	اشاره
٢٦٥	الشرح والتفسير: أحوال الأموات!
٢٦٩	القسم الرابع
٢٦٩	اشاره
٢٧٠	الشرح والتفسير: عقبات الموت لاتستوعب في الالفاظ
٢٧٤	تأمل: ممر يرده الجميع
٢٧٧	الخطبه ٢٢٢
٢٧٧	اشاره
٢٧٧	نظره إلى الخطبه
٢٧٩	القسم الأوّل
٢٧٩	اشاره
٢٧٩	الشرح والتفسير: أدله السائرین على الطريق
٢٨٢	تأملان
٢٨٢	١. ما المراد من أتيام الله؟
٢٨٣	٢. الإلهامات الغيبية
٢٨٥	القسم الثاني
٢٨٥	اشاره
٢٨٥	الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر
٢٨٩	القسم الثالث
٢٨٩	اشاره
٢٨٩	الشرح والتفسير: مصير السائرین على الصراط
٢٩٢	تأمل: ذكر الله والذاكرون
٢٩٥	الخطبه ٢٢٣
٢٩٥	اشاره
٢٩٥	نظره إلى الخطبه
٢٩٧	القسم الأوّل

٢٩٧ اشاره

٢٩٧ الشرح والتفسير: رحمه بالنفس؟

٣٠١ القسم الثاني

٣٠١ اشاره

٣٠١ الشرح والتفسير: رحمه الله ومعصيه العبد؟! ..

٣٠٥ القسم الثالث

٣٠٥ اشاره

٣٠٥ الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ ..

٣٠٧ تأقل: الدنيا الممدوحه والمذمومه ..

٣٠٩ القسم الرابع

٣٠٩ اشاره

٣٠٩ الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة ..

٣١٣ الخطبه ٢٢٤ ..

٣١٣ اشاره

٣١٣ نظره إلى الخطبه ..

٣١٥ القسم الأول

٣١٥ اشاره

٣١٥ الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم ..

٣١٩ القسم الثاني

٣١٩ اشاره

٣١٩ الشرح والتفسير: قصة الحديده المحماه ..

٣٢٢ تأقلان ..

٣٢٢ ١. نظره إلى شخصيه عقيل ..

٣٢٢ ٢. التسويه بين المسلمين في بيت المال ..

٣٢٥ القسم الثالث

٣٢٥ اشاره

٣٢٥	الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس
٣٣٠	تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟
٣٣١	الخطبة ٢٢٥
٣٣١	اشاره
٣٣١	نظرة إلى الخطبة (الدعاء)
٣٣٣	الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!
٣٣٤	تأمل: الآثار السيئة للفقير
٣٣٩	الخطبة ٢٢٦
٣٣٩	اشاره
٣٣٩	نظرة إلى الخطبة
٣٤١	القسم الأول
٣٤١	اشاره
٣٤١	الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا
٣٤٣	تأمل: دار محفوفة بالبلاء
٣٤٥	القسم الثاني
٣٤٥	اشاره
٣٤٥	الشرح والتفسير: جيران متباعدون
٣٤٨	تأمل: عاقبة الإنسان بعد الموت
٣٥١	القسم الثالث
٣٥١	اشاره
٣٥١	الشرح والتفسير: المصير المحتوم
٣٥٢	الخطبة ٢٢٧
٣٥٢	اشاره
٣٥٢	نظرة إلى الخطبة (الدعاء)
٣٥٥	القسم الأول
٣٥٥	اشاره

٣٥٥	الشرح والتفسير: انس العباد
٣٥٧	القسم الثاني
٣٥٧	اشاره
٣٥٧	الشرح والتفسير: الله كهف الوري
٣٥٨	تأمل: أدعيه المعصومين عليهم السلام المهذبه
٣٦١	الخطبه ٢٢٨
٣٦١	اشاره
٣٦١	نظره إلى الخطبه
٣٦٣	الشرح والتفسير: مالك الأشر
٣٦٧	الخطبه ٢٢٩
٣٦٧	اشاره
٣٦٧	نظره إلى الخطبه
٣٦٩	الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعه الإمام عليه السلام
٣٧١	تأمل: البيعه الفريده المطلقه
٣٧٣	الخطبه ٢٣٠
٣٧٣	اشاره
٣٧٣	نظره إلى الخطبه
٣٧٥	القسم الأول
٣٧٥	اشاره
٣٧٥	الشرح والتفسير: سر السعاده والفلاح
٣٧٧	القسم الثاني
٣٧٧	اشاره
٣٧٧	الشرح والتفسير: المعبر الذي لا مفر منه
٣٨٢	القسم الثالث
٣٨٢	اشاره
٣٨٢	الشرح والتفسير: الدنيا الغراره!

٣٨٩	القسم الرابع
٣٨٩	اشاره
٣٨٩	الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون
٣٩١	الخطبه ٢٣١
٣٩١	اشاره
٣٩١	نظره إلى الخطبه
٣٩٣	الشرح والتفسير: التبي صلى الله عليه و آله حصد العداء من الصدور
٣٩٥	الخطبه ٢٣٢
٣٩٥	اشاره
٣٩٥	نظره إلى الخطبه
٣٩٧	الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين
٣٩٩	الخطبه ٢٣٣
٣٩٩	اشاره
٣٩٩	نظره إلى الخطبه
٤٠١	القسم الأول
٤٠١	اشاره
٤٠١	الشرح والتفسير: نحن امراء الكلام
٤٠٣	تأملان
٤٠٣	١. عجائب اللسان
٤٠٤	٢. امراء الكلام
٤٠٧	القسم الثاني
٤٠٧	اشاره
٤٠٧	الشرح والتفسير: خصائص البيئه الملوئه
٤١١	الخطبه ٢٣٤
٤١١	اشاره
٤١١	نظره إلى الخطبه

٤١٣	الشرح والتفسير: أساس الاختلاف
٤١٧	تأملان
٤١٧	١. صلة الروح بالجسم
٤١٨	٢. الاختيار وصله الروح بالجسد
٤١٩	الخطبة ٢٣٥
٤١٩	اشاره
٤١٩	نظرة إلى الخطبة
٤٢١	الشرح والتفسير: عظم مصيبه رحيل النبي صلى الله عليه وآله
٤٢٤	تأملان
٤٢٤	١. البكاء على الأعزّه
٤٢٥	٢. تجهيز النبي صلى الله عليه وآله
٤٢٧	الخطبة ٢٣٦
٤٢٧	اشاره
٤٢٧	نظرة إلى الخطبة
٤٢٩	الشرح والتفسير: ذكر الحبيب
٤٣٠	تأمل: قصة الهجرة
٤٣٣	الخطبة ٢٣٧
٤٣٣	اشاره
٤٣٣	نظرة إلى الخطبة
٤٣٥	القسم الأول
٤٣٥	اشاره
٤٣٥	الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه
٤٣٧	القسم الثاني
٤٣٧	اشاره
٤٣٧	الشرح والتفسير: كيفيه اغتنام الفرصه
٤٤١	الخطبة ٢٣٨

- ٤٤١ اشاره
- ٤٤١ نظره إلى الخطبه
- ٤٤٣ القسم أول
- ٤٤٣ اشاره
- ٤٤٣ الشرح والتفسير: أتباع معاويه
- ٤٤٤ تأمل: جهل أهل الشام
- ٤٤٧ القسم الثاني
- ٤٤٧ اشاره
- ٤٤٧ الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه
- ٤٥١ الخطبه ٢٣٩
- ٤٥١ اشاره
- ٤٥١ نظره إلى الخطبه
- ٤٥٢ الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين
- ٤٥٧ الخطبه ٢٤٠
- ٤٥٧ اشاره
- ٤٥٧ نظره إلى الخطبه
- ٤٥٩ الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان
- ٤٦٣ الخطبه ٢٤١
- ٤٦٣ اشاره
- ٤٦٣ نظره إلى الخطبه
- ٤٦٥ الشرح والتفسير: شقروا واستعدوا للجهاد
- ٤٦٧ تأمل: آفات النهم والترف
- ٤٦٩ خصائص هذا الشرح
- ٤٧١ تعريف مركز

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٨

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

يَعْطُ بِسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه القصيره إلى ثلاثه أمور مهمه تشكل كلّ واحده منها جزءاً من هذه الخطبه:

١. إنّها تدعو السائرين على طريق الحقّ إلى الثقة بالنفس بحيث وألاً يشعروا بوحشه من هذا الطريق رغم قلّه سالكيه.

٢. أشارت إلى أصل اسلامى مهم وهو أنّ الرضا بأعمال الآخرين يجعل الإنسان شريكاً لهم فى تلك الأعمال، وإن لم يكن له من تدخل فى تلك الأعمال.

٣. يوصى بانتخاب طريق الحقّ الواضح والشفاف والبيّن من أجل الوصول

ص: ٥

١- (١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه كثير من علماء الإسلام الذين عاشوا قبل وبعد السيد الرضى بشكل مرسل أو مسند، ويمكن ذكر أربعة أشخاص من الذين الذين عاشوا قبل السيد الرضى وهم: أ) نقل أحمد بن محمّد بن خالد البرقى فى كتابه «المحاسن» قسماً من هذه الخطبه. ب) أوردها النعمانى فى كتابه «الغيبه» بسندين. ج) ذكرها الطبرى من علماء الإماميه فى كتاب «المسترشد». د) أوردها الشيخ المفيد فى كتابه «الإرشاد».

إلى الهدف والحذر من سلوك الطرق المظلمه الملتويه التي تنتهى إلى الغى والضلال.

ص: ٦

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلِّهِ أَهْلُهُ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةِ شِبْعَةَ قَصِيرٍ، وَجُوعَهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَهُ تَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعِيَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» (١) فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ حَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ حُورَ السَّكَّةِ الْمُحَمَّاهِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَارِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التَّيِّه!

الشرح والتفسير: سبيل النجاه

يواسى الإمام عليه السلام - فى هذا الموضوع العميق المعنى - السائرين على النهج أن لا يشعروا قلوبهم أدنى تردد بسبب قلّه سالكيه، فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلِّهِ أَهْلُهُ».

ثم يشير إلى تبرير ذلك فيقول: «فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةِ شِبْعَةَ (٢) قَصِيرٍ، جُوعَهَا طَوِيلٌ». فى إشاره إلى أن أهل الطريق القويم إن كانوا قلّه فإنما يعزى ذلك إلى مغريات الدنيا، فقد شبه الإمام عليه السلام الدنيا فى هذا الكلام العميق المعنى

ص: ٧

١- (١). سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

٢- (٢). «شِبْع» على وزن «عِلل» لها معنى مصدرى وتعنى الشجع بصوره تامه.

بمائه الطعام الغناء التي مُلئت بالأطعمه ذات القيمه القليله أو العديمه القيمه من الناحيه الغذائيه؛ ولكنها زينت بالبهرجه والزخرف، وقد اجتمع حولها طلاب الدنيا متناسين أنّ أطمعتها إنّما تشبعهم لأمد قصير يتبعه جوع طويل.

ولعل هذا «الجوع الطويل» إشاره إلى الحزن والحسره الأبدية التي تطال المتهافتين على الدنيا عند الموت وبعده وفي مشهد القيامة، ومدى الأسى الذي يعتريهم على تقصيرهم في هذه الدنيا.

والواقع أنّ عبارته الإمام عليه السلام هذه العظيمة المعنى هي اقتباس من آيات القرآن الكريم، فقد جاء في الآية ١٠٠ من سوره المائده: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».

بالاضافه إلى الآيات التي تتحدّث عن الأكثرية الجاهله، عديمه الإيمان، غير العاقله، الفاسقه، الجاحده وأمثال ذلك.

ثم ذكر الأمر الثاني؛ الأمر الذي من شأنه حلّ الكثير من المسائل العقائديه والاجتماعيه تكمن في أنّ الذي يميز الجماعات البشريه، الاتجاهات الفكرية ونوازع القلوب، وإن كانوا أفراداً معينين في ظرف معين؛ حيث ينضوى معهم كلّ من تضامن معهم فكراً وارتضاهم قلبياً.

قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَى وَالسُّخْطُ»^(١).

وعليه فليس سبب الاشتراك في النتيجة مجرد الاشتراك في العمل أو إعداد مقدماته والإعانه على الإثم فحسب؛ بل يترتب هذا الاشتراك على الرضى القلبى، ومن هنا وردت صراحه هذه العبارة في الزيارة: «وَلَعَنَّ اللَّهَ أُمَّهُ سَمِعَتْ بِدَلِكِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ»^(٢).

وقد مرّ علينا في الخطبه الثانيه عشره التي مضى شرحها في الجزء الأوّل أنّ

ص: ٨

١- (١) «السخط» ضدّ الرضا بمعنى الغضب.

٢- (٢) زيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام.

عليّاً عليه السلام لما سمع أحد أصحابه بعد معركة الجمل وقد تمنى أن يكون أخوه شهد معهم المعركة فيشترك معهم في تحقيق ذلك النصر. فقال له عليه السلام: «فَقَدْ شَهِدْنَا، وَ لَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَ أَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَ يَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ».

ولعل هذا الكلام يفتح لنا افقاً جديداً في المطالعات الإسلاميه ويحث الجميع على ضروره مراقبه الروابط القلبيه والرضى والسخط الباطنى.

ويحظى هذا المطلب بدرجه من الأهميه بحيث أشارت إليه العديد من روايات المعصومين عليهم السلام؛ فقد ذكر المرحوم الشيخ الحر العاملى فى كتاب «الوسائل» فى أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باباً تحت عنوان: «وَجُوبُ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ عَلَى كَمَلِّ حَالٍ وَ تَخْرِيمُ الرِّضَا بِهِ وَوَجُوبُ الرِّضَا بِالْمَعْرُوفِ» أورد فيه سبعة عشر حديثاً بهذا الخصوص؛ ومنها حديث مفصّل عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ بِالْمَشْرِيقِ فَرَضِي بِقَتْلِهِ رَجُلٌ بِالْمَغْرِبِ لَكَانَ الرَّاظِي عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَرِيكَ الْقَاتِلِ»^(١).

وزيده القول، ليس مجرد العمل أو التعاون فى مقدّماته سبب الاشتراك فى النتائج المترتبة على ذلك العمل فى الشريعة الإسلاميه فحسب؛ بل للرضا القلبى مثل هذا الأثر.

ثم استشهد الإمام عليه السلام بدليل محكم من القرآن المجيد لإثبات هذه الحقيقه فقال:

وَإِنَّمَا عَقَرْنَا قَوْمًا وَاحِدًا بَيْنَمَا عَمَّ الْعَذَابُ جَمِيعَ قَوْمِ ثَمُودَ كَوْنَهُمْ رَضُوا جَمِيعًا بِعَمَلِ ذَلِكَ الْفَرْدِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» عقر القوم الناقه فلما نزل العذاب ندم الجميع «وَإِنَّمَا عَقَرَ (٢) نَاقَهُ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» (٣) فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ

ص: ٩

١- (١) وسائل الشيعه، ج ١١، ص ٤١٠، ح ٤.

٢- (٢). «عقر» من «العقر» على وزن «قفل» تعنى فى الأصل أساس الشئ وإن استعملت فى الحيوان عنت البقر قطع أسفل الرجل وصرعه، كما تعنى نحر الناقه.

٣- (٣). سورة الشعراء، الآيه ١٥٧.

خَارَتْ (١) أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ خَوَارَ السُّكَّةِ (٢) الْمُحْمَاهِ (٣) فِي الْأَرْضِ الْخَوَارِهِ.

يشير كلام الإمام عليه السلام إلى معجزه صالح عليه السلام، نبى قوم ثمود، فلما طلب منه قومه معجزه، خرجت بقدره الله ناقة من صخره فأمنت طائفه بينما أنكر ذلك أغلب القوم، وأوصاهم نبيهم ألا يتعرضوا لتلك الناقة بسوء فيأخذهم العذاب، فلم يأبهوا بقول النبي وعمدوا إلى الناقة ففعلوها، فأتتهم زلزله عظيمه فانشقت الأرض وابتلعت الكفار وبيوتهم.

والمعروف أن قاتل هذه الناقة شقى يدعى «غدار بن سالف»؛ إلا أن العبارة وردت في الآية القرآنية بصيغته الجمع «فَعَقَرُوهَا»، لأنهم رضوا جميعاً بعمله وقد عبروا عن هذا الرضى من خلال دعوته وتشجيعه على الإتيان بذلك العمل الشنيع كما ورد ذلك في الآية ٢٩ من سورة القمر: «فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ».

العبارة «خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ خَوَارَ السُّكَّةِ الْمُحْمَاهِ» إشارة إلى أن حديده المحراث إذا احميت في النار انغمرت سريعاً في الأرض لاسيما في الأرض الرخوة، نعم، فقد انغمرت منطقتهم وما عليها بهذه السرعة في جوف الأرض إثر ذلك الزلزال العظيم.

ثم حذر الإمام عليه السلام في القسم الثالث من هذه الخطبة، عامه الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ (٤)!».

المراد من «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» الطريق الذى عرضه القرآن والسنة والدليل العقلى والذى يهدى الناس إلى ماء الحياه المعنويه وأولئك الذين يضلون الطريق إنما يحرمون من الهدى ويموتون على الكفر والإلحاد.

ص: ١٠

١- (١) «خارت» من «الخوار» على وزن «غبار» صوتت كخوار الثور والناقة وماشابه ذلك وخواره صيغه مبالغتها.

٢- (٢) «السُّكَّة» الحديدية والمحراث.

٣- (٣) «محماه» اسم مفعول من ماده «احماء» وضع الشيء على النار وتطلق «محماه» على الشيء الذى يحمى بالنار.

٤- (٤) «تية» الوادى الجاف كما وردت بمعنى الحَيْرَة.

ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ مِنْهَجَ وَطَرِيقَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدُ مَصَادِيقِ «الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ» وَالْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِ النَّبِيِّ وَأَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِمَنْهَجِهِ وَطَرِيقِهِ، وَهَذَا مَا صَرَّحَ بِهِ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْخُطْبَةِ ٩٧ إِذْ قَالَ: «وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجِ مَنْ نَبِيٍّ وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

وَمَنْ الْبَدِيهِي أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَسِيرُ عَلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ الْمَعْلُومِ إِنَّمَا يَبْلُغُ إِثْنَاءَ الطَّرِيقِ بَعْضَ الْمَنَازِلِ ذَاتِ الْمِيَاهِ الْوَفِيرَةِ، وَمَنْ يَزَلْ عَنِ الطَّرِيقِ عَادَهُ مَا يَجِدُ نَفْسَهُ فِي الصَّحَارَى الْجُرْدَاءِ الْقَاحِلَةِ فِيهِلِكُهُ الْعَطَشُ.

ص: ١١

رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النَّسَاءِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ،

كَالْمُنَاجَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ (١) و (٢).

نظرة إلى الخطبه

كلام الإمام عليه السلام هذا بليغ إلى درجه؛ الكلام الذى يعكس حرقه قلب الإمام عليه السلام

ص: ١٣

١- (١) سند الخطبه: قال ابن أبى الحديد فى «شرح نهج البلاغه» أنّ تعبير السيد الرضى عن فاطمه الزهراء عليها السلام ب «سيده نساء العالمين» اقتباس من خبر متواتر روى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه العبارة أو عبارته أخرى تفيد نفس المعنى. وقال صاحب «مصادر نهج البلاغه» بعد نقله لهذا الكلام: إنّ هذا الحديث (حديث سيده نساء العالمين) متواتر عند علماء الإمامية؛ بل يعد جزءاً من عقائدهم. ثم روى عدّه روايات عن العامّة بهذا الخصوص. أمّا من روى هذه الخطبه من العلماء الذين عاشوا قبل السيد الرضى، فهم كلّ من المرحوم الكلينى فى الجزء الأوّل من كتاب «الكافى» (بعبارات أكثر ممّا أوردها السيد الرضى) والشيوخ المفيد فى كتاب «المجالس» وروتها طائفه أخرى ممن عاش بعد السيد الرضى مع اختلافات تفيد أنّهم استقوها من مصادر أخرى غير «نهج البلاغه»؛ مثل الطبرى فى «دلائل الإمامه» والشيوخ الطوسى فى «الأمالى» وسبط ابن الجوزى فى «تذكرة الخواص» الذين ذكروا دفن الزهراء والأشعار التى أنشدها على عليه السلام فى وداعها. ثم نقل الكلام المذكور مع بعض الاضافات. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٩٣-٩٨).

٢- (٢) الجدير بالذكر أنّ الضمير فى «عند قبره» ورد بصيغه المذكر حيث يعود إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: إنّته قال هذا الكلام حين دفن فاطمه الزهراء عليها السلام، وهذا يعنى أنّ السيد الرضى يرى أنّ قبر الزهراء عليها السلام عند قبر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

حين دفنه الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام، والذي يتضمن بث الشكوى الأليمه والمفجعته ولوعه الفؤاد التي تعكس شكوى الإمام عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن مصائب فاطمه الزهراء عليها السلام من جهه ومصابه بسبب فراق الزهراء عليها السلام من جهه أخرى، وجانب من الحقائق التاريخيه المهمه في صدر الإسلام بصوره غير مباشره؛ لكنّه يعكسها بصيغه بليغه وعميقه وسيرد شرح ذلك في ختام تفسير هذا الكلام.

ص: ١٤

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنْ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ، قَلَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنْ فِي النَّأْسِيِّ لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّ، فَلَقَدْ وَسَدَّتْكَ فِي مَلْحُودِهِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسِيكَ، «فَبِإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!» (١) فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوَدِيعَةَ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَدَّ رَمْدًا، وَأَمَّا لَيْلِي فَمَسَّ هَدْيًا، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي ذَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَدَّ تَبْتُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافِرِ أُمَّتِكَ عَلَيَّ هَضْمَهَا، فَأَحْفَهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبَرَهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطَّلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامٌ مُوَدَّعٍ، لَا قَالٍ وَلَا سَائِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَن مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقِمْ فَلَا عَن سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ.

الشرح والتفسير: لوعه على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام

قال الإمام عليه السلام هذا الكلام الأليم والمفجع حين وسد بيده الشريفه البدن الطاهر لسيدة النساء الزهراء البتول عليها السلام في القبر، وهو الكلام الدال - من جهة - على عظمه الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام ومن جهة أخرى مدى لوعه على عليه السلام على فراقها الأليم.

اختار الإمام عليه السلام أروع وأفضل مخاطب في بيان هذه العبارات؛ أي رسول الله صلى الله عليه وآله ليشاركه ذلك المصاب، فابتدأ كلامه قائلاً: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنْ

ص: ١٥

ابْتَنَيْتِكَ النَّازِلَةَ فِي جَوَارِكِ، وَالسَّرِيْعَةَ اللَّحَاقِ بِكَ».

ورغم أنّ مضمون كلام الإمام عليه السلام، شكوى أليمه ومفجعه؛ إلّا أنّ أدب الخطاب يقتضى أن يستهله بتحية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والسلام عليه.

تفيد العبارة: «النَّازِلَةَ فِي جَوَارِكِ» أنّ قبر سيده النساء عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهذا يدعم نظريه من يرى أنّ الزهراء عليها السلام إنّما دفنت في بيتها.

طبعاً يمكننا أن نعتبر الدفن في البقيع على أنه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وآله أو أن نعتبر المراد بالجوار هو الجوار الروحي والمعنوي في الجنّة؛ غير أنّ المعنى الأوّل أنسب لظاهر العبارة ويؤيد ذلك العديد من الروايات.

أورد المرحوم الكليني روايه تقول: إنّ أحد الصحابه أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن قبر فاطمه عليها السلام فقال: «دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بُنُو أُمَّيَّهَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ» (١).

العبارة: «السَّرِيْعَةَ اللَّحَاقِ بِكَ» إشاره عميقه المعنى لهول مصائب الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام التي ساقتها في ربيع عنفوان شبابها إلى الدار الأبديه فتكون المدّه التي أعقبت التحاقها بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله طبق بعض الروايات ٤٥ يوماً وطبق البعض الآخر ٧٥ يوماً وطبق روايه أخرى ٩٥ يوماً، كما قيل حسب بعض الروايات غير المشهوره ٤ أشهر و ٦ أشهر وهذا ما سنتطرق له في مبحث التأملات بالإضافه إلى موضع قبرها.

ثم واصل الإمام عليه السلام خطابه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «قُلْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ (٢) صَبْرِي، وَرَقَّ عَنِّي تَجَلُّدِي (٣)، إِلَّا أَنْ فِي التَّأْسِي (٤) لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ،

ص: ١٦

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٤٦١، باب مولد الزهراء عليها السلام، ح ٩.

٢- (٢). «صفيّه» من ماده «صفو» على وزن «عفو» بمعنى الصافي والطاهر وصفى بمعنى المصطفى. وقد ذكر الإمام عليه السلام بنت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصفته صفيه ليعكس علو شأنها وجلاله قدرها.

٣- (٣) «تجلّد» من ماده «جلد»، على وزن «بلد» و «جلاده» التي تعنى الصبر والاستقامه و «تجلّد» هنا إشاره إلى التحمل والصبر على المصيبه.

٤- (٤) «تأسي» تأتي أحياناً بمعنى الاقتداء وأحياناً أخرى بمعنى الاغتمام والمعنى الثاني هنا أنسب، لأنّ الكلام عن الهم والغم والحزن وليس الاقتداء، وإن ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأوّل ويبدو أنّ سبب خطأهم ما تعارف عليه في الاستعمالات المتداوله.

يشير إلى أنّ مصيبه الزهراء عليها السلام وإن كانت أليمه للغاية؛ لكنّ ألم مصيبتك كان أعظم وأعمق وتحملها هون احتمال هذه المصيبة، قطعاً كان مصاب على عليه السلام برحيل النبي أعظم، وإن كانت فاطمه الزهراء زوجة عظيمه المنزلة انعدم مثلها؛ فقد كان النبي بمنزلة أبي على عليه السلام وإضافه إلى ذلك، كان بالنسبة لعلي القائد والمرشد والمعلم والأستاذ وبالتالي كلّ شيء لعلي، ومن هنا ورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «يا أبا الرِّيحَانَتَيْنِ... عَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُ رُكْنَاكَ».

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله قال على عليه السلام: «هَذَا أَحَدُ رُكْنِي الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ».

وقال حين استشهدت الصديقه الطاهره الزهراء عليها السلام: «هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ» (٣).

ثم أضاف الإمام عليه السلام في شرحه لهذا الكلام قائلاً: «فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ (٤) فِي مَلْحُودِهِ (٥) قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فَ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»!».

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ «نفس» هنا تعني الدم (لأنّ أحد معاني النفس هو الدم) وقالوا: إنّ قليلاً من الدم خرج من فم النبي عند وفاته وجرى على صدر على عليه السلام؛ ولكن هذا المعنى يبدو مستبعداً، على كلّ حال تفيد القرائن (كما تدل الخطبه ١٩٧) أنّ رأس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين وفاته كان في حجر على عليه السلام ففاضت روحه الطاهره فمرت على صدر على عليه السلام ونحره، رغم ما ذكره بعض

ص: ١٧

١- (١) «فادح» من ماده «فدح»، على وزن «فتح» بمعنى المثقل وتعني هنا المصيبة الجلل.

٢- (٢) «تعزّ» أو «تعزّي» بمعنى الصبر على المصيبة ومادته «عزاء».

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٣، ح ١٤. كما ورد هذا الحديث في مصادر العامه؛ مثل كتاب فضائل الصحابه لأحمد بن حنبل، ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٠٦٧.

٤- (٤) «وسد» من «وساده»؛ والتي تعني هنا وضع الوساده تحت الرأس.

٥- (٥) «ملحوده» من ماده «لحد» على وزن «عهد» بمعنى الشق الذي يجعل في جهه من القبر ويوضع داخله الميت حتى لا يصله التراب حين يمتلىء به القبر.

محدثى العامه من أن عائشه قالت: «كان رأس رسول الله صلى الله عليه وآله فى حجرى لما فاضت روحه»^(١)؛ فليس هنالك من دليل معتبر على هذا الكلام ولعله من قبيل العديد من الروايات التى سعوا من خلالها لنسب فضائل على عليه السلام الواحده تلو الأخرى لغيره.

آنذاك عاد الإمام ثانيه لشرح مصيبه الزهراء عليها السلام فخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً؛ «فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوُدَيْعَهُ، وَأَخَذَتِ الرَّهْيَنَةَ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ^(٢)، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسْهَدٌ^(٣)، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ».

هذه العبارة التى تعكس مدى لوعه على عليه السلام إزاء حادثه شهادته الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام تشير بوضوح إلى مدى قيمه سيده النساء لدى على عليه السلام وعمق الإرتباط العاطفى والمعنوى والروحي بينهما.

التعبير ب «وديعه» إشاره إلى مافعله رسول الله صلى الله عليه وآله على أعتاب وفاته حين أخذ بيد فاطمه ووضعها بيد على عليه السلام وقال: «يا أَبَا الْحَسَنِ هَذِهِ وَدَيْعُهُ اللَّهُ وَوَدَيْعُهُ رَسُولُهُ عِنْدَكَ فَاحْفَظْ اللَّهَ وَاحْفَظْنِي فِيهَا وَإِنَّكَ لَفَاعِلُهُ»^(٤).

ويرى البعض أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال ذلك ليله زفاف الزهراء عليها السلام، وذهب بعض الشراح إلى أن التعبير بالوديعه هنا يشير إلى أن أرواح الناس فى الأبدان شبيهه بالوديعه والأمانه التى تسترد عند الوفاء، إلّا أن هذا التفسير يبدو مستبعداً هنا.

ويمكن أن يكون التعبير ب «الرهينه» حيث إن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أخذ من على عليه السلام عهد الخلفه والوصايه والوفاء وكانت كريمته الزهراء عليها السلام رهينه إزاء ذلك.

وقد استعمل هذا التعبير كون الصديقه أعظم نعمه من الله على على عليه السلام.

ص: ١٨

١- (١). سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٤١؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٤١.

٢- (٢). «سرمد» دائم وطويل ويطلق السرمدى أحياناً على الشىء الذى له بدايه وليس له نهايه.

٣- (٣) «مُسْهَدٌ» من ماده «سهء» على وزن «صمد» بمعنى السهر وعدم النوم. جدير ذكره أن «مسهد» وردت صفه للخبر «ليل» وقد قال الإمام عليه السلام أمّا ليلي فمسهد بدلاً من أن يقول أنا على هذه الحاله، وهذا فى الواقع يشعر بالتأكيد.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٨٤، ح ٣١.

وتفسير العبارة: «أَمَّا حُزْنِي فَسَيَزُمُّدُ» واضح، فالإمام عليه السلام لا يكاد يذكر البتول حتى تتجدد أحزانه وآلامه وهو الحزن الذى خيم على جميع تفاصيل حياه الإمام على عليه السلام.

والعبارة: «وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَيِّهَةٌ» كناية عن أنى أعيش أغلب الليالى على ذكر تلك الصديقه الطاهره، وأن ذكرها ليسلب من عينى النعاس، وخير شاهد على ذلك الأشعار التى أنشدها بعد فراق فاطمه الزهراء عليها السلام:

نَفْسِي عَلَى زَفْرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ

آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى جانب من مصائب فاطمه الزهراء عليها السلام المفجعه فقال:

«وَسَتَّبْتُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافِرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَخْفِهَا(١) السُّؤَالَ، وَاسْتَنْخِرْهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخُلْ مِنْكَ الذُّكْرُ».

الظاهر أن هذه العبارات المقتضبه من أميرالمؤمنين على عليه السلام بغيه رعايه الأدب عند قبر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله فلا يخوض فيها ولا يشرحها، والتى تشير إلى الأحداث المأساويه التى أعقبت رحيل النّبي؛ من قبيل الهجوم على بيت الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام، وإضرار النار فى البيت، وإسقاط جنينها المحسن وحمل الإمام على عليه السلام إلى المسجد بالقوه من أجل البيعه وهذا ما سنتناوله فى ختام هذا البحث، وهى الأحداث التى لم ترد بصيغه مركزه فى مصادر الإماميه والعجيب أنها ذكرت صراحه فى مصادر العامه.

والمفرد «تضافر» من ماده «ضفر» (على وزن ضعف) تعنى التعاون والتعااضد للقيام بعمل، إشاره إلى أن فئه من الأمه كانت شريكه فى ارتكاب تلك الجرائم، ولما كان الأعم الأغلب قد لاذ بالصمت الذى يعنى تأييد ذلك الفعل نسب إلى جميع

ص: ١٩

الأُمَّه، و «هضم» تعنى فى الأصل الظلم والكسر، والمفردة «عهد» هنا بمعنى الزمان ولها معانٍ أخرى.

كما يحتمل أن يكون المراد من هذا العهد هو العهد الذى أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن خلافه على عليه السلام وحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام ولاسيما ابنته الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام وجعلهم عدل القرآن بمقتضى حديث الثقلين وأمثال ذلك؛ أى لم تمض مدّه طويله على تلك العهود حتى نسيت طائفه من الأُمَّه كلّ شىء وإرتكبت أفضع الجرائم التى تذهل العقول.

ثم اختتم خطبته مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفاطمه الزهراء عليها السلام قائلاً: «وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَيِّلَامٌ مُودَعٌ، لَا قَالَ (١) وَلَا سَيْمٌ (٢)، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ».

ورد فى روايه «الكافى» فى ذيل هذا الكلام: «واه واهاً وَالصَّبْرُ أَيْمَنُ وَأَجْمَلُ وَلَوْ لَا غَلَبَهُ الْمُسَيِّئُونَ لَجَعَلْتُ الْمَقَامَ وَاللَّبْثَ لِرَاماً مَعْكُوفاً وَلَاغَوْلَتْ إِغْوَالَ الثُّكْلَى عَلَى جَلِيلِ الرَّزِيَةِ فَبِعَيْنِ اللَّهِ تُدْفَنُ ابْنَتُكَ سِتْرًا وَتُهَضَّمُ حَقَّهَا وَتُمْنَعُ إِرْثَهَا وَلَمْ يَتَّبَعِيْدِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُقْ مِنْكَ الذُّكْرَ وَإِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُشْتَكَى وَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنَ الْعَزَاءِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ» (٣).

ويتضح بجلاء من هذه العبارات وما ورد فى «نهج البلاغه» مدى شدّه المصائب التى جرّعها الفسقه أهل البيت عليهم السلام وبضعه النبي صلى الله عليه وآله عقب تلك المدّه الوجيزه بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله التى هزّت عليّاً عليه السلام بصفته جبل الحلم والصبر وجعلته يبكى بكاء الثكلى، والعجيب أن أسناد ذلك الهجوم البربرى على بيت الرسالة ورد فى مصادر العامه بصوره مستفيضه.

ص: ٢٠

١- (١). «قال» من ماده «قلّى» على وزن «وعى» بمعنى المبعض ويطلق «قال» على الشخص المبعض لشىء.

٢- (٢) «سئم» من «السآمه» على وزن «فلاحه» بمعنى الكسل والضجر ويطلق «سئم» على من يتصف بهذه الحاله.

٣- (٣) الكافى، ج ١، ص ٤٥٩، باب مولد فاطمه الزهراء عليها السلام.

برغم قصر المدّة التي عاشتها فاطمة الزهراء، الصديقه الطاهره سيده نساء العالمين؛ غير أنّ سيرتها وفضائلها ومناقبها ومصائبها طويله للغايه، وقد أشار بعض شراح نهج البلاغه إلى جانب من ذلك حين تعرضوا لشرح هذه الخطبه، ومن الضروري أن نشير بدورنا إلى بعض الأمور:

١. فاطمه الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله

تتمتع الصديقه الطاهره بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزله رفيعه، وتوضح عصمتها من الذنوب من خلال ما ورد فيها من أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال فيها:

«فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي» (١).

ومن الواضح أنّ غضب رسول الله صلى الله عليه وآله مدعاه لأذاه وقد صرح القرآن الكريم بشأن من يؤذيه قائلاً:

«وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢).

وليت شعري أى دليل أدل على فضيلتها وعصمتها من حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي نص على أنّ رضاها رضى الله وغضبها غضبه سبحانه فقال:

«يَا فَاطِمَةُ إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ» (٣).

ولتمتعها بهذه المنزله العظيمه فهى سيده نساء العالمين فقال لها النبي صلى الله عليه وآله:

«يَا فَاطِمَةُ! أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ» (٤).

ص: ٢١

١- (١) فتح الباري فى شرح صحيح البخارى، ج ٧، ص ٨٤ وذكر البخارى هذا الحديث فى قسم دلائل النبوه، ج ٦، ص ٤٩١، وأواخر المغازى، ج ٨، ص ١١٠.

٢- (٢) سورة التوبه، الآيه ٦١.

٣- (٣) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٤؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٠٣ وذكر الحاكم فى كتاب المستدرک أحاديث جامعه الشرائط التى صرح بصحتها البخارى ومسلم.

٤- (٤) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٦.

٢. حرمة بيت الزهراء عليها السلام في القرآن والسنة

قال المحدثون: لما نزلت الآية المباركة: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُزَافَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ» (١). قرأ رسول الله هذه الآية: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُزَافَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ» فقام إليه رجلٌ فقال: أئى بيوت هذه يا رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: بيوت الأنبياء.

فقام إليه أبو بكرٍ، فقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله: أهذا البيت منها، مشيراً إلى بيت علي وفاطمة عليها السلام.

قال صلى الله عليه وآله: نعم، من أفاضلها (٢).

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ تسعة أشهر على بيت فاطمه فيسلم عليها وعلى علي عليه السلام (٣). ويقرأ هذه الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (٤).

البيت الذى كان مركز النور الإلهى وقد أمر الله أن يرفع إنّما يتمتع بحرمه عظيمه.

نعم البيت الذى يضم أصحاب الكساء ويثنى الله تبارك وتعالى عليه لا بد أن يحظى باحترام قاطبه المسلمين.

وهنا لا بد أن نرى كيفية التعامل مع حرمة ذلك البيت عقب وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله؟

وكيف هتكت حرمة ذلك البيت، وقد اعترفوا أنفسهم بذلك صراحة؟

ومن هم أولئك الذين انتهكوا الحرمات، وماذا كان هدفهم؟

٣. انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام

ص: ٢٢

١- (١) . سورة النور، الآية ٣٦.

٢- (٢) الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٠٣؛ تفسير سورة النور، روح المعاني، ج ١٨، ص ١٧٤.

٣- (٣) . الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٠٦.

٤- (٤) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

للأسف رغم كل هذه الوصايا والتأكيدات فإن البعض تجاهل هذه الحرمه وانتهكها، وهذه ليست بالمسأله الهينه التي يمكن التغاضي عنها.

وسنذكر هنا نصوصاً من مصادر العامه ليتضح من خلالها أنّ انتهاك حرمه بيت الزهراء عليها السلام وما تبعه من أحداث، قضيه تاريخيه ومسلّمه؛ وليست خرافه! ورغم الضغوط الشديده في عصر الخلفاء إزاء ذكر وتدوين فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام إلّا أنّ «الشمس لا تحجب بالغربال» فلم تحجب هذه الحقيقه التي بقيت حيّه في بطون كتب التاريخ والحديث، وسنراعى الترتيب الزماني في عرض الوثائق منذ القرون الأولى حتى العصر الحاضر.

الف) ابن أبي شيبه، المحدث المعروف لدى العامه في كتاب «المصنّف»

قال أبو بكر بن أبي شيبه (١٥٩-٢٣٥) مؤلف كتاب «المصنّف» بسند صحيح:

«إِنَّهُ حِينَ بُويعَ لأبي بكرٍ بَعِيدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ يَدْخُلَانِ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، فَيُشَاوِرُونَهَا وَيُرْتَجِعُونَ فِي أَمْرِهِمْ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خَرَجَ وَدَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ، فَقَالَ: يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِيكَ وَمَا مِنْ أَحَدٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا بَعْدَ أَبِيكَ مِنْكَ، وَأَيْمُ اللهِ مَا ذَاكَ بِمَانِعِي إِنْ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ عِنْدَكَ أَنْ أَمْرُهُمْ أَنْ يُحْرَقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتُ.

قال: فَلَمَّا خَرَجَ عُمَرُ جَاؤُوهَا، فَقَالَتْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ عَمَرَ قَدْ جَاءَنِي، وَقَدْ حَلَفَ بِاللَّهِ لَنْ عُدُّتُمْ لِيَحْرِقَنَّ عَلَيْكُمُ الْعَيْتَ، وَأَيْمُ اللهِ لِيَمِضَيْنَّ لِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ» (١).

وقد وردت هذه الحادته بسند صحيح في كتاب «المصنّف».

ب) البلاذري، المحدث الكبير عند العامه في كتاب «أنساب الاشراف»

روى أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (م ٢٧٠) صاحب التاريخ المعروف، هذه الحادته التاريخيه في كتابه «أنساب الأشراف» قائلاً:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ يُرِيدُ الْبَيْعَةَ فَلَمْ يُبَايِعْ، فَجَاءَ عُمَرُ وَمَعَهُ فَيْلُهُ! فَتَلَقَّتهُ

ص: ٢٣

فاطمه على الباب.

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا ابْنَ الْخُطَّابِ، أَتَرَكَ مُحْرِقًا عَلَيَّ أَبِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ أَقْوَى فِيمَا جَاءَ بِهِ أَبُوكَ...»(١).

(ج) ابن قتيبه وكتاب «الإمامه والسياسه»

المؤرخ الشهير عبدالله بن مسلم بن قتيبه الدينوري (٢١٢-٢٧٦) من أساطين الأدب، وكتاب التاريخ الإسلامى ومؤلف كتاب (تأويل مختلف الحديث)، (أدب الكاتب) و... (٢) قال فى كتاب «الإمامه والسياسه»:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ (رض) تَفَقَّدَ قَوْمًا تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَتِهِ عِنْدَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عُمَرَ فَجَاءَ فَنَادَاهُمْ وَهُمْ فِي دَارِ عَلِيٍّ، فَأَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا فَدَعَا بِالْحَطَبِ وَقَالَ:

وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لِأَحْرَقَنَّهَا عَلَيَّ مَنْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا حَفْصِ إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ. فَقَالَ: وَإِنْ!»(٣).

وأضاف ابن قتيبه عقب ذكره لهذه الحادثة البشعة والمؤلمة فقال:

«ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَمَشَى مَعَهُ جَمَاعَةٌ حَتَّى أَتَوْا فَاطِمَةَ فَدَقُّوا الْبَابَ فَلَمَّا سَمِعَتْ أَصْوَاتَهُمْ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا يَا أَبَتَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِينَا بَعْدَكَ مِنْ ابْنِ الْخُطَّابِ وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ صَوْتَهَا وَبُكَاءَها انْصَرَفُوا وَبَقِيَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَوْمٌ فَأَخْرَجُوا عَلِيًّا فَمَضَوْا بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنْ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ فَمَهْ؟ فَقَالُوا: إِذَا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَكَ...!»(٤).

طبعاً يصعب جداً هضم هذه الحقبه من التاريخ على بعض الموالين للشيخين، لذلك سعى البعض للتشكيك فى نسب هذا الكتاب لابن قتيبه، فى حين يراه ابن

ص: ٢٤

١- (١) أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨٦، طبع دار المعارف، القاهرة.

٢- (٢) الأعلام للزركلى، ج ٤، ص ١٣٧.

٣- (٣) الإمامه والسياسه لابن قتيبه، ص ١٢، مطبعه المكتبه التجاربه الكبرى، مصر.

٤- (٤) المصدر السابق، ص ١٣.

أبي الحديد الأستاذ البارح في التاريخ، أنه من كتبه وقد روى منه العديد من المطالب، والمؤسف أن هذا الكتاب طالته يد التحريف وحذفت بعض مواضعه عند الطباعه، بينما وردت نفس تلك المطالب في «شرح نهج البلاغه» لابن أبي الحديد المعتزلى.

وعده الزركلى في كتاب «الأعلام»، من آثار ابن قتيبه وقال: هنالك رأى للعلماء فى هذه النسبه؛ أى أنه ينسب الشك إلى الآخرين وليس لنفسه، كما يراه إياس سر كيس من كتب ابن قتيبه(١).

(د) الطبرى وتاريخه

ذكر محمد بن جرير الطبرى (م ٣١٠) فى تاريخه حادثه هتك حرمه بيت الوحي فقال:

«أتى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَنْزِلَ عَلِيٍّ وَفِيهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَرِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَخْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجَنَّ إِلَى الْجَبِينَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ مُضَلِّتًا بِالسَّيْفِ فَعَثَرَ فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَوَثَبُوا عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ»(٢).

تفيد هذه الحقبه التاريخيه أن أخذ البيعه للخليفه تم فى ظل التهديد والوعيد وأما قيمه مثل هذه البيعه فمتروكه لإنصاف القراء الأعزاء.

(ه) ابن عبد ربه وكتاب «العقد الفريد»

أورد شهاب الدين أحمد المعروف ب (ابن عبد ربه الأندلسى) مؤلف كتاب (العقد الفريد) (م ٤٦٣) بحثا مسهباً فى كتابه بشأن تاريخ السقيفه، فقد قال فى فصل من تخلف عن بيعه أبى بكر:

ص: ٢٥

١- (١) معجم المطبوعات العربيه، ج ١، ص ٢١٢.

٢- (٢) تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٤٤٣، طبعه بيروت.

«فَأَمَّا عَلِيُّ وَالْعَبَّاسُ وَالزُّبَيْرُ فَقَعِدُوا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَبَوَا فَقَاتِلَهُمْ، فَأَقْبَلَ بِقَبْسٍ مِنْ نَارٍ أَنْ يُضْرِمَ عَلَيْهِمُ الدَّارَ، فَلَقِيَتْهُ فَاطِمَةُ فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَجِئْتَ لِتُحْرِقَ دَارَنَا؟! قَالَ: نَعَمْ، أَوْ تَدْخُلُوا فِيهَا دَخَلَتْ فِيهِ الْأُمَّةُ!» (١).

تم إلى هنا الفصل الذي صرح فيه بالعزم على انتهاك الحرمه، ونخوض الآن في الفصل الثاني الذي يفيد التطبيق العملي لتيه السوء المبيته، والحذر من الاعتقاد بأن نيه القوم كانت تقتصر على التهديد والوعيد ليجبروا علياً عليه السلام وصحبه على البيعه وأنهم لم يكونوا يفكرون بتفعيل ذلك التهديد.

وقوع الهجوم

انتهى إلى هنا كلام تلك الطائفة من المؤرخين الذين اقتصروا على الإشارة إلى سوء نيه الخليفه وبطانته، الطائفة التي لم ترد أو لم تستطع عكس الفصول القادمه لتلك الفاجعه بصوره واضحه، في حين أشار البعض الآخر إلى أصل الجريمة؛ أي الهجوم على البيت و... وإليك الآن وثائق الهجوم وانتهاك حرمه بيت رساله والوحى، بيت فاطمه الزهراء عليها السلام: (وسنراعى في هذا الفصل أيضاً الترتيب الزمانى فى نقل المصادر).

(و) أبو عبيد وكتاب «الأموال»

قال أبو عبيد، قاسم بن سلام (م ٢٢٤) فى كتابه (الأموال) الموثق عند العامه:

«قال عبدالرحمن بن عوف: عدت أبا بكر فى مرضه فى بيته، فقال بعد كلام طويل: وددت أنى لم أفعل ثلاثاً كنت فعلتھن، كما وددت أنى سألت النبى عن ثلاث؛ وإحدى الثلاث التى فعلتها ووددت أنى لم أفعلها: «وَدَدْتُ أَنْى لَمْ أَكْشِفْ»

ص: ٢٦

بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكَتُهُ وَإِنْ أَغْلِقَ عَلَيَّ الْحَزْبِ» (١).

قال أبو عبيد لما بلغ هذا الموضوع بدلاً من العبارة: «لم أكشف بيت فاطمه وتركته...»: «كذا وكذا» وقال، لا أود ذكره!

ورغم امتناع أبي عبيد، عن ذكر الحقيقة بسبب تعصبه المذهبي أو لعله أخرى؛ غير أن المحققين لكتاب الأموال قالوا في الحاشية: وردت العبارة المحذوفة في كتاب ميزان الاعتدال، كما ذكر الطبراني تلك العبارة في معجمه وابن عبد ربّه في العقد الفريد، وغيرهم من المؤرخين. (لابد من الدقة!).

(ز) الطبراني و «المعجم الكبير»

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠) الذي عدّه الذهبي في ميزان الاعتدال ثقه (٢). حيث تحدّث في كتاب (المعجم الكبير) الذي طبع كراراً عن أبي بكر ووفاته:

ود أبو بكر عند وفاته أموراً فقال: وددت أنّي لم أفعل ثلاثاً وفعلت ثلاثاً وسألت رسول الله عن ثلاث: «أما الثلاث اللّائى ودّدت أنّي لم أفعلهنّ، فودّدت أنّي لم أكن أكشف بيت فاطمة وتركته...» (٣).

تفيد هذه العبارات أنّ تهديدات عمر دخلت حيز التنفيذ وفتح باب الدار بالقوّه (أو بالنار).

(ح) أيضاً ابن عبد ربّه و «العقد الفريد»

روى ابن عبد ربّه الأندلسى مؤلف كتاب العقد الفريد (م ٤٦٣) فى كتابه عن

ص: ٢٧

١- (١) الأموال، الحاشية ٤، نشر الكليات الأزهرية، كذلك ص ١٤٤، طبعه بيروت، كما روى ذلك ابن عبد ربّه فى العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣ كما سيرد علينا.

٢- (٢) . ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٩٥.

٣- (٣) المعجم الكبير للطبراني، ج ١، ص ٦٢، ح ٣٤، تحقيق حمدى عبدالمجيد السلفى.

عبدالرحمن بن عوف:

«دَخِلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي مَرَضِهِ فَقَالَ: وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ ثَلَاثًا إِحْدَاهَا:

وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكْشِفْ بَيْتَ فَاطِمَةَ عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ كَانُوا أَعْلَقُوهُ عَلَى الْحَرْبِ»^(١).

وسيرد علينا أسماء وعبارات سائر الشخصيات الذين نقلوا هذا القسم من كلام الخليفة.

(ط) كلام النُّظَامِ فِي كِتَابِ «الوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ»

إبراهيم بن سيار النُّظَامِ المَعْتَزَلِي (١٦٠-٢٣١) الَّذِي لَقِبَ بِالنُّظَامِ لِجَمَالِ كَلَامِهِ فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ، نَقَلَ فِي عَدَّةِ كُتُبِ تَفَاصِيلِ الْوَاقِعِ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى بَيْتِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ. فَقَالَ:

«إِنَّ عُمَرَ ضَرَبَ بَطْنَ فَاطِمَةَ يَوْمَ الْبَيْعَةِ حَتَّى أَلْقَتِ الْمُحْسِنَ مِنْ بَطْنِهَا»^(٢).

(ي) الْمَبْرَدُ فِي كِتَابِ «الْكَامِلِ»

كُتِبَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ: رَوَى الْأَدِيبُ الْمَعْرُوفُ صَاحِبُ الْمَوْالِفَاتِ الْمَشْهُورِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْبَرِ الْبَغْدَادِي (٢١٠-٢٨٥) فِي كِتَابِ «الْكَامِلِ» عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَصَّه أَمَانِيُّ الْخَلِيفَةِ فَقَالَ:

«وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ كَشَفْتُ عَنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ وَلَوْ أُعْلِقَ عَلَى الْحَرْبِ»^(٣).

(ك) الْمَسْعُودِيُّ وَ «مَرْوَجُ الذَّهَبِ»

كُتِبَ الْمَسْعُودِيُّ (م ٣٢٥) فِي «مَرْوَجِ الذَّهَبِ»: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا بَكْرٍ الْوَفَاءَ قَالَ:

ص: ٢٨

١- (١) الْعَقْدُ الْفَرِيدُ، ج ٤، ص ٩٣، طَبَعَ مَكْتَبَةُ الْهَلَالِ.

٢- (٢) الْوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ، ج ٦، ص ١٧، رَقْمُ ٢٤٤٤؛ الْمَلَلُ وَالنَّحْلُ لِلشَّهْرِسْتَانِيِّ، ج ١، ص ٥٧، طَبَعَ دَارُ الْمَعْرِفَةِ، بَيْرُوتَ وَاللُّوْقُوفِ عَلَى تَرْجُمَةِ النُّظَامِ رَاجِعَ كِتَابِ «بَحُوثُ فِي الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ»، ج ٣، ص ٢٤٨-٢٥٥.

٣- (٣) شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٧، طَبَعَهُ مِصْرَ.

فعلت ثلاثاً تمنيت أني لم أفعلها:

«فَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَتَشْتُ بَيْتَ فَاطِمَةَ» وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ كَلَاماً كَثِيراً!!!^(١).

ورغم اعتقاد المسعودي بأهل البيت؛ لكنه امتنع هنا عن التعرض لكلام الخليفة ومرّ عليه على نحو الكناية، وبالطبع فإنّ الله يعلم السبب وعباد الله أيضاً يعلمونه إجمالاً!

ل) الذهبي وكتاب «ميزان الاعتدال»

روى الذهبي في كتاب «ميزان الاعتدال» عن الحافظ محمّد بن أحمد الكوفي أنه قرأ هذا الخبر على أحمد بن محمّد المعروف ب (ابن أبي دارم)، المحدث الكوفي (م ٣٥٧):

«إِنَّ عُمَرَ رَفَسَ فَاطِمَةَ حَتَّى اسْقَطَتْ بِمُحْسِنٍ!»^(٢).

م) عبدالفتاح عبدالمقصود وكتاب «الإمام علي»

فقد ذكر الهجوم على بيت الرسالة في موضعين من كتابه ونكتفي بنقل أحدهما:

قال عمر: «وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَيُخْرِجَنَّ أَوْ لَأَحْرِقَنَّهَا عَلِيٌّ مَنْ فِيهَا...! قَالَتْ لَهُ طَائِفَةٌ خَافَتْ اللَّهَ وَرَعَتْ الرَّسُولَ فِي عَقِبِهِ: يَا أَبَاحْفَصَ، إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ...!»

فَصَاحَ لِأَيُّبَالِي: وَإِنْ...! وَاقْتَرَبَ وَقَرَعَ الْبَابَ، ثُمَّ ضَرَبَهُ وَافْتَحَهُ... وَيَدَا لَهُ عَلِيٌّ... وَرَنَّ حِينَذَاكَ صَوْتُ الزَّهْرَاءِ عِنْدَ مَدْخَلِ الدَّارِ... فَإِنَّ هِيَ الْبَاطِنِينَ اسْتِغَاثَةً...!»^(٣).

ونختتم هذا البحث بروايه أخرى عن مقاتل بن عطية في كتاب الإمامه والخلافه (وإن كان هنالك الكثير الذي يقال!).

ص: ٢٩

١- (١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١، مطبعة دار الأندلس، بيروت.

٢- (٢) ميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٣٩، العدد ٥٥٢.

٣- (٣) عبدالفتاح عبدالمقصود، علي بن أبي طالب، ج ٤، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.

حيث ذكر في هذا الكتاب:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعِيدٌ مَا أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ مِنَ النَّاسِ بِالْإِزْهَابِ وَالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ أَرْسَلَ عُمَرَ وَفُنْفُنْدًا وَجَمَاعَةً إِلَى دَارِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ وَجَمَعَ عُمَرُ الْحَطَبَ عَلَى دَارِ فَاطِمَةَ وَأَخْرَقَ بَابَ الدَّارِ!...» (١).

وردت في ذيل هذه الرواية عبارات يعجز القلم عن بيانها.

النتيجة

بالرغم من كل هذه الوثائق الواضحة وأغلبها من مصادر العامّة مازال هناك البعض الذي يستعمل عبارته «أسطورة الشهادة» ويؤمن بأن هذه الحادثة المريرة مصطنعة! ولولا إصرار هذا البعض على نفى هذه الحقائق لما أسهبنا إلى هذا الحد في البحث.

٤. القبر الطاهر لفاطمة الزهراء عليها السلام

إن إحدى المصائب العظيمة لبضعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن قبرها الشريف مازال مجهولاً لحدّ الآن؛ ويرى البعض وحسب طائفته من الروايات أنها دفنت في البقيع، والبعض الآخر أنها دفنت في بيتها إلى جانب مسجد النبي، وآخرون أنها دفنت في الروضة (المسافة الواقعة بين قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومنبره الشريف).

وهذا المطلب يحمل كل محقق على التفكير، ترى، ما العاصفة التي اعترت الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليخفى القبر الطاهر لبضعه النبي الوحيد؟ وإن دلت أغلب القرائن على دفنها في بيتها، فالدفن في الروضة لم يكن حيناً آنذاك ومن المستبعد أن يرضى على عليه السلام بهذا العمل، كما لا ينسجم دفنها في البقيع وما ورد في هذه الخطبة، لأن

ص: ٣٠

١- (١) الإمامة والخلافه، ص ١٦٠ و ١٦١، تأليف مقاتل بن عطية مع مقدمه الدكتور حامد داود، استاذ جامعه عين شمس، الذي طبع بالقاهرة (مطبعة بيروت، مؤسسه البلاغ).

العبارة: «النَّازِلُ فِي جَوَارِكٍ» تشير إلى أن قبرها عليها السلام كان جوار قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

روى المرحوم العلامة المجلسي عن إبراهيم بن محمّد الهمداني أنه قال: كتبت للإمام الهادي (علي بن محمّد النقي عليهما السلام) أخبرني عن قبر فاطمه عليها السلام! فكتب إلي:

«هِيَ مَعَ جَدِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ»^(١).

قال المرحوم الصدوق: الصحيح عندي أنها دفنت في بيتها وحين زاد بنو اميه في المسجد أصبحت جزءً منه^(٢).

ورغم أن قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر القبور هي داخل المسجد؛ ولكنه عزل عن المسجد بواسطة الجدران والشبابيك.

روى في كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام» عن البنزطي قال: «سألت الرضا عن قبر فاطمه؛ قال:

«دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بَنُو امِيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ»^(٣).

وعليه فكل من يقف عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الروضة المقدّسه ويزور فاطمه الزهراء عليها السلام فإنه ينال إن شاء الله فضيله زيارتها عن قرب، كما يمكن زيارتها في البقيع برجاء المطلوبيه.

٥. زمان شهاده بضعه النبي

لم يقتصر الخلاف على موضع دفن بضعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فحسب، بل هنالك خلاف حتى في تاريخ وفاتها.

ففي الروايه المعروفه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

ص: ٣١

١- (١) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ١٩٨، ح ١٨.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٧٢.

٣- (٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٧٨، ح ٧٦.

«إِنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا».

وورد في ذيل هذه الروايه:

«كَانَ سَبَبُ فَوْتِهَا أَنَّ قُفُودَ مَوْلَى عُمَرَ لَكَزْهَا بِنَعْلِ السَّيْفِ بِأَمْرِهِ فَأَسْقَطَتْ مُحْسِنًا وَمَرَضَتْ مِنْ ذَلِكَ مَرَضًا شَدِيدًا»^(١).

وبالنظر إلى أن وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت في ٢٨ صفر فإن شهادتها لا بد أن تكون في أحد هذه الأيام الثلاثة؛ الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر من جمادى الأولى (مع الأخذ بنظر الاعتبار احتمال تماميه أو نقصان الأشهر الوسط).

وورد في روايه أخرى أنّ الصديقه الطاهره فاطمه عليها السلام توفيت يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الآخره السنه الحاديه عشره للهجره^(٢) وتنسجم هذه الروايه مع الرأى القائل أنّ فاطمه الزهراء عليها السلام عاشت بعد أبيها ٩٥ يوماً.

وعدّ المرحوم العلامة المجلسي في «زاد المعاد» هذا القول بشأن زمان وفاه الزهراء عليها السلام، معتبراً وقال: وهذا مقبول الشيخ الطوسي والسيد ابن طاووس وآخرين، ورغم منافاه هذه الروايه مع روايه ال ٧٥ يوماً؛ ولكن حيث تعززها روايه مشهوره ومعتبره، فلا بد من إقامه مراسم العزاء على الصديقه الطاهره في اليوم الثالث من جمادى الثانيه^(٣).

كما ورد في روايه غير مشهوره أنّها عاشت بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله ٤٠ يوماً^(٤).

ص: ٣٢

١- (١) دلائل الإمامه، ص ١٣٤، ح ٤٣؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١. كتب المرحوم العلامة المجلسي في الشرح في الصفحه ٢١٥ بعد الحديث ٤٧: «فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا عَاشَتْ بَعْدَ أَبِيهَا خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا».

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١.

٣- (٣) زاد المعاد، ص ٤٥٦.

٤- (٤) كشف الغمّه، ج ٢، ص ٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٧، ح ٨.

فِي التَّرْهِيدِ مِنَ الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبِ فِي الآخِرَةِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه القصيره والعميقه المعانى إلى بضعه أمور:

١. أنّ الدنيا دار ممر ليس أكثر وأنّ الآخره هي مقرّ الإنسان الأبدى ولا بدّ من التزود من الممر لدار المقرّ.

٢. ينبغي للإنسان أن يحلق بروحه خارج الدنيا قبل أن يزول جسده.

٣. الدنيا دار امتحان ومسرح ابتلاء.

٤. إنّ الناس ينظرون إلى أموال الإنسان التي يخلفها حين يغادر الدنيا بينما تنظر الملائكه إلى أعماله.

ص: ٣٣

١- (١) سند الخطبه: ذكر بعض العلماء قبل وبعد السيّد الرضى، هذه الخطبه في كتبهم؛ فقد رواها قبل السيّد الرضى، المرحوم الصدوق، في «الأمالى» و «عيون أخبار الرضا عليه السلام»، والمرحوم الشيخ المفيد في كتاب «الإرشاد» (الأمالى للصدوق، ص ١٧٢، ح ١٧٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٦٧، ح ٥٦؛ الإرشاد، ج ١، ص ٢٩٦) ورواها من بعد السيّد الرضى (بدون الاستناد لنهج البلاغه) المرحوم الطبرسى في «مشكاه الأنوار» ووزّام بن أبى فراس في «مجموعه وزّام» (مشكاه الأنوار، ص ٤٦٧؛ مجموعه ورام، ج ٢، ص ١٦٥). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٩٨).

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسِيرَاتِكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَيْدِيكُمْ، فَفِيهَا اخْتِبرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَمَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ! فَاقْدُمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ قَرْضًا، وَلَا تُخْلِفُوا كَلًّا فَيَكُونَ فَرَضًا عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير الدنيا ممر

أشار الإمام عليه السلام في بدايه هذه الخطبه إلى مسأله مهمه بشأن حقيقه الدنيا والآخره حيث تعد الغفله عنها مصدر شقاء الإنسان وتعاساته، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ (١)، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ».

إنَّ أغلب المشاكل تنبع من كون الإنسان يرى الدنيا دار بقاء، ومن هنا ينهمك بجمع المال والثروه عن أى طريق ومهما كلف الأمر، ويبخل بها إزاء صرفها فى الأمور الخيره، ولذلك يرتكب العديد من الأفعال السيئه ويسوف التوبه، وقد وردت هذه الحقيقه بعدّه تعبيرات فى الروايات لتعتبر الدنيا أحياناً:

«الدنيا قنطره» (٢)، وأخرى: «مَنْجَرٌ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ» (٣)، وتاره «الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ

ص: ٣٥

- ١- (١) «مَجَاز» من ماده «جواز» بمعنى العبور وأريد بها هنا الممر والعبور (وإن كان لها معنى مصدرى). ومن هنا يطلق المجاز فى الكلام كون المتكلم يتجاوز المعنى الحقيقى ويظفر بمعنى آخر يناسبه.
- ٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣١٩، ح ٢١.
- ٣- (٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٣١.

الآخِرَه» (١) والتي تفيد جميعاً ذات المعنى.

ثم أشار في هذا السياق إلى أمر آخر فقال: «وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ».

يرى أغلب الشراح أنّ هذه العبارة تشير إلى عدم التجاهر بالمعصية، لأنّ المعصية الخفية في الواقع معصية واحده، بينما تعتبر المعصية العلنية مضاعفه كونها انتهاك للستار وتلوّث للبيئه الاجتماعيه؛ إلّا أنّ بعض الشراح اعتبرها إشاره إلى أعمال الخير فإنّها أفضل أن يؤتى بها في الخفاء، والحال العبارة (وَلَا تَهْتِكُوا) لا تناسب مع هذا المعنى.

على كلّ حال فإنّ الله ستار العيوب وغفّار الذنوب؛ فمادام العبد لا يهتك الستر فإنّ الله يستر العيب والذنب.

فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ أَرْبَعُونَ جُنَّةً حَتَّى يَعْمَلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَهُ فَإِذَا عَمَلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَهُ انْكَشَفَتْ عَنْهُ الْجَنَّةُ». ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فِيُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَنْ اسْتُرُوا عَلَى عَبْدِي بِأَجْنِحَتِكُمْ فَتَسْتُرُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، قَالَ: فَمَا يَدْعُ شَيْئاً مِنَ الْقَبِيحِ إِلاَّ قَارَفَهُ حَتَّى يَمْتَدِّحَ إِلَى النَّاسِ بِفِعْلِهِ الْقَبِيحِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ مَا يَدْعُ شَيْئاً إِلاَّ رَكِبَهُ، وَإِنَّا لَنَسْتَحِي مِمَّا يَصْنَعُ، فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ أَنْ ارْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَخَذَ فِي بُغْضِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْهَتُكَ سِتْرُهُ فِي السَّمَاءِ وَسِتْرُهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ قَدْ بَقِيَ مَهْتُوكَ السِّتْرِ، فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ: لَوْ كَانَتْ لِلَّهِ فِيهِ حَاجَةٌ مَا أَمَرَكَ أَنْ تَرْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ» (٢).

ولعل إرتباط هذه العبارة بالعبارات السابقه أنّ من أسوأ الذنوب التي تخرب الدار الآخرة للإنسان يكمن في التجاهر بالمعصية.

ص: ٣٦

١- (١) روى هذا الحديث في عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٦٧، ح ٦٦ عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٧٩، ح ٩.

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن الزهد في الدنيا مشيراً إلى نقطه ثالثة فقال:

«وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ».

إخراج القلوب، كناية لطيفة عن ترك التعلقات الدنيوية والتهافت على متاعها وحطامها، والتعبير «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ...» تحذير من تقلب هذا العالم بمعنى أفيقوا فإن هذه الأجساد ستصبح تراباً فاسعوا لإخراج قلوبكم من هذه الدنيا قبل الأوان فحب الدنيا رأس كل خطيئة.

طبعاً لا يعنى هذا أن لا يتمتع المسلمون بحوائج الحياة أو أن تتخلف المجتمعات الإسلامية عن التقدم الاقتصادي ويحتاجون إلى غيرهم، بل المراد التبعية الشديدة التي تضطر الإنسان لخرق القانون ومن هنا عدّ الشراح هذه العبارة إشارة لترك الأموال الحرام.

ثم قال في رابع نقطه واكمال ما سبق فقال: «فَفِيهَا اخْتَبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِفْتُمْ».

فهاتان العبارتان الموجزتان توضحان كل شى ويشير الالتفات إليهما إلى المسار السعيد لحياة الإنسان، نعم فالدنيا دار امتحان والآخرة دار الخلود، قال تعالى:

«أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» (١)، فالامتحان الإلهي كوسيله لتكامل الإنسان وتهذيبه أمر قطعى لا مفر منه وبعباره أخرى من أهداف خلق الإنسان الذى لا استثناء فيه ولا بد من التعرض لها فى الليل والنهار والسر والعلانية والكهولة والشباب.

ثم أشار إلى ثلاثه أمور مهمه أخرى وقال: «إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟».

المراد من الناس هنا المتعلقين بالدنيا الذين غالباً ما يسألون عن أموال و ثروات من يموت، والحال انقطعوا نهائياً عن تلك الأموال وعليهم أن يجيبوا عن طرق تحصيل هذه الأموال يوم القيامة والطريف أنه جعل مقابلهم الملائكة الذين يقتصر

ص: ٣٧

تركيزهم على الأمور والمسائل المعنوية.

ثم قال في الأخير: «لله آباؤكم! فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون قرضاً عليكم».

الجملة «لله آباؤكم!» تذكر عادة للتعجب المقرون بالاحترام (١) والمراد من الجملة «فقدموا بعضاً...» أن الإنسان مادام حياً ينفق من أمواله في سبيل الله على الفقراء أو الأمور الخيرية بمقتضى «وما عند الله باق» (٢) و «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» (٣) والتعبير بـ «بعض» حتى لا ينبغي للإنسان أن يحرم ورثته المحتاجين غالباً فذلك بعيد عن الانصاف، وقد ورد الهم في الروايات على من ينفق أمواله في حياته ولا يترك شيئاً للورثة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أحد الأنصار الذي أنفق جميع أمواله قبل موته ولم يبق شيئاً لأولاده: «لو أعلمتوني أمره ما تركتكم تدفونوه مع المسلمين يترك صبيته صغاراً يتكففون الناس» (٤). طبعاً هذا النهي في من له ورثة محتاجون.

من جانب آخر ورد الهم بشده لمن لا ينفق شيئاً من أمواله في سبيل الله ويبقيه جميعاً للورثة.

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية «كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم» (٥): «هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلاً. ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعه الله أو في معصية الله فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة وقد كان المال له وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عز وجل» (٦).

ص: ٣٨

١- (١). ظاهر هذه الجملة بصيغته مبتدأ وخبر، أى أن آباءكم لله ويلزم من ذلك رحمه الله عليهما.

٢- (٢). سورة النحل، الآية ٩٦.

٣- (٣). سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

٤- (٤) الكافي، ج ٥، ص ٦٧، ح ١.

٥- (٥). سورة البقرة، الآية ١٦٧.

٦- (٦) الكافي، ج ٤، ص ٤٢.

الجملة «فَرَضًا عَلَيَّكُمْ» إشاره إلى أَنَّهُ إِن خَلَّفَ كُلَّ أَمْوَالِهِ لِلوَرَثَةِ فَحَسَابُهَا عَلَيْهِ فِي الْقِيَامَةِ وَمَنَافِعُهَا لِلآخِرِينَ.

وهنا لطيفه أدبیه أَنَّ الإمامَ على عليه السلام استفاد في هاتين العبارتين من أربعة أشياء، «قَدِّمُوا» في مقابل «لا تَخْلِفُوا» و «بعض» إزاء «كُلِّ» و «قرض» مقابل «فرض» و «لكم» في مقابل «عليكم» وهي دلالة على فصاحه وبلاغه كلام الإمام عليه السلام.

تأمل: الإكثار من هذه العبارة

الأجدر بكلِّ إنسان أن يتلو كلَّ صباح هذه العبارة، فالغفلة والإنهماك طبيعه الدنيا؛ الغفلة التي غالباً ما تؤدي إلى المعصية التي تبعد العبد عن الله.

فالعبارة المذكورة وضحت موضع الدنيا وتضمنت وصايا بشأن الاستعداد والتأهب لذلك السفر المصيري.

طبعاً كلمات الإمام عليه السلام لا تعنى أن يكفَّ الإنسان عن السعى من أجل الحياه الماديه، فذلك مدعاه للفقير والعوز، فالفقير هو الأساس لأنواع المعاصي والتغرب عن الإسلام وهي التبعية التي تقضى على عزه الإسلام وتكسر شوكته؛ بل المراد تغيير النظرة إلى الدنيا؛ التمتع بجميع النعم ولكن شريطه الاستفادة من الأموال في سبيل قضاء الحوائج واستثمارها من أجل نيل السعاده في الدار الآخرة وتسكين أنين المحرومين، والابتعاد عن كنز الأموال والثروه وإنفاق قسمٍ من الأموال حال الحياه وادخارها للمعاد.

كَانَ كَثِيرًا مَا يُنَادِي بِهِ أَصْحَابَهُ (١)

نظرة إلى الخطبه

يستفاد من العنوان الذى اختاره السيد الرضى للخطبه أنّ الإمام عليه السلام خاطب صحبه كراراً وكثيراً ما كرر هذا الكلام، كما يفهم من روايه وردت فى «مصادر نهج البلاغه» أنّه عليه السلام نادى الناس ثلاثاً بعد صلاه العشاء لىسمع الجميع ويطرق سمعهم هذا الكلام، والخطبه فى الواقع موعظه لجميع الناس أنّ الحياه الدنيا قصيره ولابدّ من الاستعداد للمنازل المرعبه بعدها كالقبر والبرزخ والقيامه، تحذير بقطع التعلق العميق بالدنيا وأنّ عمرها قصير ونهايتها وشيكه، تحذير بغيه التزود لذلك السفر الطويل والخطير.

ص: ٤١

١- (١) سند الخطبه: ذكر هذه الخطبه عدد من الضالعين فى العلوم الإسلاميه ممن عاش قبل السيد الرضى وبعده، ومنهم المرحوم الصدوق فى كتابه «الأمالى»، المجلس الخامس والسبعين (أمالى الصدوق، ص ٥٨٨، ح ٨١٠). كما رواها الشيخ المفيد فى «المجالس» مرفوعه للإمام الباقر عليه السلام (أمالى المفيد، ص ١٩٩، ح ٣٢) وبيعض الإضافات فى كتاب «الإرشاد» (الإرشاد، ج ١، ص ٢٣٤)، ورواها المرحوم الطبرسى فى «المشكاه» (مشكاه الأنوار، ص ٥٢٤) وبالنظر لبعض الاختلافات مع ما نقله الرضى يتضح أنّها اقتبست من طرق أخرى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٩٩).

تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقْلُوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بَحَضَرَتْكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَهُ كَوْوُدًا، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لَا يَدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَتِيهِ نَحْوَكُمْ دَائِيهِ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْطَعَاتُ الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ الْمَحْدُورِ. فَقَطَّعُوا عِلَاقَتِ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهَرُوا بِرِزَادِ التَّقْوَى.

الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلاب الدنيا

تشبه هذه الخطبة السابقة وتطور في فلكها، فهي تحذير لأهل الدنيا بأن لا ينسوا مكانهم منها وأن يلتفتوا لما ينتظرهم من أيام ويستعدوا لها، فيقول:

«تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقْلُوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام المجتمع البشرى بقافلة ينتظرها مقصد عظيم، وبصفته زعيم القافلة ينادى الجميع بالتأهب للحركة.

و «الرحيل» بمعنى السفر وقد ورد لها معنيان لدى الشراح، الحركة نحو الآخرة والسير والسلوك إلى الله، ولا مانع من مناداه الناس بالتأهب والحركة باتجاه القيامة ودعوه الخواص إلى السير والسلوك إلى الله.

ورد في بعض الروايات الاستعداد للموت بدل التجهز لسفر الآخرة، فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا الاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ؟» قال عليه السلام: «أداء الفرائض واجتناب

المحارم والاشتمال على المكارم ثم لايبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه»(١).

وقد وردت عدّه احتمالات بشأن المنادى، فقيل: ملك من الملائكة كما ورد في إحدى الكلمات القصار لنهج البلاغه(٢) كما نظمه البعض بصيغه شعريه:

لَهُ مَلَكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ

أو أنّ المنادى هو الحوادث والبلايا كالعواصف التي تجتاح حياه الناس كلّ يوم، أو إشاره إلى آثار الشيخوخه التي تبلور في ذبول الجسد ومشيب الشعر وانحناء القامه والتي تنادى بالرحيل بلسان الحال، وإن اعتبرنا الرحيل بمعنى السير والسلوك إلى الله وتهذيب النفس، فالمنادى هو الله في القرآن، وأئمه العصمه في الروايات، الذين يهتفون بنداء الموت ومغادره الدنيا.

ومفهوم العرجه على ضوء معنى الإقامه، هو الحدّ من التعلق بالإقامه في الدنيا وعدم عدّها خالده، كحال المتهافتين عليها.

ثم يبين أسلوب الاستعداد لسفر الآخره فقال: «وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحٍ مَا بَحَضَرَتْكُمْ (٣) مِنَ الزَّادِ».

«انقلبوا» عباره، لطيفه تشير إلى التحول الباطنى، أى حولوا انتباهكم عن الانغماس فى الدنيا إلى إعداد الزاد والمتاع الأخرى.

«بحضرتكم» إشاره لما يتمتع به الإنسان من قدرات وفرص.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى الدليل على لزوم تحصيل الزاد والمتاع فقال: «فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَهُ كَوْوداً (٤) ، وَمَمَازِلَ مَخُوفَهُ مَهُولَةً (٥) ، لَأَبَدَ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

ص: ٤٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٢، ح ٧.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٣٢.

٣- (٣) . «حضرت» بمعنى «الحضور» وهى هنا إشاره إلى الفرص التى تنتظر الإنسان. واستعمال هذه المفرده بشأن العظام كونه لا يريد خطابهم، بل يلتفت إلى حضورهم.

٤- (٤) «كؤود» من ماده «كأد» بمعنى الشده والصعوبه وعقبه «كؤود» صعبه العبور.

٥- (٥) «مهوله» من ماده «هول» بمعنى الخوف و «مهول» اسم مفعول؛ يعنى مخيف.

وقد ورد في الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ فِي الْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفًا كُلُّ مَوْقِفٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (١).

وروى ما يشبه هذا المعنى بصورة أسهب عن الإمام عليه السلام (٢) ويحتمل أن هناك أحد الأعمال الواجبه في كل موقف من المواقف كالصلاه والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو السؤال عن الكبائر والتي يتطلب من أصحابها إجابته في ظل الظروف الصعبة والمخيفه فإنَّ عبورها بسلام كانوا موضع رحمة الله والجنته وإلا عرضوا للبلاء.

وبعبارة أخرى كما قال المرحوم الشيخ المفيد: إنَّ المراد من هذه العقبات، الأعمال الواجبه التي تشبه كل منها بالعقبه، وكما يصعب عبور هذه العقبات تصعب الاجابه عن هذه الأعمال.

قال تعالى في سوره البلد: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْئَلَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ» (٣).

طبعاً لا فرق بهذا الشأن بين الدنيا والآخرة في ما المراد من هذه العقبات؟ سيما ورد بشأن القيامة: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» (٤).

وعليه لا يبدو وارداً اعتراض المرحوم العلامة المجلسي على الشيخ المفيد في ضروره عدم حمل الألفاظ على معانيها المجازيه دون الأصلية (٥)، فهذا الإشكال

ص: ٤٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٦، ح ٣.

٢- (٢) . المصدر السابق، ص ١١١، ح ٤٢.

٣- (٣) سوره البلد، الآيات ١١-١٦.

٤- (٤) سوره طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.

٥- (٥) . للوقوف على كلام المرحوم الشيخ المفيد والعلامة المجلسي راجع كتاب بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٩.

يرد حين لا- تكون هناك قرائن ويكفى فى هول القيامة قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (١).

ثم تعمق الإمام عليه السلام فى شرح هذا الأمر فوعظ الجميع قائلاً: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ (٢) الْمَتِيَّةِ (٣) نَحْوَكُم دَانِيَةً (٤) ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا (٥) وَقَدْ نَشِبَتْ (٦) فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ (٧) فِيهَا مُفْطَعَاتُ (٨) الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ (٩) الْمَحْدُورِ».

ويشير هذا الكلام إلى عدم وجود مسافة بين الإنسان والموت مهما كان عمره، ففى كل آن يمكن وقوع حادثه مفاجئه ويصيبه مرض فى كل حين أو يباغته عدو فى الهجوم، ولعل حياه الإنسان تزول إذا غص بلقمه، أو يلاقى حتفه إذا انسدت شرايين قلبه أو اصيب بسكته دماغيه أو أن يقطع نخاعه أثر ضربه مفاجئه فيعيش طريح الفراش طيله حياته.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبه باستنتاج بين وبلغ فقال: «فَقَطُّعُوا عِلَاقَتِ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا (١٠) بِزَادِ التَّقْوَى».

والمراد من علائق الدنيا هو التعلق المفرط بالمال والجاه والزوج والولد، بالشكل الذى يغفل الإنسان عن الله ويسهل عليه مقارفة المعصيه لنيل الدنيا ويزين له مفاتها

ص: ٤٦

١- (١) سورة الحج، الآيتان ١ و ٢.

٢- (٢) . «ملاحظ» جمع «ملحظ» مصدر ميمي، بمعنى النظر أو النظر بطرف العين.

٣- (٣) «متيه» من ماده «منى» على وزن «سعى» بمعنى التقدير وتطلق هذه المفردة على الموت كونه مقدرأ على مصير الإنسان.

٤- (٤) «دانيه» بمعنى قريبه من ماده «دتو» على وزن «علو».

٥- (٥) «مخالب» جمع «مخلب» أظافر الحيوانات أو الطيور.

٦- (٦) «نشبت» من ماده «نشب» على وزن «غصب» بمعنى الانغماس.

٧- (٧) «دهمت» من ماده «دهم» بمعنى باغتت.

٨- (٨) «مفطعات» جمع «مفطعه» بمعنى الحادته الشديده أكثر من اللازم.

٩- (٩) «معضلات» جمع «معضله»؛ يعنى الشىء الذى يجعل الإنسان فى غايه الضيق كما يقال المعضله للطريق الضيق.

١٠- (١٠) «استظهِرُوا» من «الاستظهار» بمعنى الاستعانه بالشخص أو الشىء، ومادته الأصلية «ظهر».

وعباره الاستظهار بزاد التقوى إشاره إلى أن آخره الإنسان تتطلب في هذا السفر الخطير والمخيف نقاط ارتكاز تسهل عليه اجتياز الطريق وليس هنالك من مرتكز أفضل من زاد الورع والتقوى.

وحين بلغ المرحوم السيد الرضى هذا الموضوع قال: «وَقَدْ مَضَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ».

والظاهر أن مراده، الخطبه ٨٥ التي تشترك ببعض العبارات مع الكلام المذكور.

ص: ٤٧

كَلَّمَ بِهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ بَعْدَ بَيْعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ وَقَدْ عَتَبَا عَلَيْهِ مِنْ تَزَكٍ مَشُورَتِهِمَا، وَالْاِشْتِعَانِهِ فِي الْأُمُورِ بِهِمَا (١)

نظرة إلى الخطبه

كما ورد في عنوان الخطبه فإنّ هذا الكلام ردّ على بعض إشكالات طلحه والزبير اللذين كانا يتوقعان أن يجعل لهما الإمام عليه السلام نصيب كبير من الحكومه واستشارتهما في جميع الأمور، فذكر لهما الإمام عليه السلام بعض الأمور التي تبين بوضوح مسيره حكومته وتضع حدّاً لتوقعاتهما الخاطئه:

الأول: إنّ هؤلاء يعتبرون من هذا الباب، لم كلّ هذا الغضب على شيء يبدو بسيطاً وقد نسيت العديد من المحاسن.

ثم بين في جانب آخر أن ليست هنالك من مشكله مستجده بشأن الحكومه

ص: ٤٩

١- (١) سند الخطبه: المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الخطبه قبل السيّد الرضى كما ورد في «مصادر نهج البلاغه»، كتاب «نقض العثمانيه» لأبى جعفر الاسكافى (م ٢٤٠) ويفهم من كلامه أنه لم يشاهد بنفسه هذا الكتاب؛ بل استفاده من كلام ابن أبى الحديد فى «شرح نهج البلاغه»، ج ٧، ص ٣٦-٤١. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٢) كما رواها المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢١ عن «شرح نهج البلاغه» لابن أبى الحديد.

ليستشيرهما بخصوصها؛ بل سيقود الدوله على هدى الكتاب والسنة، وبالطبع لو استجد أمر يدعو إلى المشوره فإنه لن يمتنع عنها قط.

وأجاب في القسم الثالث عن الإشكال الذي يرد عليه على التسويه في العطاء من بيت المال والذي يستند أيضاً إلى السنة النبويه.

وخاض في ختام الخطبه في دعاء عظيم المعنى سائلاً الله الرحمه لكل من رأى حقاً وأعان عليه ووقف بوجه الباطل.

ص: ٥٠

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا. أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ عَلَيَكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهْلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضْتُ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَمَا تَبِعْتُهُ، وَمَا اسْتَتَنَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَسْتَجِبْ فِي ذَلِكَ إِلَيَّ رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيَ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ؛ فَأَسْتَشِيرُكُمْ وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا.

الشرح والتفسير: حجج طلحه والزبير

لما تفاقمت الأوضاع ومشاكل المسلمين على عهد عثمان وقام الناس عليه ناقلين على اغداقه المناصب على بطانته وقرابته وتوزيع أموال بيت مال المسلمين عليهم وتجاهله للمحرومين والمحتاجين، هب عدد من الصحابة لنصرتهم وكان قى مقدمتهم طلحه والزبير، وهما اللذان أصرا على الإمام بقبول الحكومه، فكانا من السابقين لبيعه الإمام عليه السلام؛ إلا أنهما على غرار أولئك الذين يفكرون بطريقه سياسيه وليست ربائيه ورحمائيه، فهم يتوقعون على الدوام نيل المناصب الحكوميه؛ ويوردون ذلك صراحه تاره وأخرى عن طريق بعض الذرائع لبيبنوا هدفهم من

وهذا ما كان يتوقعه طلحه والزبير من الإمام عليه السلام؛ فكان طلحه يطمح في حكمه البصره، والزبير في حكمه الكوفه، وقال البعض: إن طلحه كان يريد حكمه اليمن، والزبير حكمه العراق، ولما كانت مثل هذه الرشاوى السياسيه تقود عادة إلى تجزئه الدوله بغض النظر عن مخالفتها لروح العداله، ناهيك عن كون ذلك هو السبب الذى أدى إلى قيام المسلمين على عثمان فإن الإمام لم يستجب لتلك الطموحات.

وحين يئس طلحه والزبير من تحقيق غرضهما أخذوا بالنقد والإشكال على الإمام أولاً، ثم أشعلا نار الجمل؛ النار التى احترقا فى أتونها فقال عليه السلام: «لَقَدْ نَقَمْتُمَا (١) يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا (٢) كَثِيرًا».

والمراد من اليسير ترك مشورتهم، والمراد من الكثير مصالح المسلمين، فطلحه والزبير استعانا بذرائع واهيه بغيه تحقيق أهدافهما وأدارا ظهريهما لمصالح المسلمين التى تفرزها وحده الصف والوقوف خلف الإمام عليه السلام، وهذا هو أسلوب الباحثين عن العيوب ضيقى الأفق الذين يضحون بمصالح الأمه من أجل تحقيق أطماعهم.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قِسْمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ (٣) عَلَيْنَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيْنِي أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهَلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!».

الواقع أن الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يغلق جميع أبواب النقد والإشكال التى يمكن أن يلجها طلحه والزبير، فالانتقاد إما يرتبط بحقهما الشخصى أو بسائر المسلمين، ومطالباتهما الشخصيه إما تتعلق بضياح حقهما أو التصرف فيه، وما يتعلق بسائر

١- (١). «نقمتما» من ماده «نقم» على وزن «قلم» تعنى فى الأصل الإنكار على الشخص أو الشىء؛ سواء باللسان أو بالعمل عن طريق العقاب ومنه الانتقام ووردت هنا بمعنى الإنكار اللفظى.

٢- (٢) «أرجأتما» من «الإرجاء» بمعنى التأخير ومادتها الأصلية «رجاء» بمعنى الأمل وقد استعملت بهذا المعنى كون الإنسان يؤخر العمل فى أغلب المواقع بغيه تحقيق الهدف.

٣- (٣). «استأثرت» من «الاستئثار» يعنى خص النفس بالشىء الحسن. وفسرت أحيانا بالاستبداد والاحتكار ومادتها الأصلية «أثر» بمعنى العلامه.

المسلمين إما يكون تقصير في إحقاق الحقوق أو الجهل بحق أو الخطأ في التنفيذ.

والإمام عليه السلام يقول لهما: إن كان لديكما إشكال على أي من هذه الأمور قولاً لي صراحه، وحيث لم يستطيعا الإشارة إلى قضيه عجزاً عن الإتيان بإجابه، وهذا ديدن جميع المخطئين الانتهازيين الذين يرسلون الكلام على عواهنه ويشيرون الضجيج دون الإشارة إلى نقطه معينه.

ثم قدم الإمام عليه السلام جواباً واضحاً لإشكاليهما بخصوص ترك المشوره فقال: «وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ» (١)، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ؛ فَاسْتَشِيرْ كَمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمْ، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ».

أشار الإمام عليه السلام في الواقع بهذه العبارة إلى أمرين؛ الأول: إنه لم يتخذ عضداً في قبول الخلافه الظاهريه وقد تمت الحجّه عليه بقبولها بفعل إصرار المسلمين ولاسيما بعضهم كطلحه والزبير، وعليه فليس هنالك من توقع من الإمام سوى رعايه حقوق الناس.

طبعاً أصحاب الدنيا الذين يشدون المناصب يدعون هذا وذاك لدعمهم ويعدونهم ببعض المناصب قبل بلوغها إن وصلوا لسده الحكم، لكن لا معنى لمثل هذا التوقع بالنسبه لأولياء الله الذين لا يرغبون في هذه المناصب سوى استجابته لرغبه الناس.

الثاني: إن مسألة المشوره صحيحه؛ ولكن «لكل مقام مقال ولكل حادثه حديث» حقاً ليس هنالك من مجال للمشوره في الأمور الإسلاميه القطعيه وأوامر الله والنبي صلى الله عليه وآله، بينما تبدو المشوره مفتوحه في الأمور التنفيذيه التي تتنوع أساليبها.

ص: ٥٣

١- (١). «إربه» من ماده «أرب» على وزن «عرب» تعنى في الأصل شدّه الحاجه التي يجهد الإنسان من أجل قضائها.

فالإمام عليه السلام يقول: لا تتوقعوا أن أستشير كما في القضايا المهمّة كالعدل وإعاده الأموال المغصوبه على عهد عثمان إلى بيت المال والتسويه في العطاء، وسوف لن اتردد في هذه المشوره إن كان إليها من سبيل.

ص: ٥٤

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَىٰ مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَسْتَجِبْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِنْ قَسِيمِهِ، وَأَمَضَىٰ فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللَّهُ، عِنْدِي وَلَا لِعَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُنْبِي. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

الشرح والتفسير: حكم الله

ركّز الإمام عليه السلام هنا على أحد الإشكالات الرئيسيّة لطلحه والزبير وأمثالهما على الإمام في التسويه في العطاء من بيت المال فقال: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَىٰ مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ».

المفردة «أسوه» وإن استعملت غالباً بمعنى الإقتداء والاتباع ولم تذكر لها المصادر اللغوية معنى آخر غير هذا المعنى (1)؛ إلا أنّ بعض اللغويين صرحوا بأنّ

ص: ٥٥

١- (١). راجع كتاب «العين» و«لسان العرب» و«مجمع البحرين» مادة «أسوه». قال المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» في ذيل الآية ٢١ من سورة الأحزاب: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»: «أى قدوة صالحه يقال: لى فى فلان أسوه. أى لى به إقتداء... اسم وضع موضع المصدر» وطبق هذا البيان «أسوه» بمعنى الإقتداء وله وضع الاسم المصدرى، ويشهد على ذلك تعبير القرآن: «فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ» ولم يقل: «رسول الله أسوه»، وكأن الإقتداء بشخص يوجد نوعاً من المساواه به فقد وردت أسوه بمعنى المساواه وهذا المراد بها فى هذه العبارة. ومن هنا قال الإمام إنّما اقتديت برسول الله صلى الله عليه وآله وعملت بسيرته.

أحد معانيها، المساواه، ومن هنا يقال لمن افلس: «المال أسوه بين الغرماء».

فإن اعتبرنا معنى «أسوه» حسب المتعارف (الإقتداء) فسيكون مفهوم العبارة أنّ طلحه والزيبر وأمثالهما اعترضوا على الإمام عليه السلام: لم تقصد بسيره عمر وعثمان؟ فأولئك كانوا يراعون شأن الشخص واسمه وعنوانه في العطاء ولم يسوّوا في العطاء بين المسلمين قط.

ثم قال: «فَلَمَّ أَحْتَجِجْ إِلَيْكُمْ يَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسِيمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ يَا، وَاللَّهِ، عِنْدِي وَلَا لِعَيْرِكُمْ يَا فِي هَذَا عُتْبَى (١)».

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعاء له ولهم موصياً إليهم بالثبات على الحق والصبر عليه فتضرع قائلاً: «أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَاللَّهِمَّ يَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ».

من الواضح أنّ الحق مرير في أغلب المواقع ويصعب تحمله، وهذا ما يجعل الإنسان أحياناً لا يرى الحق ولو رآه لا يحتمله، لذلك يطلب الإمام عليه السلام من الله شيئين؛ الأول أن يريه والآخرين الحق كما هو، ومن ثم يتلطف عليه بتحمل مرارته.

ورد في إحدى قصار كلمات «نهج البلاغه» أنه عليه السلام قال: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِئْسَ (٢)» ثم قال عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ».

ص: ٥٦

١- (١) «عتبى» من ماده «عتب» على وزن «خطب» تعنى فى الأصل الانزعاج الباطنى وإذا وردت فى باب الأفعال عنت إزاله هذا الانزعاج وبما أنّ عتاب الطرف المقابل أحد أسباب إطفاء غضبه، فإنّ العتبى ترد بمعنى العتاب وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة. والإمام عليه السلام يقول لطلحه والزيبر ليس لكما حق عتابى والإنكار على.

٢- (٢) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧٦.

١. عله التسويه فى العطاء

لو ولى أمير المؤمنين على عليه السلام الخلافة الظاهرية عقب رسول الله صلى الله عليه وآله لما كانت هنالك من مشكله، لأنه كان سيواصل سيره رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إلا أن الطامه الكبرى أن الإمام تولّاها حين اعتاد المسلمون أنواع التمييز على عهد الخليفة الثانى وأعظم منها على عهد عثمان وكان من الصعب عليهم للغاية تغيير ما اعتادوا عليه وكانت جلّ جهود الإمام تتركز على القضاء على تلك السياسات العنصريه، والسبب الرئيسى للحروب كالجمل وصفين إنما يقف وراءها أنصار التمييز العنصرى.

لا شك أن طلحه والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام وكان لهما دور مهم فى نصره الدين، كما كانت لهما مواقفهما المعروفه فى الدفاع عن النبى فى أغلب الغزوات الإسلاميه؛ إلا أن الانحراف عن المنهج النبوى الذى شهدته عهد الخليفة الثانى والثالث وما رصدا من امتيازات خاصه لهذين وأمثالهما من بيت المال جعلهما يعتادان الابتزاز، ومن هنا تعالت أصواتهما منذ البدايه حين وقف الإمام عليه السلام بحزم بوجه تلك الامتيازات، وعلى غرار الدهشه التى أصابت الناس فى العصر الجاهلى حين تبدلت الهتهم المتعدده إلى الإله الواحد القهار فقد اصيب هؤلاء بالذهول لتغير ذلك المنهج فاعترضا على الإمام، لم لم يستشرهما، ولم يتوقعا هذه المشوره فى تقسيم أموال بيت المال، بل توقعها فى توزيع المناصب والمقامات الحساسه، وبالتالى كانا يطمعان بحصّه ولم يصدّقا أن الإمام بهذا الحزم سيعيد الأمه إلى منهج النبى الأكرم صلى الله عليه وآله .

ولما طاشت احلامهما استعرت نيران الحقد فى قلوبهما واستحوذت عليهما الأفكار الشيطانيه فأججا نيران الحروب التى احترقا بلهيبها.

جدير بالذكر أن أموال بيت المال على نوعين؛ قسم منه كالزكاه الذى له عدّه مصارف ويمكن ترجيح البعض على البعض الآخر (بما يناسب جهودهم)؛ مثلا

«الْمَوْلَفَهُ قُلُوبُهُمْ» و «الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا» أو القضاء وأمثالهم كان كل يتسلم سهماً من الزكاه بما يتناسب وموقعه وجهده، كما كان النبي صلى الله عليه وآله يميز بين المشاه والفرسان في الغنائم؛ إلا أن قسماً مهماً من الدخل كالخراج الذى يؤخذ من الأراضى الخراجية (١) والتي تشكل مبالغ طائلة فلا بد من توزيعها بالسويه على المسلمين.

بالضبط كالشى الموقوف على الأولاد والذين ينبغى أن يأخذوا منه بالتساوى كيفما كانوا وكالدعم الذى يدفع فى عصرنا من بيت المال الذى يتساوى فيه رئيس الجمهوريه والإنسان العادى، وأدنى امتياز لشخص دون شخص مرفوض.

وقد شهد عصر الخليفه الأول، المنهج النبوى ومساواه الجميع؛ إلا أن التمييز بدأ منذ عهد عمر بشهاده التواريخ المعتمبره وبلغ ذروته على عهد عثمان واستمر ذلك ٢٢ سنة حتى أصبح هذا الفعل الشنيع بالتدرج شنه.

ولتترك الكلام هنا لابن أبى الحديد الذى بين خفايا مهمه بالاستناد إلى التواريخ والروايات فكشف النقاب عن أغلب أسرار عصر الخلفاء وحكومته أمير المؤمنين على عليه السلام، فقد أورد شرحاً مسهباً هذه خلاصته:

«ثم بويع - الإمام على عليه السلام - وصعد المنبر فى اليوم الثانى من يوم البيعه، وهو يوم السبت، لإحدى عشره ليله بقيت من ذى الحجه، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمد صلى عليه، ثم ذكر نعمه الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال:

أما بعد، فإنه قبض رسول الله صلى الله عليه... ثم إنتفت عليه السلام يميناً وشمالاً، فقال: ألا يقولن رجال منكم غداً قد غرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهه، واتخذوا الوصائف الروقه، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون، فيقيمون ذلك،

ص: ٥٨

١- (١). «الأراضى الخراجيه» الأراضى التى تقع بيد المسلمين فى الفتوحات الإسلاميه وتوضع تحت تصرف المزارعين ويؤخذ منهم بالمقابل ضرائب تدعى «الخراج» والذى يبدو كثيراً بالنظر لسعه تلك الأراضى.

ويستنكرون يقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على مئة سواه لصحبته، فإنَّ الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فإنَّ عندنا مالاً نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربى ولا عجمى، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلّا حضر، إذا كان مسلماً حرّاً، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، ثم نزل.

فلما كان من الغد، غدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: إبدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثه دنانير، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامى بالأمس، وقد أعتقته اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كل واحد منهما ثلاثه دنانير، ولم يفضّل أحد على أحد، وتخلّف عن هذا القسم يومئذٍ طلحه والزبير، وعبدالله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبدالله بن الزبير يقول لأبيه وطلحه ومروان وسعيد: ما خفى علينا أمس كلام عليّ، ما يريد؟ فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت: إياك أعنى وأسمعى يا جاره، فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبدالله بن الزبير: إنَّ الله يقول فى كتابه: «ولكنَّ أكثرهم للحقَّ كارهون» (١).

ثم إنَّ عبيد الله بن أبي رافع أخبر عليّاً عليه السلام بذلك، فقال: «والله إن بقيت وسلمت

ص: ٥٩

لَهُمْ لِأَقِيمَنَّهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَالطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْعَاصِ! لَقَدْ عَرَفَ مِنْ كَلَامِي وَنَظْرِي إِلَيْهِ أَمْسَ أَنْيَ أُرِيدُهُ وَأَصْحَابَهُ مِمَّنْ هَلَكَ فِيمَنْ هَلَكَ.

فَقَالَ، فَبَيْنَا النَّاسَ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ الصُّبْحِ إِذْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ وَطَلَحَهُ، فَجَلَسَا نَاحِيَهُ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ طَلَعَ مِرْوَانَ وَسَعِيدَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، فَجَلَسُوا إِلَيْهِمَا، ثُمَّ جَاءَ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَاَنْضَمُوا إِلَيْهِمْ، فَتَحَدَّثُوا نَجِيًّا سَاعَةً! ثُمَّ قَامَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ، فَجَاءَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، إِنَّكَ قَدْ وَتَرْتَنَا جَمِيعًا، أَمَا أَنَا فَقَتَلْتَ أَبِي يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، وَخَذَلْتَ أَخِي يَوْمَ الدَّارِ بِالْأَمْسِ، وَأَمَا سَعِيدٌ فَقَتَلْتَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْحَرْبِ - وَكَانَ ثَوْرَ قُرَيْشٍ - وَأَمَا مِرْوَانٌ فَسَخَفْتَ أَبَاهُ عِنْدَ عُثْمَانَ إِذْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَنَحْنُ إِخْوَتُكَ وَنَظَرَاؤُكَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَنَحْنُ نَبَايِعُكَ الْيَوْمَ عَلَيَّ أَنْ تَضَعَ عَنَّا مَا أَصْبَنَاهُ مِنَ الْمَالِ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ، وَأَنْ تَقْتُلَ قَتْلَتَهُ، وَإِنَّا إِنْ خَفْنَاكَ تَرَكَنَاكَ، فَالْتَحَقْنَا بِالشَّامِ.

فَقَالَ: أَمَا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ وَتَرِي إِيَّاكُمْ فَالْحَقُّ وَتَرَكْتُمْ، وَأَمَا وَضَعِي عَنْكُمْ مَا أَصَبْتُمْ فَلَيْسَ لِي أَنْ أَضَعَ حَقَّ اللَّهِ عَنْكُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ، أَمَا قَتَلِي قَتْلَهُ عُثْمَانَ فَلَوْ لَزَمَنِي قَتَلْتَهُمْ الْيَوْمَ لَقَتَلْتُهُمْ أَمْسَ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ إِنْ خِفْتُمُونِي أَنْ أَوْثَمْتُمْ وَإِنْ خِفْتُمْكُمْ أَنْ أُسَيِّرَكُمْ.

فَقَامَ الْوَلِيدُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَحَدَّثَهُمْ، فَافْتَرَقُوا عَلَيَّ إِظْهَارَ الْعَدَاوَةِ وَإِشَاعَةَ الْخِلَافِ، فَلَمَّا ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ لِأَصْحَابِهِ، قَوْمُوا بِنَا إِلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا عَنْهُمْ وَرَأَيْنَا مِنْهُمْ مَا نَكْرَهُ مِنَ الْخِلَافِ وَالطَّعْنِ عَلَيَّ إِمَامِهِمْ، وَقَدْ دَخَلَ أَهْلُ الْجَفَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الزُّبَيْرِ وَالْأَعْسَرِ الْعَاقِ - يَعْنِي طَلْحَةَ.

فَقَامَ أَبُو الْهَيْثَمِ وَعَمِيَارُ وَأَيُّوبُ وَسَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، فَدَخَلُوا عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، انْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَعَاتِبْ قَوْمَكَ، هَذَا الْحَيُّ مِنْ قُرَيْشٍ، فَإِنَّهُمْ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَكَ، وَأَخْلَفُوا وَعْدَكَ، وَقَدْ دَعَوْنَا فِي السَّرِّ إِلَى رَفْضِكَ، وَهَذَاكَ اللَّهُ لِرَشْدِكَ! وَذَاكَ لِأَنَّهُمْ كَرَهُوا الْأَسْوَأَ، وَفَقَدُوا الْأَثَرَ، وَلَمَّا آسَيْتَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَعَاجِمِ

أنكروا واستشارك عدوك وعظّموا الطلب بدم عثمان فرقه للجماعه، وتألّفاً لأهل الضلاله، فرأيتك.

فخرج على عليه السلام فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بطاق، مؤتزرأ ببرد قطري، متقلداً سيفاً، متوكتاً على قوس، فقال:

أما بعد، فإننا نحمد الله ربنا وإلهنا وولينا، وولى النعم علينا، الذى أصبح نعمة علينا ظاهرة وباطنة، امتناناً منه بغير حول منا ولا قوه، ليلبونا أنشكر أو نكفر، فمن شكر زاده ومن كفر عذبه، فأفضل الناس عند الله منزله، وأقربهم من الله وسيله أطوعهم لأمره وأعملهم لطاعته، وأتبعهم لسنة رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعه الله وطاعه الرسول، هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق، منكر، قال الله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (١).

ثم صاح بأعلى صوته، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار، أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم، بيل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

ثم قال: أنا أبو الحسن - كان يقولها إذا غضب - ثم قال: ألا- إن هذه الدنيا التى أصبحتم تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذى خلقتم له، فلا تغرنكم فقد حذرتموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعه الله، والذل لحكمه، جل ثناؤه، فأما هذا الفى، فليس لأحد على أحد فيه أثره، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، عهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف

ص: ٦١

شَاءَ فَإِنَّ الْعَامِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالْحَاكِمَ بِحُكْمِ اللَّهِ لَا وَحْشَةَ عَلَيْهِ.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبدالرحمن بن حسل القرشى إلى طلحة والزبير، وهما فى ناحيه المسجد، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نَشِدْتُكُمَا اللَّهَ، هَلْ جُئْتُمَانِي طَائِعِينَ لِلْبَيْعَةِ، وَدَعَوْتُمَانِي إِلَيْهَا، وَأَنَا كَارِهِ لَهَا!

قالا: نعم.

فقال عليه السلام: غَيْرَ مُجْبَرِينَ وَلَا مَقْسُورِينَ، فَأَسْلَمْتُمَا لِي بِيَعْتِكُمَا وَأَعْطَيْتُمَانِي عَهْدَكُمَا!

قالا: نعم.

قال: فَمَا دَعَاكُمَا بَعْدَ إِلَى مَا أَرَى.

قالا: أَعْطَيْنَاكَ بِيَعْتَنَا عَلَى أَلَّا تَقْضَى الْأُمُورَ وَلَا تَقْطَعُهَا دُونَنَا، أَنْ تَسْتَشِيرَنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ وَلَا تَسْتَبِدَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا، وَلَنَا مِنَ الْفَضْلِ عَلَى غَيْرِنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَأَنْتَ تَقْسِمُ الْقِسْمَ وَتَقْطَعُ الْأَمْرَ، وَتَمْضَى الْحُكْمَ بغيرِ مَشَاوَرَتِنَا وَلَا عِلْمِنَا.

فقال: لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا! وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا! فَاسْتَغْفِرَا اللَّهَ يَغْفِرْ لَكُمَا، أَلَا تُخْبِرَانِي أَدْفَعْتَكُمَا عَنْ حَقِّ وَجَبَ لَكُمَا فَظَلَمْتُمَا إِيَّاهُ؟

قالا: معاذ الله!

قال: فَهَلْ اسْتَأْثَرْتُ مِنْ هَذَا الْمَالِ لِنَفْسِي بِشَيْءٍ؟

قالا: معاذ الله!

قال: أَفَوَقَّعَ حُكْمَ أَوْ حَقِّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَجَهَلْتَهُ أَوْ ضَعَفْتَهُ عَنْهُ؟

قالا: معاذ الله!

قال: فَمَا الَّذِي كَرِهْتُمَا مِنْ أَمْرِي حَتَّى رَأَيْتُمَا خِلَافِي؟

قالا: خِلَافَكَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي الْقِسْمِ، أَنْكَ جَعَلْتَ حَقَّنًا فِي الْقِسْمِ كَحَقِّ غَيْرِنَا، وَسَوَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَنْ لَا يِمَاتِلُنَا فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا بِأَسْيَافِنَا وَرِمَاحِنَا

وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، أخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً.

فقال: فأمرًا ما ذكرتمناه من الاستشارة لكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتوني إليها، وجعلتموني عليها، فحفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إلي نظرت في كتاب الله وسنه رسوله فأمضيت ما دلاني عليه وأتبعته، ولم أحتج إلى آرائكما فيه، ولا رأي غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاوره فيه لشاورتكما فيه، وأمرًا القسم والأسوه، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه باديء ببدء! قد وجدت أنا وأنتم رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما قولكما: جعلت فينا وما أفاءته سيوفنا ورمحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقد يما سبق الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورمحهم فلم يفض لهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه مؤف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر، ثم قال: رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

ثم قال ابن أبي الحديد:

فإن قلت: فإن أبا بكر قسم السواء، كما قسمه أمير المؤمنين عليه السلام ولم ينكروا ذلك، كما أنكروا أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إن أبا بكر قسم محتدياً لقسم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما ولي عمر الخلافة وفضل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأشربت قلوبهم حب المال... ولما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فزاد وثوق القوم بذلك، ومن ألف امرأ شق عليه فراقه، وتغيير العاده فيه،

فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر، وقد نسي ذلك ورفض، تخلّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقّ عليهم وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعه، ومفارقة الطاعة ولله أمر هو بالغه»^(١).

٢. مكانه المشوره

لا- شك في أنّ المشوره من الأصول الإسلاميه المسلّمه ولدى عقلاء العالم والتي تشرك إلى العقل سائر العقول كما ورد في الخبر «مَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهُمْ فِي عُقُولِهِمْ»^(٢) إلّا أنّ لها بعض الشروط والأركان إن لم تراخ فهي لا تفقد جدواها فحسب؛ بل تعطى أحياناً نتائج معكوسه، ومن ذلك أنّ المشوره لا بدّ أن تكون في الأمور التي تخضع للتردد والنفى والإثبات ولو أراد الناس التشاور في الأمور المسلّمه والأحكام فلربّما أدّى ذلك إلى الريبه في أصل الأحكام الشرعيّه والوظائف العقليه المسلّمه.

مثلاً- لو أراد شخص المشوره في الحج أو الحجاب أو عرضها على الرأي العام فلربّما انبرى من يقول: ما الضروره لأن يرصد الناس في هذا العصر هذه الأموال الطائله من أجل الذهاب إلى الحج أو إنّ الحجاب في المجتمع المعاصر قيد مضروب على المرأه!

ولكن إن سلّمنا أنّ الحج أو الحجاب أمر شرعي مقبول لدى جميع المسلمين بل ضروره دينيه، يمكننا الجلوس في شوري كيف يمكن أن يقام الحج وكيف يكون ارتداء الحجاب أفضل؟ ولا بدّ من الإذعان إلى أنّ بعض المشاكل التي أصابت المسلمين بسبب كونهم نسوا المكانه الحقيقيه للمشوره.

ص: ٦٤

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٧، ص ٣٨-٤٣.

٢- (٢) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٤١.

وما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه نموذج واضح لهذا المطلب، وما كان ينشده طلحه والزبير انحراف عن هذا الأمر؛ فقد أرادوا المشوره في سنّه النبي في التسويه بأموال الخراج فرفض الإمام عليه السلام ذلك.

٣. طلحه وحلم الخلفه

يستفاد من مختلف المصادر التاريخيه أن طلحه والزبير كانا يتطلعان إلى الخلفه منذ أمد بعيد يعود إلى عهد أبي بكر.

ذكر الطبري المؤرخ المعروف، طبق نقل ابن أبي الحديد في تاريخه أن طلحه كان يهيم بالخلفه حتى على عهد أبي بكر ويروم أن يجعلها فيه بشبهه أنه ابن عمه، وسخط خلفه عمر فقال لأبي بكر: وليت علينا فظاً غليظاً، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه ويحادثونه سرّاً في معنى الخلفه ويقولون له: لو مات عمر لباعناك بعتك، فبلغ ذلك عمر فخطب وهددهم بالقتل.

وذكر ابن أبي الحديد في موضع آخر: إن طلحه والزبير أشادا بعمر الذي ميّز المهاجرين والأنصار على سائر المسلمين (وأعطاهم سهماً أكثر من بيت المال).

وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين، الخروج في البلدان لأنه يرى أنهم إن خرجوا التفتّ حولهم الناس وحصلوا على الأموال وفيهم من يضمم الفرقة ويروم خلع الربقه، قال الطبري طبق نقل ابن أبي الحديد: فملته قريش ذلك حتى أنه لم يأذن لهم بالمعارك وقال لهم كفاكم ما أبلتكم في الغزوات مع رسول الله، فلما ولي عثمان أجازهم، فخرجوا إلى البلاد وجمعوا الأموال، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنه كانت على العامه.

وقال ابن أبي الحديد: وكان عمر نقض هذا الرأي السديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤه له من أمر الشورى، فإن ذلك كان سبب كل فتنه وقعت وتقع إلى أن تنقضى الدنيا(١).

ص: ٦٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١١-١٣.

ويتضح من هذه السابفة التاريخيّه لماذا انزعج طلحه والزبير من خلافه على عليه السلام فى حين بذلا قصارى جهدهما من أجل تأليب الناس على قتل عثمان، على أمل أن يأتى الدور لطلحه، ولما منعهما على عليه السلام المنصب والمقام (لأنه يعلم أنّ ذلك مقدمه لتقسيم البلد الإسلامى) بل قطع امتيازاتهما من بيت المال وساوى بين المسلمين حذو النهج النبوى، تمردا عليه وتواطئا مع عائشه ضدّ أمير المؤمنين عليه السلام، فى اشعال فتيل حرب الجمل، وبعد تلك الهزيمة ومقتلهما أثار أتباعهما معركة صفين لتسلم بنى أميه بالتالى مقاليد العالم الإسلامى، ثم خلفهم بنو مروان الذين أثاروا ذلك الفساد العظيم.

ومن هنا يتضح أنّ مشكله طلحه والزبير لم تكن المشوره بل حتى التسويه فى العطاء كانت قضيه فرعيه؛ كانت مشكلتهما الطمع فى الخلافه، وماسبق لم يكن سوى حجج وذرائع.

وَقَدْ سَمِعَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْتُبُونَ أَهْلَ الشَّامِ

أَيَّامَ حَزْبِهِمْ بِصَفَيْنَ (١)

نظره إلى الخطبه

ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغه» أنّ حجر بن عدى وعمرو بن الحمق وهما من أصحاب على عليه السلام المعروفين كانا يستبان أهل الشام (في أيام صفين) فدعاهما الإمام ونهاهما، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق؟ قال: بلى! قالوا: أليسوا على الباطل؟ قال: بلى! قالوا: فلم تنهاننا عن سبهم؟ قال: إنني أكره لكما أن تكونا سبّابين، وواصل كلامه فأراهم السبيل الفصل بالدعاء لهم إلى الهدى ووحده المسلمين واطفاء نار الحرب، ويشير هذا الكلام إلى أنّ الإمام عليه السلام في الوقت الذي كان فيه حازماً إزاء العدو كان ينهى عن العنف الطائش الذي يعكس ضعف الشخصيّه.

ص: ٦٧

١- (١) سند الخطبه: رواه عدد من المحدّثين والمؤرخين قبل السيّد الرضى وبعده؛ مثل أبوحنيفه الدينورى في كتاب «الاجبار الطوال» (ص ١٦٥) ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين» (ص ١٠٣) وسبط بن الجوزى في «تذكرة الخواص» (ص ١٤٢) وغيرهم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٣).

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سِبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُدْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ:

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جَهْلِهِ، وَيَزْعُورَى عَنِ الْغَىِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ.

الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!

ما ورد في هذا الكلام درس أخلاقي واجتماعي عظيم يختزن آثاراً كثيرة وهو النهي عن سب العدو ولعنه الذي من شأنه إثارة غضبه وتعميق الكراهية.

وكما ذكر فإن الإمام قال ذلك لما سمع بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام صفين فقال: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سِبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُدْرِ».

«سبّاب» تطلق على من يكثر السباب، وحقيقه «السب» تتضمن الإساءة للطرف المقابل؛ من قبيل مخاطبه المقابل بكلمه أحمر، رذل وأمثال ذلك.

واللعن أحد مصاديق «السب» و«القذف» من مراحل «السب» الشديده وعليه الحد في أغلب الموارد، قطعاً ليس مراد الإمام في هذا الكلام هذا النوع من السب، لأن القذف حرام ومن الكبائر وليس من المكروهات.

والإمام عليه السلام ينهى أصحابه في هذه الخطبه عن هذا الفعل وإن كان لهم الحق في

مخاطبه العدو بهذا الخطاب ويأمرهم بدلاً من ذلك بنقد أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذميمة وإتمام الحجّه عليهم ولتكون أبلغ في التأثير كما تسلب العدو ذريعه المعامله بالمثل، ولدينا الكثير بخصوص السبّ واللعن نتركه لمبحث التأمّلات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال بيان المصداق الواضح ليعلمهم كيفية التعامل مع العدو في مثل هذه الحالات فقال: «وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَيِّبِكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ (١) دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جَهْلِهِ، وَيَزْعُورِي (٢) عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ (٣) بِهِ».

فالإمام عليه السلام أورد بهذه العبارة العميقة ثلاثه أدعيه أو بعبارة أخرى كانت له ثلاث طلبات:

الأولى: إطفاء نار الحرب وحقن دماء الطرفين.

الثاني: إشاعه الصلح والسلام بالإضافة إلى وقف الحرب وأن يتحد المسلمون.

الثالث: يبعد عنهم الضلال الذي أصابهم وحال دون بلوغهم الحق؛ فيتعرّف الجهله على الحقّ ويكفّ أهل الحق عن مناهضته.

وتكشف هذه الأدعيه بجلاء عن مدى سعه صدر الإمام عليه السلام ورأفته ورحمته حتى بأعدائه، ورغم كلّ تلك الجنايات التي ارتكبوها بحقّ الإمام وأصحابه فلا ينطق بأدنى ما يكشف عن غضبه وانتقامه، وينهى حتى صحبه عن سبّ العدو والتعرض له.

ص: ٧٠

١- (١). «احقن» من «الحقن» على وزن «الحمد» تعنى فى الأصل حفظ الشيء وإذا استعملت بشأن الدماء عنت منع إراقه الدماء.
٢- (٢) «يرعوى» من «رعو» على وزن «رعد» بمعنى الامتناع والعودة عن الفعل. جدير ذكره أنّ المفردة «رعو» تستعمل أحياناً بصيغه الرباعى (رعوى على وزن دعوى) وتفيد نفس المعنى السابق وقال بعض أرباب اللغة المفردة: «ارعوى» من المفردات النادرة ولم يشاهد مثلها فى صيغ الأفعال المعتله. للمزيد راجع «لسان العرب» ماده «رعو».
٣- (٣) «لهج» من ماده «لهج» على وزن «هرج» بمعنى التعلق والولع بالشيء والحرص عليه.

صرح أغلب أرباب اللغة بأن «السب» هو الشتم، واعتبر البعض، اللعن من مصاديقه (١).

طبعاً لا ينبغي سب أي مؤمن أو لعنه، والأولى تركه حتى بالنسبة للكفار والمخالفين، ذلك لأنه ينطوي على أمرين سلبين: الأول: إن الطرف المقابل يعمد إلى المعامله بالمثل فيسئىء إلى المقدّسات، لذلك ورد في الآية ١٠٨ من سورة الأنعام: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

الآخر: أن هذا السب ربّما يثير المقابل فيصرّ على كفره وضلاله ويزداد كفرًا وضلالًا.

ولكن لهذه القاعده كما لغيرها من القواعد الكليه استثناءات، ومن هنا ورد بعض السب للمخالفين، في «نهج البلاغه» أو عبارات سائر المعصومين عليهم السلام كما لعن البعض في القرآن الكريم.

مضى في الخطبه ١٩ من نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام قال للأشعث بن قيس المنافق الذي كُلم الإمام بكلمات خارجه عن الأدب: «عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ حَائِكُ ابْنِ حَائِكِ مُنَافِقُ بَنِي كَافِرٍ».

كذلك حين أسر مروان في المعركه وجيء به إلى الإمام عليه السلام شفّع له الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام عند أبيهما فأطلقه الإمام عليه السلام، فقال الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام: يا أمير المؤمنين! يبايعك مروان؟ قال الإمام عليه السلام: ألم يبايعني بعد قتل عثمان لا حاجه لي ببيعته «إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةٍ» (٢).

ولكن سب المؤمن التقى يعدّ من الكبائر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ وَأَكْلُ لَحْمِهِ مَعْصِيَةٌ وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ» (٣).

ص: ٧١

١- (١) راجع «المصباح المنير» و «لسان العرب». وروى هذا المعنى المرحوم المحقق الخوئي في شرحه لنهج البلاغه.

٢- (٢) للوقوف على المزيد راجع الجزء الثالث من هذا الشرح.

٣- (٣) الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

وورد في حديث آخر أنّ رجلاً قال للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: أوصني! فكان ممّا أوصاه النبي أن قال: «لا تَسُبُّوا النَّاسَ فَتَكْسِبُوا الْعِدَاوَةَ بَيْنَهُمْ» (١).

جدير ذكره أنّ أصحاب معاوية وإن كانوا من المنافقين والظلمة والمفسدين فإنّ الإمام عليه السلام نهى أصحابه عن سبهم أيام صفين، فالسبّ في تلك الظروف العصيبيّه ربّما كان يوسع دائره الحرب.

أمّا بشأن اللعن فالذى يستفاد من آيات القرآن أنّ الله لعن البعض وأذن بلعنهم ولعن الشيطان فقال: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» (٢).

وقال في المرتدين: «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٣).

وقال في الظلمه: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (٤).

وفي الناكثين وقاطعى الرحم والمفسدين فى الأرض: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (٥).

وفي الذين يكتمون الحق: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (٦).

لا شك فى أنّ اللعن فى اللغة بمعنى الطرد والإبعاد الذى يتمّ أحياناً بصيغته عمليه وأخرى لفظيه أو دعاء؛ كأن يقال مثلاً: «لعنه الله عليك».

من المسلم به أنّه لا يمكن لعن أى مؤمن؛ أمّا الكفّار والمنافقون والذين يرتكبون الكبائر كالظلم والجور والفساد فى الأرض وأمثال ذلك إنّما يستحقون اللعن، وعليه فلا يختص اللعن بالكفّار والمنافقين.

ص: ٧٢

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

٢- (٢) سوره ص، الآيه ٧٨.

٣- (٣) سوره آل عمران، الآيه ٨٧.

٤- (٤) سوره هود، الآيه ١٨.

٥- (٥) سوره الرعد، الآيه ٢٥.

٦- (٦) سوره البقره، الآيه ١٥٩.

فِي بَعْضِ أَيَّامِ صِفِّينَ وَقَدْ رَأَى الْحَسَنَ ابْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَتَسَرَّعُ إِلَى الْحَرْبِ (١)

نظرة إلى الخطبه

يختص هذا الكلام القصير لأمير المؤمنين علي عليه السلام بحفظ الإمام الحسن والإمام الحسين من الأخطار ليدوم بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تحقق هذا المعنى فيتصل اليوم نسب الملايين بواسطة الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن هذه الجذور المباركة لتعمق في العالم كل يوم.

ص: ٧٣

١- (١) سند الخطبه: نقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٧ للهجرة عبارته عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تشبه عبارته بعض هذا الكلام؛ لكن ليس في يوم صفيين بل في موضع آخر ويتضح من ذلك أن الإمام عليه السلام بين هذه العبارات في عدّه مواضع. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٣).

أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي، فَإِنِّي أَنَفْسُ بِهِدَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَام) عَلَى الْمَوْتِ لِيَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسِيلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي صلى الله عليه وآله

أوصى الإمام عليه السلام صحبه بالإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يوم صفين بغيه الحفاظ على هدف مهم فقال: «أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي (١)، فَإِنِّي أَنَفْسُ بِهِدَيْنِ (٢) يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَام) عَلَى الْمَوْتِ لِيَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسِيلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

التعبير «أملكوا» من ماده «ملك» تأكيد للحيلولة عن مسارعه الإمام الحسن عليه السلام لميدان القتال، لأن الإنسان إن ملك شيئاً صار تماماً تحت تصرفه وهذا أعظم تأكيد يمكن استعماله بشأن صد الشخص عن أمر، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى رحمه الله فى ختام هذا الكلام: «هذا من أعلى الكلام وأفصحه».

العباره «لا يهدنى» تأكيد آخر لهذا المعنى، كأنه عليه السلام يريد القول: لو قتل الحسن والحسين سيفنى وجودى.

وكى لا يتصور أن هذه التأكيدات من جانب الإمام عليه السلام تستند لمجرد عاطفه

ص: ٧٥

-
- ١- (١). «لا يهدنى» من ماده «هد» على وزن «سد» تعنى فى الأصل الإنهدام والإنهيار المقرون بصوت شديد. ثم استعمل فى الأمور المعنويه فاطلق على الحزن الذى يعكر روح الإنسان من قبيل ما ورد فى العباره المذكوره.
 - ٢- (٢) «أنفس» من ماده «نفس» على وزن «قفس» بمعنى الشح وحفظ الشىء وعدم فقدان الأشياء النفيسه التى لا يريد الإنسان فقدانها بسهولة.

الأبوه فقد بين عليه السلام: إنني أنشد هدفاً عظيماً في أن يبقى نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في العالم عن طريقهما، وهذا بحد ذاته أحد أسباب ديمومه الإسلام.

قال السيد الشريف: وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ» مِنْ أَعْلَى الْكَلَامِ وَأَفْصَحِهِ.

مراد السيد الرضى رحمه الله أن العبارة «أَمْلِكُوا عَنِّي» تأكيد بليغ ولطيف لهذا المعنى أن سارعوا واجتهدوا واحفظوا هذا الفتى، لأن الإنسان يبذل قصارى جهده للمحافظة على أملاكه، وهذه أبلغ عبارته في الحفظ والاستعادة.

تأمل: شبهات وردود

١. لا شك في أن عمر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام آنذاك كان أكثر من ثلاثين سنة، حيث ولد في السنه الثالثه للهجره وحادثه صفيين كانت سنه ٣٧ الهجره، فلم التعبير عنه بالغلام؟

لابد من الالتفات إلى هذه النقطة في الجواب أن هذه المفردة وإن اطلقت على الحد الفاصل بين الطفل والشاب؛ لكنها تطلق كما صرح بعض أرباب اللغة (١) على الكبار أيضاً. أضف إلى ذلك فإن الآباء يستعملون هذه المفردة على الأبناء في مختلف أعمارهم، كما تطلق العرب هذه المفردة على الخدم في مختلف سني أعمارهم.

على كل حال فإن إطلاق كلمه الغلام من قبل الإمام عليه السلام على ولده الإمام الحسن عليه السلام مطلب ليس بمستبعد.

٢. كان للإمام الحسن وكذلك الإمام الحسين عليهما السلام حسبما ذكر آنفاً أكثر من

ص: ٧٦

١- (١). لسان العرب، ماده «غلم».

ثلاثين سنه (الفارق بينهم كان سنه أو أقل) وقطعاً كان لهما زوج وأولاد، فكيف يخشى الإمام انقطاع نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

نقول في الجواب: كان المراد لبقيا وليق أكثر عدد ممكن من نسل النبي، ذلك لأن نسل رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتعرض إلى مخاطر جديده من عدّه جوانب.

٣. كيف ذهب الإمام عليه السلام إلى بقاء نسل النبي من خلال هذين الإمامين وذريتهما في حين تنسب العرب نسلها إلى ولدها وليس عن طريق البنت؟ وكلنا نعلم أن الحسن والحسين كانا إبني بنت النبي!

للإجابة عن هذا السؤال لابد من القول إن هذا التفكير يعود إلى الجاهلية الذين لم يروا أي شأن للنساء ولا يعتبرون أبناء بناتهم أبناءهم فأنشدوا في ذلك:

بُنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنَاتُ بَنَاتِنَا أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

لذلك حين نزلت آية المباهلة: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ» (١) أجمع المفسرون على أن المفردة «أبناءنا» في هذه الآية الشريفه إشارة إلى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام و«نساءنا» فاطمه عليها السلام، وما أكثر الخطاب «يا ابن رسول الله» لأئمة أهل البيت عليهم السلام في الروايات.

وقد عدت الآية الشريفه ٨٥ من سورة الأنعام: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ...»

عيسى» المسيح من ذريته إبراهيم عليه السلام، في حين ينتسب إليه من جانب أمه (مريم).

ص: ٧٧

قاله لَمَّا اضْطَرَبَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فِي أَمْرِ الْحُكُومَةِ (١)

نظرة إلى الخطبة

جاء في كتاب «مصادر نهج البلاغه» في مناسبه هذا الكلام: لما رفع عمرو بن العاص ورهطه المصاحف على أسننه الرماح يوم صفين لخداع جيش على عليه السلام، وبدت أعلام النصر والفتح ولم يبق على تحقيق النصر الكامل سوى بضع خطوات، انقسم أصحاب الإمام عدّه فئات؛ فئه اعتقدت بأن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعه؛ بل يريدون حقاً الإحتكام إلى القرآن، وفئه عظيمه أخرى سئمت القتال ولا يرون في أنفسهم القدره على مواصلته، وكان هذا الموضوع ذريعه لاعتزال القتال والخلود إلى الدعه، وفئه ثالته كانت من المنافقين التي تكّن البغض والعداء للإمام عليه السلام وكانت تنتظر الفرصه، فلما رأّت المصاحف على الرماح حدّثوا أنفسهم بأن الفرصه قد سنحت للتخلي عن نصره على عليه السلام فارتفعت أصواتهم مطالبين بوقف القتال وفئه

ص: ٧٩

١- (١) سند الخطبه: كان ممن رواها قبل المرحوم السيّد الرضى، نصر بن مزاحم في كتاب «صفين» (وقعه صفين، ص ٤٨٤) وابن قتيبه الدينورى في «الامامه والسياسه» (ص ١٠٤) والمسعودى في «مروج الذهب» (ج ٢، ص ٤٠٠). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٧).

قليله هي التي أصرت على مواصلة القتال وكان في مقدمتهم مالك الأشتر الذي صرخ بهم، الويل لكم أتعزلون القتال وأوشكنا على النصر؟ أيها الجهال!... ولكن الفئه التي اعتزلت القتال شتمته وهددته وصرخت «المصاحف المصاحف والرُّجوع إليها لا نرى غير ذلك» وأجبرت الإمام عليه السلام على قبول التحكيم.

وهنا أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام فقال ما ملخصه: كنتم تتبعونني وكنت أميركم، أما الآن تريدون أن تكونوا أنتم الأمراء وأنا المأمور، إنكم تريدون الحياه مهما كلف الأمر فكيف يسعني صدكم عن ذلك؟!!

ص: ٨٠

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمَنْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحَبُّ، حَتَّى نَهَكْتُكُمْ الْحَزْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكَتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنَّهُكَ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصِيبُحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَصِيبُحْتُ الْيَوْمَ مُنْهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ.

الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهال

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أصرَّ عليه أغلب جيشه وخلافًا لرغبته لعدّه أسباب على إيقاف القتال والتسليم للتحكيم، حيث يجيب في الواقع عن هذا السؤال: لماذا استسلمتم لمؤامره عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح وقبلتم بالتحكيم، حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمَنْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحَبُّ، حَتَّى نَهَكْتُكُمْ (١) الْحَزْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكَتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنَّهُكَ».

هذا الكلام في الواقع إجابة للصامدين في القتال الذين يرون عاقبته النصر، إلّا أنّهم كانوا للأسف أقلية، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الكلمات إلى عذره في قبول مقترح وقف القتال والتحكيم إزاء تلك الأقلية من جانب، ومن جانب آخر إلى يقينه بضروره مواصلة القتال حتى النصر إزاء تلك الأكثرية التي أتعبها القتال وأنّ كثره

ص: ٨١

١- (١) «نهكتكم» من ماله «نهك» على وزن «سفك» تعنى فى الأصل التآكل والقدم وتستعمل فى الموارد التى يتعب فيها الإنسان ويرهق.

القتلى لا تبرر الاستسلام لمطالب العدو اللامشروع.

ثم أوضح ذلك بالقول: «لَقَدْ كُنْتُ أَمِيرًا، فَأُضِيبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأُضِيبَحْتُ الْيَوْمَ مِنْهَيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمْ الْبُقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلُكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!».

وهذا أيضاً جواب لفتتين: الأقلية المطالبة بمواصله القتال حتى النصر والمعترضه على قبول التحكيم وإيقاف القتال الذى أوشك على تحقيق النصر، فقال: ما عساني أفعل وقد سلبت المبادره وتعثرت الإمره وعصيتم وتمردتم، والأكثرية التى استجابت لطلب العدو فخطبها أنها لم تستجب لذلك الطلب حرمة للقرآن، بل بسبب حبّ البقاء والتنصل من التضحية فى سبيل الله (فتأمل).

تأمل: التضحية بالفرصه الكبرى

رقه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام إزاء معارضى مواصله القتال تفيد مدى مرونته، والتي ربّما تثير هذا السؤال: لماذا لم يدع الإمام مالك الأشتر ليواصل المعركه التى أشرفت على تحقيق النصر وإنقاذ المسلمين من شرّ بنى أميه وأتباعهم؟

والجواب عن هذا السؤال يكمن فى تاريخ صفيين.

فقد أشرنا فى الأبحاث السابقه إلى أنّ معارضى القتال لم يقتصر على أولئك الذين خدعوا بحيله عمرو بن العاص فى تعليق المصاحف على أسنّه الرماح، بل هناك الفئه الخاويه الإراده التى لم تكن مستعده لمواصله القتال، بالإضافة إلى المنافقين ومبغضى الإمام الذين رأوا الفرصه مؤاتيه للاصطياد فى الماء العكر، فاتحدوا جميعاً وأصروا على الإمام بإيقاف القتال.

قال ابن أبى الحديد: فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه فقال: كيف أرجع وقد لاحت إمارات الظفر! فقولوا له: «ليمهلنى ساعه واحده»، ولم

يكن علم صورته الحال كيف قد وقعت، فلما عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سرّاً وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهيه عن الكفّ، وإن لم تعد الساعة، قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرسل إلى الأشتر فقالوا له:

أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سلّ عليه خمسون ألف سيف! فقال: ما الخبر؟ قالوا: إن الجيش بأسره قد أحرق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نطع، وهو مطرق، والبارقه تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تعد الأشتر قتلناك! قال:

ويحكم! فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: واللّه لقد ظننت حين رأيتها رفعت أنّها ستوقع فرقه وفتنه.

ثم كثر راجعاً على عقبيه، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر، قد جعله أصحابه بين أمرين: إمّا أن يسلموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلّا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشره، فلما رآهم الأشتر سبهم وشتمهم، وقال: ويحكم! أبعدهم الظفر والنصر صبّ عليكم الخذلان والفرقه! يا ضعاف الأحلام! يا أشباه النساء! يا سفهاء العقول! فشتموه وسبّوه، وقهروه.

وقالوا: المصاحف المصاحف! والرجوع إليها، لا نرى غير ذلك! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحذور الأضعف، فلذلك قال: «كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا...»^(١).

تفيد بعض القرائن والشواهد أنّ رفع المصاحف على الرماح كانت من صنع المنافقين وبعض الأفراد في جيش أمير المؤمنين على عليه السلام وطائفه من أهل الشام بقياده عمرو بن العاص والأشعث بن قيس، الذين لا يبلغون انتصار الإمام عليه السلام^(٢).

أوردنا بحثاً مطولاً بشأن التحكيم والذي يعتبر مكملاً لهذا البحث فمن أراد المزيد فليراجع ذيل الخطبه ٣٥، الجزء الثاني، الصفحه ٣٦٤.

ص: ٨٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٣٠ و ٣١.

٢- (٢) انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢١٤.

بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ - يَعُودُهُ، فَلَمَّا رَأَى سَعَةَ دَارِهِ قَالَ: (١)

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام كما ورد أعلاه إشارة لقصة عياده على عليه السلام لأحد أصحابه في البصرة وهو علاء بن زياد الحارثي (رغم ما ذهب إليه أغلب شراح نهج البلاغة من أنه كان الربيع بن زياد وليس العلاء بن زياد) فقال عليه السلام ذلك لما رأى سعة داره فوعظه وسائر الناس ممن على غراره بموعظه بليغه ويتضمن هذا الكلام ثلاثة أقسام:

الأول: أنها موعظه حيّه للعلاء بن زياد.

الثاني: وعظ ونصح عميق لأخيه، أي عاصم بن زياد الذي عاش حياه على العكس تماماً من أخيه وكان يعيش حياه متقشفه.

الثالث: اجابه عن أسئلة عاصم بن زياد بشأن معيشه الإمام.

ص: ٨٥

١- (١) سند الخطبة: وردت عدّه مصادر ذكرت هذا الكلام ومنها الجزء الأول من أصول الكافي والجزء الأول من العقد الفريد والجزء الرابع من ربيع الأبرار واختصاص الشيخ المفيد وتلييس إبليس لابن الجوزي وقوت القلوب لأبي طالب المكي (ورد جانب من هذه الخطبة في بعض هذه الكتب). وقد التفت لهذه الخطبة العديد من العلماء وذكروها في كتبهم لما تضمنته من جوانب تاريخيه وأخلاقية وتربويه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٨).

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجُ؟ وَبَلَىٰ إِنَّ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرَىٰ فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطَلِّعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.

الشرح والتفسير: الدار الواسعه

رغم أن هذا الكلام ورد في قضية شخصيه بشأن اثنين من أصحاب الإمام عليه السلام لكنه في الواقع مبدأ كلي وخطه عامه في ضروره الاعتدال في الاستعانه بالوسائل المعاشيه، والأمة الإسلاميه طيله التاريخ مشموله بهذا الخطاب، فالإمام لما شاهد دار العلاء بن زياد الواسعه الفارهه والمؤثته بالتأكيد وبخه بادئ الأمر ثم نصحه مشفقاً فقال: «مَا كُنْتَ (١) تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجُ؟».

اعتاد الناس حين يعودون مريضاً على قول ما من شأنه إراحته والتخفيف عنه، إلما أن معلماً ربانياً كعلي عليه السلام حين يرى صاحبه طريح الفراش الذي ربّما لا يعاود النهوض منه لابد أن يوقظه ويشدّه إلى مصيره ويريه سبيل السعاده ويجرعه مراره النصح المصحوب بالعتاب، عله يتماثل للشفاء الحقيقي، ثم أراه اسلوب استغلال تلك الثروه الهائله لنيل سعاده الآخره فقال: «وَبَلَىٰ إِنَّ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ:

ص: ٨٧

١- (١). قال بعض شراح نهج البلاغه، إنَّ الجملة «كنت» زائده هنا، والحال ليس الأمر كذلك، بل مراد الإمام عليه السلام منها بيان الاستمرار، لأنَّ مفهوم العبارة ما الذي استفدته من هذه الدار وكانت لك لحد الآن.

تَقْرَى (١) فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطَلِّعُ (٢) مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فقد أشار عليه السلام إلى حقيقته هي أنّ المال والثروة ليست مذمومة أو تتعارض مع القيم، بل المهم كيفية إنفاقها، فهي مذمومة إن أدت إلى الفخر والتكاثر والاحتكار.

لكنّها تعتبر رصيد الآخرة إن وضع قسم منها تحت تصرف المعوزين والقرايه والأصحاب، ومن هنا ذكر المال بصفه «خير» في القرآن: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ» (٣).

جاء في الخبر أنّ شخصاً ذم الأغنياء عند الإمام الصادق عليه السلام وأساء لهم فقال عليه السلام:

«أَسِيكُتْ فَإِنَّ الْعَنَى إِذَا كَانَ وَصُولًا لِرَحِمِهِ، بَارًا بِإِخْوَانِهِ أضعفَ اللهُ تَعَالَى لَهُ الْأَجْرَ ضِعْفَيْنِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ» (٤).

وعليه فإنّ المال من شأنه أن يكون أفضل وسيله للسعادة إن استغل بصورة صحيحة، كما يمكن أن يكون وسيله للبؤس والشقاء إن اقترن بالبخل والإسراف والإحتكار.

تأمل: الدار الواسعة في الروايات

يستفاد من عدّه روايات أنّ إحدى علامات سعادة الإنسان، الدار الواسعة «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ» (٥).

ووردت في ذلك الباب من «الكافي» سبع روايات بهذا المضمون أو ما يقرب منه

ص: ٨٨

١- (١). «تقرى» من «قراء» على وزن «عباء» خدمه الضيف.

٢- (٢) «تطلع» من «الطلع» بمعنى الظهور والبروز وتعني الاظهار من باب الإفعال.

٣- (٣) سورة البقره، الآية ١٨٠.

٤- (٤) تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٣؛ وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٧٦، ح ١٢٥٣٣.

٥- (٥) الكافي، ج ٦، ص ٥٢٦، ح ٧ (باب سعه المنزل).

عن المعصومين عليهم السلام، وأورد المرحوم العلامة المجلسي في الجزء ٧٣ من «بحار الأنوار» عدّه روايات بهذا الخصوص منها ما روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه اشترى داراً لأحد أصحابه وأشار عليه بالانتقال إليه كون داره صغيره، فقال: إنّ والده اشترى تلك الدار (وأنا اتبعه) فقال عليه السلام: «إِنَّ أَبَاكَ كَانَ جَاهِلاً فَهَلْ تَكُونُ كَأَبِيكَ» (١).

طبعاً هذه الروايات لا تعنى أن يتجاوز الإنسان حاله الاعتدال ويقبل على الإسراف، بل تشير إلى ضرورة عدم قناعه الإنسان بالدار الضيقه والصغيره ذريعه لترك صلّه الرحم وعدم استقبال الضيوف. يقال: إن قصدنا دار الأرحام فسيأتون إلى دارنا وهي صغيره، ومن هنا يتحفظون عن استقبال الضيف أساس الخير والبركه، وإنّ أحد أسباب شيوع ثقافه الدور الصغيره في عصرنا بغض النظر عن المشاكل الماليه يتمثل في هيمنه الثقافه الغربيه الخاليه من العواطف الإنسانيه والتي لا- تقيم وزناً لصله الرحم ولا- إقراء الضيف.

ص: ٨٩

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٥٣، ح ٣٠.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال:

وَمَا لَهُ؟ قال: لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا. قال: عَلَيَّ بِهِ. فَلَمَّا جَاءَ قَالَ:

يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ! لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَيْثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ!

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خُشُونِهِ مَلْبَسِكَ وَجُشُونِهِ مَا كَلِمَتِكَ!

قال: وَيَحْكُ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَيَّ أَيْمَهُ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفِهِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعَ بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ!

الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا

لما وعظ الإمام عليه السلام العلاء بن زياد، عرض العلاء قضية أخيه الذي اختار طريقاً مغايراً له، «فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال:

وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا. قال: عَلَيَّ بِهِ». «فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ! لَقَدْ اسْتَهَامَ (١) بِكَ الْخَيْثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ!».

«عدى» تصغير «عدوّ» وأراد الإمام عليه السلام بهذه الوسيلة أن يحفزّه لخروجه من مسار الاعتدال من جهة ويعتبر عمله عدواناً على نفسه من جهة أخرى، ثم يتعرض لهذه القضية فيبين له أن أعمالك إنما تنطلق من وساوس الشيطان بالاضافة إلى

١- (١) «استهام» من مادة «هيم» على وزن «غيم» الحيره والاضطراب والسير نحو العبت و «استهام بك الخيث» أضلك الشيطان.

هوى النفس والتي تؤدي إلى نوع من الازدواجيه والارباك فى المعيشه.

ثم ذكره عليه السلام بأنك تظلم أهل بيتك فضلاً عن نفسك دون حجه أو دليل، والسبب وراء كل هذا التقرير المكرر رفض الإسلام للرهبنه ونسيان الدنيا بهذا الشكل والاقبال على العباده ولا يرى ذلك سوى انحراف عن جاده الصواب كما سيرد تفصيل ذلك.

ثم قال: «أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!».

هذا الكلام فى الواقع إشاره إلى دليل لطيف وهو: أنك اعتمدت طريقه ظاناً استنادها لأمر الله، فى حين أحلّ القرآن صراحه الطيبات والثياب الطاهره والأطعمه للجميع «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

الجملة «أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!» ربّما إشاره إلى أنّ هؤلاء الأفراد الذين يعيشون حياه خاصه ويعتزلون المجتمع الإسلامى، يرون أنّهم مميزون للغايه ويظنون أنّ الاعتزال والإرتياض يميزهم عن الآخرين وكأنّ الله شرع منهاجاً خاصاً، إنّك أهون على الله.

أراد عاصم أن يبرر وضعه: «قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت فى خُشُونِهِ مَلْبَسِكِ وَجُشُوبِهِ (٢) مَا كَلِمَتِكَ!».

فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: «وَيُحَكِّكُ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَزَصَّ عَلَى أَيْمِهِ الْعَيْدِلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفِهِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعُ (٣) بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ!».

وعلى ضوء هذا المنطق فإنّ عامه الناس أحرار فى التمتع بلذات الحياه باعتدال

ص: ٩٢

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

٢- (٢) «جشوبه» الخشونه من ماده «جشب» على وزن «جسب» ويقال للخبز دون غيره «جشب».

٣- (٣) «يتبيع» من ماده «بيع» على وزن «بيع» يهيج، ويأتى أحياناً بمعنى الكثره والمعنى الأوّل هو المراد فى العبارة.

وبعيداً عن الإسراف والتبذير، أمّا أئمة الدين فلا بدّ أن يقنعوا بالحياه المتواضعه على غرار ضعفاء المجتمع ليواسوا الطبقات الفقيره والمحرومه كيلا يشعروا بالهم والأسى.

قال ابن أبي الحديد: فما قام على عليه السلام حتى نزع عاصم العباءه، ولبس ملاءه.

وأكد ابن أبي الحديد أنّ موضوع البحث الأصلي لم يكن العلاء بن زياد، بل شخص معروف هو الربيع بن زياد، والربيع بن زياد هو الذى افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دلونى على رجل إذا كان فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه! وكان خييراً متواضعاً، وهو صاحب الوقعه مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع، وتقشف وأكل معه الجشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرّف الباقيّن، وقد ذكرنا هذه الحكايه فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعه من خراسان: أنّ أمير المؤمنين معاويه كتب إلّى يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخرثى وما أشبهه على أهل الحرب.

فقال له الربيع: إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين (يعنى لابدّ من تقسيم الغنائم مثل رسول الله وعلى)، ثم نادى فى الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين، ثم دعا الله أن يميته، فما جمع حتى مات يوم الجمعة(١).

تأملات

١. ذم عموم الافراط والتفريط

الأمة الإسلاميه أمة معتدله والمسلمون أتباع الإسلام والقرآن بعيدون عن مطلق الافراط والتفريط: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»(٢).

ص: ٩٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٣٦ و ٣٧.

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٤٣.

لكن المؤسف أنّ بعض الجهّال أو المغرضين والمعارضين للإسلام يعتمدون الإفراط والتفريط ويسعون أحياناً لمنحه صيغه إسلاميه.

والبعض وعلى ضوء أن الإسلام أباح الطيبات، فقد أقبل على الكماليات، ويستدل أحياناً بحياه سليمان وفخامه ملكه التي تحدث عنها القرآن.

والبعض الآخر سلك سبيل التفريط فأغلق الأبواب بوجهه وآثر العزله والتفوق وحرّم على نفسه الطيبات المحلله، وقد ابتعد الفريقان عن الصراط المستقيم حيث صرح القرآن بأن علماء بنى اسرائيل قالوا لقارون: «وَأَبْتِغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ» (١).

والحق لو إمتثل قارون وأمثاله هذه المواعظ الاربع ولم ينس نصيبه من الدنيا وجعل رصيده المادى وسيله لنيل سعادته الآخرة وهب لمعونه المستضعفين بدل الافساد فى الأرض، لما طاله قط الغضب الربانى.

وفى حديث معروف عن الباقر عليه السلام قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ» (٢).

٢. التصوف ونتائجه

اعتقد بأنّ بعض الأفراد فى اليونان والهند منذ آلاف السنين أنّه بإمكانهم الإتيان بالخوارق أو نيل المراتب المعنويه من خلال الإرتياض والتشدد على النفس فى الملهذات والأطعمه والأشربه والملبس، كونهم يعتقدون أنّ ترك اللذنه سبب قوه النفس وقدرتها.

وحين انتشر الإسلام تسللت إليه هذه الأفكار من سائر البلدان فخلطه البعض بالزهد وبعض التعاليم الإسلاميه فحملوا الدين أفكاراً منحرفه وشاذه كانت نتيجتها

ص: ٩٤

١- (١) سورة القصص، الآية ٧٧.

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١٧، ص ٧٦، كتاب التجاره، ابواب مقدّماتها، باب ٢٨، ح ١.

«التصوف» ولعل الاسم يعود إلى أنهم لبسوا في البدايه الثياب الصوفيه الخشنه، رغم ما يزعمه بعض المتصوفه من أن ماده هذه المفرده هي الصفاء «صفاء النفس» والحال ليس هنالك أدنى صله بين هذين اللفظين، فأحدهما أجوف واوى والآخر ناقص واوى، كما وقع فى هذا الخطأ من ذهب إلى أنها مشتقه من مفرده «أصحاب الصفه» فصفه من ماده صفف «يعنى مضاعف» وصوفى من ماده «صوف» وعليه فهذه المفرده لا تعنى سوى لبس الصوف قطعاً.

على كل حال، لهذه الفرقة زعامات يطلق عليهم القطب والشيخ والمرشد وأمثال ذلك ويدعون أن لهم كرامات، وقد انقسموا فئات لكل فته طريقتها وأسلوبها على أثر الاختلافات الداخليه وأهواء الأقطاب، فهذه الفرقة تنظر إلى الأحكام الدينيه التى تصطلح عليها بالشريفه أنها قابله للتوجيه والتغيير، والمحور هو السير الباطنى الذى يسمونه (الطريقه)، ومن هنا فهى ترتكب العديد من الذنوب وتفسح المجال لاتباعها لانتهاك الأحكام الشرعيه، بعبارة أخرى، تؤمن بأن الشريعة قشر والطريقه لب، والحقيقه «لب اللب».

وعلى هذا الأساس فهى تستقطب الفاسدين والمفسدين والمتهتكين من الأفراد وتعد حفلات الرقص وتناول المخدرات، وتصر من الناحيه العقائديه على «وحده الوجود» بمعنى «وحده الوجود» فيدعى أغلب زعمائها بين الفينه والأخرى اتحاد الوجودى بالله، ويصطلحون على هذا الكلام الهجين بالشطحيات، يبدو أن هذه الفرقة ظهرت بالتدريج بين المسلمين منذ القرن الهجرى الثانى فأنكر عليها ذلك بشده أئمه أهل البيت عليهم السلام وحذروا المسلمين منهم وربما شده تقريع الإمام عليه السلام لعمل عاصم بن زياد رؤيته عليه السلام أن ذلك مقدمه لظهور تلك الفته فى المستقبل.

ورد أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأل: ما تقول فى الصوفيه التى ظهرت فى زماننا، قال:

«إِنَّهُمْ أَعْدَاؤُنَا فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ مِنْهُمْ وَيُحْشَرُ مَعَهُمْ وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَدْعُونَ

حُبْنَا وَيَمِيلُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ وَيُلَقَّبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِقَبِهِمْ، وَيَأْوِلُونَ أَقْوَابَهُمْ أَلَا- فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَلَيْسَ مِنَّا وَإِنَّا مِنْهُ بَرَاءٌ وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ كَانَ كَمَنْ جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١).

وروى البنزطي وإسماعيل عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ ذَكَرَ عِنْدَهُ الصُّوفِيَّةَ وَلَمْ يُنْكِرْهُمْ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ فَكَأَنَّمَا جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ» (٢).

تنطوى جميع الفرق الصوفيه على انحرافات فى القضايا العقائديه والفقهييه والأخلاقيه نوجز بعضها:

١. حيث يرون أنهم أهل الطريقه يعتقدون بأن الطريقه الكامنه فى مسار الحقيقه وأحكام الشريعه مقدمه فى الوصول إلى الطريقه والحقيقه، ولا يولون أهميه للمسائل الشرعيه ويتخلون عن أكثرها من خلال بعض الحجج والاعذار الواهيته.
٢. الوقوع غالباً فى مطب التفسير بالرأى للكتاب والسنة فيحملون الكتاب والسنة آراءهم ويجيزون لأتباعهم مقارفه بعض الذنوب.
٣. يؤمنون بلزوم طاعه القطب والمرشد وينسبون لأقطابهم العديد من الكرامات الموضوعه التى تفوق أحياناً معاجز الأنبياء والأئمه عليهم السلام، ومن هنا ينتهى بعض اتباعهم إلى الشرك فىرى القطب والمرشد كالمعبود فيعبده.
٤. ابتدعوا الكثير فى الدين ولكل فرقه بدعتها من قبيل كيفيه مجالس الأذكار والأوراد وسائر المجالس ومن هنا قلما يحضرون المساجد، فقد أقاموا لهم مراكز عباديه ليكونوا أحراراً فى الإتيان بأعمالهم.
٥. يؤمن أغلبهم بالتعدديه وكل دين سبيل إلى الله ولا يرون كساد متاع الكفر والدين.

ص: ٩٤

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٣٢٣، ح ١٤٢٠٥.

٢- (٢) سفينه البحار، ماده «صوف».

٦. من أهم انحرافاتهم، الإيمان بوحده الوجود بمعنى وحده الموجود، حيث يرون مجموعه موجودات العالم شيئاً واللّه عين ذلك الشيء ومن هنا يرون عباده الأصنام نوعاً من عباده اللّه شريطه عدم تحديد اللّه في ذلك الصنم.

وقد ألفت عدّه كتب من قبل الأعلام والمحققين بشأن انحرافاتهم، وما ورد آنفاً مجرّد إشارة (١).

القضية الأخرى الجديده بالذكر أنّ التصوف باهت في وسط اتباع أهل البيت عليهم السلام وواسع للغاية في وسط أبناء العامّة وينشط العديد من فئات هذه الفرقة وبعقائد مختلفه في البلدان الإسلاميّه.

والعنصر الرئيسي في هذا الفارق، الإيمان بولايه أهل البيت عليهم السلام ولاسيما الإيمان بوجود المهدي عليه السلام.

وهناك جذور تاريخيه واجتماعيه مختلفه للتصوف واعتناقه ومنها:

١. هوّل خلفاء بني العباس قضية التصوف بهدف صرف الأنظار عن أهل البيت عليهم السلام الذين يرونهم منافسيهم الحقيقيين للتقليل من أهميه زهد أهل البيت عليهم السلام وكراماتهم من خلال أدعياء الصوفيه وحيث إنّ الصوفيه تؤمن بالسير الباطني فهي لا تهدد دنيا المتهافتين عليها، كما حظيت بدعم السياسات المستبده في عصرنا، كونها تمنع اتباعها من التدخل في السياسه وتعبّد الطريق للاستعمار والاستبداد.

٢. الوصول إلى المقامات العرفانيه الصوفيه - على العكس من بلوغ المقامات العلميه والفقيهيه كما يعتقدون بأنّ من ارتاض أربعين يوماً وداوم على قراءه بعض الأوراد وإن كان امياً ربّما يتحوّل إلى ولي من أولياء اللّه وينال مقامات رفيه، بينما لا تكفي أحياناً أربعين سنه من الجهد لبلوغ المقامات العلميه الرفيعه.

ص: ٩٧

١- (١) انظر كتاب: «تجلى الحق» للمؤلف وكتاب «ما يقول العارف والصوفي» لآيه اللّه الميرزا جواد الطهراني رحمه الله وكتاب «التعليم والتربيه في الإسلام» للشهيد العلّامه مرتضى المطهرى رحمه الله وشرح نهج البلاغه للعلّامه الخوئي رحمه الله «منهاج البراعه» ج ١٣ (ذيل هذه الخطبه) من ص ١٣٢.

٣. بما أنهم ينظرون إلى الشريعة كوسيله بسيطه ويفسحون المجال عملياً لأتباعهم لمخالفه بعض الأحكام الشرعيه فإن أغلب الآثمين والمذنبين والساسه المحترفين الظلمه يتعاطفون معهم بغير حساب، أى أنهم يواصلون ظلمهم وإثمهم، كما يشبعون بصوره كاذبه حسهم الدينى، بعباره أخرى أن تساهلهم فى أمور الدين وتركهم أى حزم يؤدى إلى التحاق الأفراد بهم.

قال أحد الفضلاء: لما القى القبض علىّ فى عهد النظام المباد وحملت إلى رئيس جهاز السافاك فى طهران قال لى: سمعت أنّك رجل متدين وعالم، لكن قطعاً لست أقل منك تديناً فأنا درويش وأهيج بذكر على ويعطينى كل ما سألته، مع ذلك لا أطيق تحمل معارضه الشاه ولا أتردد فى قتل مليون شخص دفاعاً عنه.

ثم قال ذلك الفاضل: أدركت أنّ التصوف والدروشه تبيح حتى قتل مليون برىء دفاعاً عن الظالمين.

٣. الانتفاع بالطيبات

يعتقد البعض أنّ الزهد يناقض الانتفاع بالنعم الدينويه وأنّ الإسلام يعتبر التشدد على النفس والإرتياض وهجران لذائذ الدنيا حسناً، والحال ليس الأمر كذلك، وكما أشرنا سابقاً فقد قال تعالى فى القرآن: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

وقال تعالى فى موضع آخر شارحاً أهداف البعثه النبويه وتعاليمها: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢).

ص: ٩٨

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

٢- (٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

وهناك العديد من الآيات والروايات التي لا يسمح المقام ذكرها، لكن لا بأس بذكر موردين:

أحدهما: ما ورد في هذه الخطبه من ضروره عيش أئمه العدل المعيشه المتواضعه ومواساه الطبقات الاجتماعيه المحرومه بغيه ذكرها والعمل على إزاله حرمانها إلى جانب كونها تضامن مع هذه الطبقات.

والآخر: ضروره القناعه بالقليل وبذل الكثير لإنقاذ المحرومين حين يتعرضون لبعض الأزمات الاجتماعيه ويعانون من الضغوط.

وزيده الكلام الذى يفهم من الروايات أن الانتفاع بنعم الله ضمن الحدود المعقوله والبعيده عن الإسراف والتبذير ليس مذموماً وتركها لا يعد فضيله وإن كان تواضع العيش سيما حين فقر البعض وكذلك بالنسبه لأئمه العدل وزعماء المسلمين يعتبر فضيله.

ص: ٩٩

وَقَدْ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ أَحَادِيثِ الْبِدْعِ، وَعَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ

مِنْ اخْتِلَافِ الْخَبْرِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (١)

نظره إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه التي تتحدّث عن أقسام الحديث والرواه على ثلاثه أقسام:

القسم الأول: خاض فيه الإمام عليه السلام ببيان أقسام الأحاديث التي في أيدي الناس، وقال بينها حق وباطل وناسخ ومنسوخ و... ثم أشار إلى عقاب وضاع الأحاديث وبشرهم بنار جهنم على ضوء الحديث النبوي الشريف.

وذكر في القسم الثاني صفات رواه الحديث فصنفهم أربعة أصناف: المنافقين والخاطئين والجاهلين والحفظة الصادقين.

وخاض في القسم الثالث والأخير في بعض خصائص أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأشار

ص: ١٠١

١- (١) سند الخطبه: ذكر صاحب «مصادر نهج البلاغه» أنّ هذا الكلام ورد بسند تام أو مرسل في أغلب المصادر قبل «نهج البلاغه» ومنها كتاب «الكافي» و «تحف العقول» و «الخصال» للصدوق و «الغيبه» للنعمانى (الكافي، ج ١، ص ٦٢، ح ١؛ تحف العقول، ص ١٩٣؛ الخصال، ص ٢٥٥، ح ١٣١؛ الغيبه للنعمانى، ص ٨١، ح ١٠) وسائر الكتب وبعد السيد الرضى ونهج البلاغه كالتذكرة لسبط ابن الجوزى و «الاحتجاج» للطبرسى و «أربعين الشيخ البهائى» (تذكرة الخواص، ص ١٣٣؛ الاحتجاج، ج ١، ص ٢٩٣؛ أربعين البهائى، ص ٢٨٩). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١١٥).

إلى كيفية فهمها، واختتمها بالإشارة إلى وعيه التام لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله، جدير ذكره أنه ورد في «الكافي» بشأن هذه الخطبه:

عن سليم بن قيس الهلالي قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفوهم فيها، وتزعمون أن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بأرائهم؟ قال: فأقبل عليّ وقال: قد سألت فافهم الجواب، وذكر الخطبه عن عليه السلام مع شيء من الإضافات (1).

ص: ١٠٢

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٦٢.

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكَذِبًا، وَنَاسِيخًا وَمُنْسُوخًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا، وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيئًا، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

الشرح والتفسير: نقد الروايات

منعت الخلافة عقب وفاه النبي صلى الله عليه وآله لمدته طويله (أكثر من ١٠٠ سنة) تدوين السننه لأسباب سترد في محلها، مع ذلك كانت الألسن تتناقل أخبار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فكانت تنسب له صلى الله عليه وآله بعض الأخبار المتناقضة، واستغل المنافقون والأعداء الخفيون والظاهرون تلك الظروف الذهبيه فحاکوا بعض الأكاذيب لصالحهم أو لصالح زعمائهم ونسبوا للنبي صلى الله عليه وآله، وإن قام البعض في القرون اللاحقه لتهذيب الأخبار ووضع معايير الصدق والكذب فانتعش تأليف كتب الحديث والرجال، لكن كما قيل فإن منع الكتابه حال دون تدوين الأحاديث.

فقد بين عليه السلام بعبارات قصيره بليغه وعلى وجه الدقه منبع اختلاف الأخبار ليوجزه بسته أمور فقال: «إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكَذِبًا، وَنَاسِيخًا وَمُنْسُوخًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا».

فأشار عليه السلام أولاً إلى السبب الأصلي المتمثل بوجود الحق والباطل التي ربما تشير إلى عقيدته الحق والباطل، فأهل الحق يتابعون أحاديث الحق وأهل الباطل يروجون للباطل.

والصدق والكذب الذى يمثّل نوعاً آخر للحق والباطل بلباس القول هو عامل آخر.

فالكاذبون وضعوا عمداً بعض الأخبار المختلفه ونسبوا للنبي صلى الله عليه وآله وكانوا يتلقون أحياناً أموالاً باهضة من الحكام مثل معاوية وهو السبب الثانى، والسبب الثالث الناسخ والمنسوخ، فالبعض سمع حكم المنسوخ فقط ورواه والبعض الآخر سمع الناسخ ورواه.

والسبب الرابع العام والخاص مثلاً. سمع البعض أنّ الله أحلّ للناس المعاملات لكنه لم يسمع الحكم الخاص، أى بعض الاستثناءات، والبعض الآخر روى الاستثناء والذى يتناقض ظاهرياً مع الخبر العام.

المحكم والمتشابه هو السبب الخامس: فبعض الأخبار مثل بعض آيات القرآن تتحمل عدّه وجوه فى التفسير ثم ترد لاحقاً بعض الأخبار وتزيل الابهام، وعدم اطلاع الرواه على الحاليتين أدى إلى الاختلاف فى الروايه.

السبب السادس: الحفظ والوهم فبعض الرواه روى حديث النبى صلى الله عليه وآله بدقه تامه، بينما رواها البعض الآخر على أساس الظن والوهم الذى لا- يطابق الواقع، هذه هى الأسباب التى تشابكت مع بعضها وعكرت أجواء الروايات الإسلاميه، ثم بدأت هذه الأجواء تظهر فى ظل جهود علماء الحديث والرجال وإن ترسبت بعض الروايات الموضوعه.

ثم خاض عليه السلام فى ذكر دليل واضح على كلامه فقال: «وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَمَلِي عَهْدِي، حَتَّى قَامَ خَطِيْبًا، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا (١) مَقْعَدَهُ (٢) مِنَ النَّارِ».

ورد فى حديث آخر أنه صلى الله عليه وآله قال: «قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكُذَابُ وَسَتَكُثُرُ بَعْدِي أَلْفَمَنْ

ص: ١٠٤

١- (١). «فليتبعوا» من «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق ويقال للموضع المستوى والمكان، والمعنى فليتهيا ويسكن.

٢- (٢) «مقعد» المكان والمحل وموضع الجلوس ويطلق أيضاً على الوساده الصغيره.

كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (١).

وقد ورد هذا الحديث في مصادر العامّة، ومنها «مستدرک الحاكم» و «سنن ابن ماجه» مع اختلاف طفيف (٢).

وأكد أغلب الشراح أنّ هذا الحديث يجعلنا نوقن بالكذب على النبي صلى الله عليه وآله لأنّ هذا الحديث إن صدق فمعناه كثره الكذب على النبي صلى الله عليه وآله حتى خطب المسلمين واعدوا الوضاعين بنار جهنم، وإن كان الحديث كاذباً فعلى الأقل أنّ هذا من الكذب الذي نسب للنبي صلى الله عليه وآله.

على كلّ حال، ممّا لا شك فيه أنّ بعض المنافقين والأعداء شهدوا عصر النبي صلى الله عليه وآله وقد أشار إليهم القرآن في عدّه سور، وقد اشتد خط النفاق عقب رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث كان هؤلاء أحد أسباب وضع الأحاديث، وطائفه أخرى خاضت في الوضع لجهلها بالناسخ والمنسوخ وعدم تمييزها بين المحكم والمتشابه والعام والخاص وهذا ما عكر صفو الأحاديث، واضطر علماء الحديث والرجال لبذل جهودهم ليعينوا معايير الحديث ويميزوا الصحيح من السقيم، وهذا ما سنشير له في ختام الخطبه.

ص: ١٠٥

١- (١) الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٤٦.

٢- (٢) مستدرک الحاكم، ج ١، ص ١١١ و ١١٣؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ١٤.

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُتَّفِقٌ مُطَهَّرٌ لِلْإِيمَانِ، مُتَّصِعٌ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُتَّفِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَيِّدُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَّيْفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ، وَالِدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالِدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ.

الشرح والتفسير: وضع المنافقين للحديث

كان ما مضى إشارة إجمالية عميقة المعنى لمختلف العناصر التي تقف وراء اختلاف وتعارض أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، وقد خاض الإمام عليه السلام هنا في شرح ذلك الكلام فقسّم الرواه إلى أربعة أصناف وشخص موقف كل صنف بصوره دقيقه.

والواقع أنّ الإمام عليه السلام اعتمد في هذه الخطبه أحد فنون الفصاحه والبلاغه الذى يتمثل فى اسلوب الإجمال والتفصيل والذى ورد كراراً فى القرآن ليضع مخاطبيه بدقه فى واقع الحدث، حيث خاطب عليه السلام السائل الذى استهل به الخطبه - وإن كان الخطاب للجميع - فقال: «وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ».

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن الطائفة الأولى بصفته العامل الأصلي للاختلاف فقال:

«رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَّصِعٌ (١) بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأْتِمُّ وَلَا يَتَحَرَّجُ (٢)، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّدًا».

هَبَّ الأَعْدَاءَ لِمَوَاجَهَةِ الإِسْلَامِ عِلَانِيَةً حِينَ لَمْ يَكُنْ يَتَمَتَّعُ بِالقَدْرَةِ الكَافِيَةِ غَيْرَ أَنَّهُمْ هَزَمُوا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةِ وَسَيَطَرِهِ الإِسْلَامِ، فَارْتَدَوْا - كَسَائِرِ المَجْتَمَعَاتِ البَشَرِيَّةِ - ثِيَابَ النِّفَاقِ فَالتَحَقُّوا ظَاهِرِيًّا بِصُفُوفِ المُسْلِمِينَ وَانْهَمَكُوا بَاطِنِيًّا بِأَعْمَالِهِمُ التَّخْرِيْبِيَّةِ، وَكَانَتْ إِحْدَى طَرَفِهِمُ التَّخْرِيْبِيَّةَ المَهْمَمَةَ أَنْ يَكْسُوا أَهْدَافَهُمْ ثِيَابَ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِيَحْرَفُوا المُسْلِمِينَ وَيَحْقُقُوا اغْرَاضَهُمْ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ - الَّذِينَ يَثْقُونَ بِالمَقَابِلِ - يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ كَوْنَهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعَاشَ المَجْتَمَعُ الإِسْلَامِيَّ مُشْكَلَةً كَبْرَى - وَلِحَسَنِ الحِظِّ فَقَدْ أَفْرَطَ هُوَلاءُ فِي وَضْعِ الرِّوَايَاتِ لِصَالِحِ الحُكَّامِ الظُّلْمَةَ كَمَعَاوِيَةَ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْ أَغْلَبَ النَّاسِ يَقْفُونَ عَلَى دَجْلِهِمْ وَسَتَابِعَ فِي مَبْحَثِ التَّأْمَلَاتِ بَعْضَ النَّمَاذِجِ.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَيِّدُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ (٣) عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ».

يَبْدُو أَنَّ أَحَدَ أُسَالِيبِ المُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ اسْبَغُوا قَدْسِيَّةَ عَلَى الصَّحَابَةِ وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا مُؤْمِنُونَ صِلِحَاءَ وَمَقْدَسُونَ لِيَنْفَعُوا مِنْ ذَلِكَ لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ (وَسَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

ثم استشهد عليه السلام بالقرآن على صحه كلامه بحيث لا يبقى من مجال للشك في أذهان مخاطبيه فقال: «وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ المُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ».

ص: ١٠٨

١- (١). «مُتَّصِعٌ» مِنْ مَادَةِ «صَنَعَ» عَلَى وَزْنِ «رُمِحَ» مِنْ يَحْسُنُ ظَاهِرُهُ وَيَبْدَى السِّيِّ حَسَنًا.

٢- (٢) «يَتَحَرَّجُ» مِنْ مَادَةِ «حَرَجَ» الخَشْيَةَ مِنَ الوُقُوعِ فِي الذَّنْبِ، بَابُ تَفَعُّلٍ.

٣- (٣). «لَقِفَ» مِنْ مَادَةِ «لَقَفَ» عَلَى وَزْنِ «وَقَفَ» أَخَذَ الشَّيْءَ بِسُرْعَةٍ وَتَنَاوَلَهُ.

وهذا الكلام إشاره إلى آيات كثيرة وردت في سورة (المنافقون)، التوبه، الأحزاب، النساء، البقره، وسائر السور القرآنيه وكشفت النقاب عن وضع المنافقين وفضحت أساليبهم وذكرت حيلهم ومصائدهم.

ثم قال عليه السلام: «ثُمَّ بَقُوا بَعِيدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَيَّ أُنْمَهُ الضَّلَالَةِ، وَالِدُعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ (١) وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ». وكانت النتيجة كما خُصص إليها الإمام عليه السلام «فأكلوا بهم الدنيا». والمراد من أنمه الضلاله والدعاه إلى النار بالدرجه الأولى، حكام بنى أميه الذين استهتروا بجميع شؤون الإسلام بما فيها أحاديث النبي صلى الله عليه وآله ليتأمروا على الناس، فكانت أفضل وسائلهم تسخير منافقى عصر النبي صلى الله عليه وآله و آله واذنابهم لتحقيق أهدافهم، وهكذا تكدرت أجواء الأحاديث.

والمؤسف أن أغلب الناس لهثوا خلفهم معصوبى العيون حيث قال عليه السلام: «وَأَيْنَمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالِدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَى اللَّهَ».

العبارة المعروفة «النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ» وإن لم ترد بهذه الصيغه فى الروايات (٢) إلا أنها حقيقه ورد مضمونها فى الروايات وكلمات الأعلام حيث إن الطبقة الفاسده المفسده إذا وردت الميدان بخطه مدروسه ووسائل إعلاميه ودعائيه واسعه أمكنها خداع الرأى العام واستقطاب العديد من الناس ولا تقتصر هذه الحقيقه على التاريخ الماضى و صدر الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله بل نلمسها اليوم فى أغلب البلدان المتقدمه، حيث استحوذ الطغاه على الشعوب وخدعوها وتلاعبوا بأفكارها من خلال الاستعانه بوسائل الاعلام ومعونه المنافقين، ثم اختتم عليه السلام هذا القسم بقوله «فهذا أحد الأربعة».

ص: ١٠٩

-
- ١- (١). «زور» تعنى فى الأصل الميل عن الوسط إلى الطرف ولذلك يطلق على الكذب لأنه انحراف عن الحق.
 - ٢- (٢). ذكره والد المرحوم الشيخ البهائى فى كتاب «أصول الأخيار إلى أصول الأخبار»، ص ٣٠ بعنوان «المثل السائر» والمرحوم الملا صالح المازندراني فى «شرح أصول الكافى»، ج ١٢، ص ٥٦٠؛ ولكن قال فى كتاب «كشف الغمّه»، ج ٢، ص ٢٣٠ بعد ذكر هذه الجملة: «كما ورد فى الحديث والمثل».

١. المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وآله

يعلم مَنْ له إمام بالقرآن أنّ المنافقين ذُوموا بشدّه في مختلف السور والآيات ليدل هذا على أنّ المنافقين لم يكونوا عدّه معدوده، وقد انطلقت خططهم منذ قدم النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة واستقبل من قبل أكبر قبيلتين هما الأوس والخزرج وشكل الدوله الإسلاميه، وهى الفئه التى شعرت بخطوره مصالحها إبان ظهور الإسلام فأعلنت إسلامها فى حين كانت تكن العداء للنبي صلى الله عليه وآله والرساله.

ورغم سعيها الجاد للتخفى، غير أنّها كانت تفتضح فى الظروف العصبيه التى تشهد العواصف السياسيه والاجتماعيه، فتاره من خلال اعتزال القتال وأخرى ببناء مسجد ضرار، وأحياناً من خلال التجسس لصالح المشركين على هامش فتح مكه وأخرى عن طريق تهويل قضيه الإفك والتى كانت تكشف النقاب عن صورتهم الحقيقيه.

وقد اتسع نطاق النقاب عقب فتح مكه؛ فأبو سفيان عدو الإسلام الأوّل وأتباعه اعتنقوا الإسلام لإنقاذ حياتهم، لكنهم كانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليه.

٢. المنافقون بعد النبي صلى الله عليه وآله

فتح الباب على مصراعيه عقب وفاه النبي صلى الله عليه وآله واتساع أنشطه المنافقين، فلم يكن من يردعهم بعد انقطاع الوحي ووفاه النبي صلى الله عليه وآله ويحذر الناس منهم ويوجه لهم الضربه القاصمه كما يقول ابن أبى الحديد(١) من جانب آخر فإنّ الفتوحات وكثره الغنائم شغلت أغلب المسلمين وجعلتهم يغفلون عن مؤامرات المنافقين، سيما أنّ أغلب المنافقين شغلوا مناصب حساسه فى البلاد الإسلاميه على عهد الخلفاء، وإحدى مؤامراتهم الخطيره وضع الروايات بما يناسب رغبه الخلفاء والتى بلغت ذروتها على عهد معاويه بغيه توجيه الضربه للإسلام من جهه والتقرب إلى الخلفاء

ص: ١١٠

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤١.

من جهه أخرى.

وقد وردت هذه القضية في أغلب المصادر حتى وصل الأمر بمعاويه أن يتواطأ مع بعض الصحابه، فمن وضع الروايه كذا فله كذا.

فعمد المنافقون أحياناً إلى تحريف الحديث النبوي، وتغيير مضمونه تماماً، كالحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْرَى فَاقْتُلُوهُ» (١).

قال الحسن البصرى قال أبو سعيد الخدرى: «فَلَمْ نَفْعَلْ وَلَمْ نَفْلَحْ» ولكن المنافقين الوضاعين حرّفوا الحديث بأنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْرَى فَاقْبَلُوهُ فَإِنَّهُ أَمِينٌ مَأْمُونٌ» (٢).

قال ابن أبي الحديد: وكتب معاويه إلى عماله في جميع الآفاق: أَلَّا يَجِيزُوا لِأَحَدٍ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ شَهَادَةً، وَكُتِبَ إِلَيْهِمْ: أَنْ انظُرُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ شِيعَةِ عَثْمَانَ وَمَحْبِيهِ وَأَهْلِ وِلَايَتِهِ، وَالَّذِينَ يَرَوْنَ فِضَائِلَهُ وَمُنَاقِبَهُ، فَادْنُوا مَجَالِسَهُمْ وَقَرِّبُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ، وَاكْتَبُوا لِي بِكُلِّ مَا يَرَوِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَاسْمُهُ وَاسْمُ أَبِيهِ وَعَشِيرَتُهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، حَتَّى أَكْثَرُوا مِنْ فِضَائِلِ عَثْمَانَ وَمُنَاقِبِهِ، لِمَا كَانَ يَبْعَثُهُ إِلَيْهِمْ مُعَاوِيَةُ مِنَ الصَّلَاتِ وَالْكَسَاءِ وَالْقَطَائِعِ، وَيَفِيضُهُ فِي الْعَرَبِ مِنْهُمْ وَالْمَوَالِي، فَكَثُرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مِصْرٍ، وَتَنَافَسُوا فِي الْمَنَازِلِ وَالدُّنْيَا، فَلَيْسَ يَجِيءُ أَحَدٌ مَرْدُودٌ مِنَ النَّاسِ عَامِلًا مِنْ عَمَالِ مُعَاوِيَةَ، فَيُرَوِي فِي عَثْمَانَ فَضِيلَهُ أَوْ مُنْقِبَهُ إِلَّا كُتِبَ اسْمُهُ وَقَرَّبَهُ وَشَفَّعَهُ، فَلَبِثُوا بِذَلِكَ حِينًا، ثُمَّ كُتِبَ إِلَى عَمَالِهِ: إِنَّ الْحَدِيثَ فِي عَثْمَانَ قَدْ كَثُرَ وَفُشِيَ فِي كُلِّ مِصْرٍ وَفِي كُلِّ وَجْهِ وَنَاحِيَةٍ، فَإِذَا جَاءَ كُمْ كِتَابِي هَذَا فَادْعُوا النَّاسَ إِلَى الرَّوَايَةِ فِي فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ وَالْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ وَلَا تَتْرَكُوا خَيْرًا يَرَوِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَبِي تَرَابٍ

ص: ١١١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٧٦.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٧، ص ٢١٢؛ تاريخ بغداد، ج ١، ص ٢٧٥. وأضاف الخطيب البغدادي بعد نقله لهذا الحديث: لم أجده إلا بسند واحد وأغلب رجال هذا السند مجهولون.

إلّا وتأتونى بمناقض له فى الصحابه، فإنّ هذا أحبّ إلّى وأقرّ لعينى، وأدحض لحجّه أبى تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله (١).

إلّا أنّ المحدثين إنّما يطعنون فيما دون الصحابه ولا يتجاسرون فى الطعن على أحد من الصحابه لأنّ عليه لفظ الصحبه (٢).

٣. عداله الصحابه

هناك رأيان مختلفان بشأن صحابه النّبى صلى الله عليه و آله: الرأى القائل: إنّهم أفراد صالحون وصادقون وعدول جميعاً ولهم قدسيه خاصه، وعليه فروايتهم عن النّبى صلى الله عليه و آله مقبوله ولا يرد عليها شيء، وإن بدر منهم خلاف من قبيل التصرفات الخاطئه للخليفه الثالث فى بيت المال وإثاره طلحه والزبير لفتنه الجمل وخروج معاويه على إمام المسلمين على عليه السلام وأمثال ذلك، فلا بدّ أن نبرره فنقول: أقصى ذلك أنّهم كانوا مجتهدين وأخطأوا فى الاجتهاد.

والرأى الآخر: رغم وجود العدول من بين الصحابه والأتقياء، لكن كان بينهم المنافق والطالح الذى تبرأ منه النّبى صلى الله عليه و آله وذمه القرآن كراراً حتى لعن البعض منهم، ولا يملك أصحاب نظريه التنزيه المطلق للصحابه من دليل، وكلماتهم تخالف صريح القرآن والتاريخ الإسلامى.

صحيح أنّ القرآن أشاد فى بعض آياته بالمهاجرين والأنصار (رضى الله عنهم ورضوا عنه) لكننا إن قارنا ذلك بسائر الآيات التى ذمت بعض الصحابه ووصفتهم بأنهم أداه بيد الشيطان (سوره آل عمران، الآيه ١٥٥) وعزّف بعضهم بالفسّاق (سوره حجرات، الآيه ٦) واعترض بعضهم فى تقسيم النّبى صلى الله عليه و آله للغنائم وأنّه لم يعمل بالعداله (سوره التوبه، الآيه ٥٨) وفرار البعض الآخر عن الجهاد (سوره الأحزاب،

ص: ١١٢

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤٤-٤٦.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٤٢.

الآيه ١٢ و ١٣) يتضح لنا أنّ نظريه تنزيه جميع الصحابه لا تعدو كونها خرافه وكان فئه من موالى الخلفاء عزفت على هذا الوتر بغيه قطع الألسن التي ربّما تنطلق بالاعتراض على أعمالهم ولاسيما حكام بنى أميه (معاويه وطائفه من رهطه الذين كانوا ظاهراً من الصحابه) تعصبوا لهذه النظرية أكثر من غيرهم ليبرروا من خلالها عظيم جناياتهم، ولكن لحسن الحظ فإنّ محققي العامه أدركوا اليوم هذه الحقيقه فألّفوا العديد من الكتب فى تنفيذ نظريه التنزيه(١).

وخطبه الإمام عليه السلام هذه تدل أولاً: على إنّ هذه العقيدة (تنزيه الصحابه) كانت سائده لدى البعض على عهده فتزعم أنّ فلاناً صحابى وكلامه حجّه.

وثانياً: أنّ الإمام عليه السلام رفض تلك النظرية على أنّ من بين الصحابه منافقين تسللوا إلى الإسلام.

ص: ١١٣

١- (١) كان ممن انتقد هذه النظرية من علماء العامه «أحمد حسين يعقوب» فى كتاب نظريه عداله الصحابه و «الشيخ محمود أبوريّه» فى كتاب شيخ المضيره، وأبوهريره.

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَّعَمَدْ كَذِبًا، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئًا يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى قسمين من أسباب اختلاف الأحاديث وتعارضها فقال:

«وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَّعَمَدْ كَذِبًا، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

فهذا الخطأ يعود تارة إلى التساهل والتسامح، وأخرى إلى الجهل بمفاهيم الألفاظ والعبارات، وأحياناً كون الإنسان ليس بمعصوم ويجوز عليه الخطأ والسهو والنسيان، ومهما كان السبب فالنتيجة واحده وهى النقل الخاطى للآخرين.

مثلاً- ورد عن عبدالله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لِيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». فلما بلغ الحديث ابن عباس قال: أخطأ عبد الله في نقل الحديث، إنما مرَّ

النبي صلى الله عليه وآله بقبر يهودى فقال «إِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُعَذَّبُ» (١).

ومن هنا اشترط فى علم الدرايه ضبط الراوى فى قبول الحديث حيث ينبغى أن يكون ملماً عالماً بالمطلب فيرويه صحيحاً.

القضية المهمه أيضاً أن أغلب الأعلام جَوَّزوا النقل بالمعنى، أى أن الراوى ليس ملزماً بروايه ذات ألفاظ، بل له صياغتها فى قالب آخر وبيرويهها، ونعلم أن هذا العمل ليس هيناً وربما يخطئ الراوى فى ذلك.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!».

وعليه فليس للراوى تيه سيئه فى هذه الموارد وإن أخطأ فى فعله ولعله يضل الآخريين دون قصد، وأغلب هذه الأخطاء كون الراوى لم ينقل صدر الروايه وذيها فيتغير مفهومها.

مثلاً قال أحدهم للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: إِنَّ النَّاسَ يَرَوُونَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». فقال عليه السلام: لعنهم الله فقد أسقطوا صدر الحديث، إنما مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجلين يسب أحدهما الآخر فيقول له: «قَبِّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ يُشَبِّهُكَ».

فقال صلى الله عليه وآله: «يَا عَزِيدُ اللَّهِ لَا تَقُلْ هَذَا لِأَخِيكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» (٢)، أى على صورته أخيك هذا الذى أنت تسبّه الآن.

ثم قال الإمام عليه السلام فى الطائفة الثالثه من الرواه: «وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ».

ص: ١١٤

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤٧.

٢- (٢) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١١٠؛ بحار الأنوار، ج ٤، ص ١١.

مسأله النسخ من المسائل الإسلاميه التي حصلت بصيغته محدوده في أصل نزول القرآن، أي أنه نزل حكماً لزمان معين ثم أزيل ليحل محله حكم دائم، مثلاً، أمر المسلمون بادئ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس في الصلاه واستمر هذا الأمر مدّه في مكه ثم المدينه وقد نسخ هذا الحكم لعله ربّما لأنّ الكعبه تحولت آنذاك إلى معبد للأصنام، ولكن حين رسخ النبي دعائم التوحيد أمر المسلمون في السنه الثانيه للهجره بالتوجه إلى الكعبه، وورد هذا المعنى في الأحاديث النبويه فكان النبي يبيّن حكماً هو في الواقع مؤقت ولكن لم يبيّن زمانه ثم ينسخ ذلك الحكم بحكم دائم، على سبيل المثال قال النبي: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ؛ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَرَّوْهُمَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ إِخْرَاجِ اللَّحْمِ الْأَضَاحِيِّ مِنْ مَنِي بَعْدَ ثَلَاثِ أَلَا فَكُلُوا وَادْخَرُوا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّيِّدِ أَلَا فَانْبُدُوا وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» (١).

وعليه يسع نقل الأحاديث الصحيحه للنبي لمن له إحاطه تامه بكلّ الأحاديث فيعرف الناسخ والمنسوخ ويضع كلاً في محله، وموضوع العام والخاص كذلك حيث يقال أحياناً، حكم عام يشمل جميع الأفراد، مثلاً، قوله صلى الله عليه وآله: «التَّاسُ مُسَلِّطُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» (٢).

ثم يقول في موضع آخر: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ» (٣).

فمن سمع الحكم العام ولم يعلم الخاص يبلغه الآخرين بما يناقض الحكم الخاص، بينما يعلم بعدم التناقض كلّ من سمعها معاً، ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ».

ومن هنا فإنّ بعض اختلاف الأحاديث ناشيء من عدم الإحاطه بروايات الناسخ والمنسوخ دون سوء نية من الرواه.

ص: ١١٧

١- (١) المراد من النييد الحلال أنّ المسلمين لما دخلوا المدينه أصيب البعض لبروده الماء فأمر النبي أن يلقى في الظرف تمر لتزول بروده الماء ولم يكن بالمقدار الذي يحيله خمراً ومن هنا قال في ذيل الروايه: «وكل مسكر حرام».

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١٠، باب ٤١ من أبواب الذبح، ح ٧.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٢، ح ٧.

رغم أنّ موارد النسخ في آيات القرآن وروايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله محدوده ومعدوده؛ إلّا أنّ لهذه المسألة أهمّيه خاصه؛ من حيث إرتباطها بالمسائل العقائديه والمسائل المتعلقة بالنبوه والأحكام.

يتساءل البعض: كيف يمكن أن يوحى الله للنبي حكماً ظاهره أبدى ودائمي؛ لكنه ينسخ بعد مدّه ويحلّ محلّه حكم آخر غالباً ما يناقضه، مع أنّ علم الله غير محدود وعلم النبي أيضاً يستند إلى الوحي؟ والنسخ كثير في الأحكام العرفيه والوضعيه وليس ذلك من العجب، لأنّه يدرس الأمور ويضع الأحكام؛ إلّا أنّ ضعفها وعجزها يتضح عند العمل فينسخها، ولو علم العيوب والمثالب منذ البدايه ربّما لم يضعها؛ إلّا أنّ هذا الأمر لا يصدق على الأحكام الشرعيّه، فما معنى النسخ فيها؟ يتضح الجواب عن هذا السؤال من الالتفات إلى نقطه وهى: أنّ النسخ في الأحكام الشرعيّه من حيث تغيير الموضوع؛ بعبارة أخرى أنّ عمر ذلك الحكم كان محدوداً منذ البدايه بزمان معين وإن لم يُشر إلى نفاذه لبعض المصالح.

مثلاً، حكم التصديق قبل النجوى الوارده في الآيه ١٢-١٣ من سوره المجادله كان لاختبار أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وتفهم هذه القضية أنّ أغلب مناجاه الأفراد للنبي لم تكن ضروريه ولا بد من تركها حتى لا يكون هنالك اساءه ظن، ومن هنا لما أمر بالتصدق قبل النجوى تركه جميع الأصحاب سوى على عليه السلام الذى تصدق وناجى النبي فى أمر مهم ليفخر بأنّه الوحيد الذى عمل بالآيه.

ثم نزلت بعد ذلك آيه نسخت التصديق قبل النجوى وعلم الجميع أنّ أغلب نجواهم لم تكن ضروريه فامتنعوا عنها، ومن هذا القبيل النسخ سواء فى القرآن أو الحديث حيث يوضع حكم فى ظروف معينه لمدّه معينه ثم ينسخ بعد تغيير الشرائط.

جدير ذكره أن النسخ حسب ما ورد هنا يقتصر على زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين فتح باب الوحي ولم يقع أى نسخ بعد النبي (١).

ص: ١١٩

١- (١) انظر المزيد فى النسخ، نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٣٩ و ٢٥٠ ذيل الخطبه الأولى وتفسير الأمثل، ج ١، ذيل الآيه ١٠٦ من سوره البقره، وأسهب من ذلك فى كتاب أنوار الأصول، ج ١، ص ١٧٧.

وَأَخْرَجَ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَهْمُ، بِلِ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قَصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصِيحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتَهُ عَنْهُ وَحَفِظْتَهُ، فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

الشرح والتفسير: حفظه الحديث

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى الصنف الرابع من الرواه السالكين الصراط المستقيم وحمله أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام الثقات والمبينين لأحكام الدين فقال:

«وَأَخْرَجَ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

وعليه تغيب فيهم أولى مناشيء تضاد الأخبار: الكذب على الله ورسوله ووضع الأحاديث، حيث إن مجانبه الكذب جزء من ذاتهم وخوف الله وتعظيم النبي بغض إلى نفوسهم الكذب.

ثم قال: «وَلَمْ يَهْمُ (١)، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ».

وهنا زال عنهم المصدر الآخر لاختلاف الأحاديث والذي يتمثل بتساهل الرواه، ثم بين عليه السلام صفه أخرى لرواه الصدق العارفين فقال: «فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ فَجَنَّبَ (٢) عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحَكَّمَّ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ».

فهذه العبارة العميقة المعنى إشاره إلى الرواه الصادقين المحيطين إحاطه تامه بالأخبار المختلفه؛ ويعرفون الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه، فيجعلون كلًا في موضعه لبيتعدوا عن التناقض والخطأ.

وكلام الإمام عليه السلام بشأن دراسته أساس اختلاف الأحاديث، ليس خاصاً يتعلق بالحديث فحسب، بل يعلمنا درساً أهم وأشمل فلا بد من التوجه إلى الأسس والتعرف على العوامل المؤثرة في السعي لإزالة المعوقات وإلا فإن كل إصلاح يبقى سطحياً وعابراً.

ثم أشار إلى سبب آخر لاختلاف الأحاديث والذي يكمل المباحث السابقة، وهو اختلاف استعداد الأصحاب في تعلم الأحاديث وتفسيرها وفهم معناها فقال:

«وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَتِهِ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قَصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ».

ص: ١٢٢

١- (١). «لم يهّم» من ماده «وهم» مطلق الخيال والظن وتعنى أحياناً الظن الباطل والخطأ وهذا هو المعنى المراد.
٢- (٢). «جَنَّبَ» من باب تفعيل وماده «جنب تعنى حسب بعض مصادر اللغة، الحفظ والإبعاد بالمعنى اللازم والمتعدى والمعنى الثانى هو المراد.

ليس المراد من الخاص والعام فى هذه العبارة، الخاص والعام الاصطلاحيان فى علم الفقه والأصول، بل المراد الخاص والعام اللغويان؛ أى الحكم الخاص بمورد معين والحكم العام، مثلاً- ورد فى بعض الروايات أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمر المسلمين فى السنه السابعه للهجره بعد الحديبيه حين أتوا إلى مكه لإتيان مناسك الحج، أن يسرعوا فى الطواف حول البيت الحرام (ليشعر المشركون بالخوف من قوتهم وسرعه حركتهم)(١) والحال لم تكن سنه ثابتة ودائمه، وورد فى الكلمات القصار من «نهج البلاغه» أنه سئل الإمام عليه السلام عن حديث النبي صلى الله عليه وآله حين قال: «عَيَّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ».

قال عليه السلام: «إنما قال ذلك (الحكم الخاص) والدين قُلْ، أما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرئ وما اختار»(٢).

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مشكله أخرى بشأن نقل الأحاديث وهى؛ «وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّىٰ إِنْ كَانُوا لَيَجِبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ»(٣)، فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ يَسْمَعُوا».

الظاهر أنّ هذه العبارة إشاره إلى الأصحاب الذين لم يكونوا من أهل التحقيق ولا- طرح الأسئلة المختلفه فى أصول الدين والفروع ومن هنا لم يقفوا على ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ومحكم ومتشابه ومجمل ومبين، فلا- يسألون عنها ولا- يلمون بالمسائل ولكن إن جاء أحد وسأل وتلقى الجواب المطلوب تفاعلوا معه.

وقد فسّر بعض الشراح، العبارة المذكوره أنّ بعض الصحابه لم يكن يسأل النبي لهيبته أو أنّ كثرة السؤال تحمل على إساءه الأدب فيمتنعون عن السؤال(٤)؛ إلّا أنّ هذا

ص: ١٢٣

١- (١). شرح نهج البلاغه للتستري، ج ٧، ص ٢٨٠.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٧.

٣- (٣) «طارئ» من «طروء» على وزن «غروب» حادث والخروج المفاجئ ومن هنا يقال للشخص الذى يرد حديثاً والزائر بغته.

٤- (٤). كانت هنالك عوامل أخرى تحول دون السؤال كالاتغال بالعبادات ظناً منهم أنّهم مأمورون بها فقط أو الانهماك فى الدنيا التى تغفل الإنسان عن كلّ شىء.

الاحتمال لا يتناسب والعبارة التي وردت في كلام الإمام حيث قال عليه السلام مواصلاً كلامه؛ «وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ».

وإن رأينا استعداد الإمام للإجابة عن كل سؤال وبغض النظر عن الامداد الغيبي والالهام الباطني والتأهب الذاتي فإن ذلك لملازمته الحميمه للنبي وروح السؤال للإحاطه بكل شيء من المسائل الإسلاميه.

ثم قال في ختام الخطبه: «فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيَّ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رَوَايَاتِهِمْ». وردت عدّه عبارات في ذيل هذه الخطبه في بعض المصادر ومنها «الكافي» حيث قال:

«وَقَدْ كُنْتُ أُدْخِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ دَخَلَهُ وَكُلَّ لَيْلَةٍ دَخَلَهُ فَيُخَلِّينِي فِيهَا أُدْوِرُ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ وَقَدْ عَلِمَ أَصِحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ لَمْ يَصْبَحْ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأْنِيهَا وَأَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَتَفْسِيرَهَا وَنَاسِخَهَا وَمَنْسُوخَهَا وَمَحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا وَخَاصَّهَا وَعَامَّهَا وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يُعْطِينِي فَهَمَّهَا وَحَفِظَهَا... وَمَا تَرَكَ شَيْئًا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ وَلَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَلَا كِتَابٍ مُتْرَلٍ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا عَلَّمَنِيهِ وَحَفِظْتُهُ فَلَمْ أَنْسَ حَرْفًا وَاحِدًا ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيَّ صَدْرِي وَدَعَا اللَّهَ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْمًا وَفَهْمًا وَحِكْمًا وَنُورًا» (١).

ص: ١٢٤

في عَجِيبِ صَنَعِهِ الْكُونِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتناول الخطبه عجائب خلق السماء والأرض منذ انطلاقه الخليقه ولحد الآن وتشير إلى عدّه أمور منها:

١. قدره الله العظيمه في خلق الكون.

٢. بدايه خلق الأرض والسماء وأنها كانت بادئ الأمر كتله ضخمة من ماده مذابه كالبحر المتلاطم.

٣. تشكيل كتله جديده على سطح هذا البحر المذاب ثم تكون الكره الأرضيه وسائر الكرات السماويه.

٤. ظهور التشققات الأرضيه وتكوّن الجبال والقمم التي تمتد لعنان السماء.

٥. تمجيد الله وتسيحه على هذا الخلق العظيم والاعتبار بهذا الخلق العجيب.

ص: ١٢٥

١- (١) سند الخطبه: رواها الزمخشري في «ربيع الأبرار» ورغم اختلافها مع ما ورد في «نهج البلاغه» فيتضح أنه استقاها من مصدر آخر. كما ذكرها ابن الأثير في كتابه اللغوى «النهايه» في مادتي (يعجز) و (ازر) ويفيد اختلافها مع «نهج البلاغه» أنه رواها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١١٧) لابدّ من الالتفات إلى أنّ ابن الأثير أشار لهذه الخطبه في ماده (ازر) و (يعجز) لكنه لم يُشر إليها - حسب المصادر - في ماده (ازر).

وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَيَدِيعِ لَطَائِفِ صَنِيعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّائِحِ الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبْسًا جَامِدًا، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَبْعٍ مَآوَاتٍ بَعْدَ ارْتِفَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ. وَأَرْسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثَعْنَجِرُ، وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ.

الشرح والتفسير: بدايه خلق الكون

حمل الإمام عليه السلام مخاطبيه إلى بدايه خلق الكون ليريهم عظمه الخلق وعجائبه فقال: «وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَيَدِيعِ لَطَائِفِ صَنِيعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّائِحِ (١) الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ (٢)، يَبْسًا جَامِدًا».

(اقتدار) من ماده قدره وجبروت صيغه مبالغه تفيد السلطه التامه، وعليه فانطلاقه الخلق العظيم للسماء والأرض هي قدره الخالق العظيم من جهه وابداعه اللطيف والظريف من جهه أخرى، فالفرد ربّما يفقد الدقه والظرافه في فعل عظيم أو يتعذر عليه التوسع في هذا الفعل؛ إلّا أنّ القادر المتعال مزج ذلك في خلق الأرض والسماء، فهناك العظمه في فعله والدقه واللفظ.

ص: ١٢٧

١- (١) «زأخر» من «زخور» المملوء و «بحر زأخر» البحر الممتلىء.

٢- (٢) «متقاصف» الجماعه التي يدفع بعضها الآخر من ماده «قصف» على وزن «عصف» بالكسر وفي العبارة إشاره إلى الأمواج المتلاطمه التي يضرب بعضها البعض.

فقد ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبه على غرار الخطبه الأولى والخطبه ٩١ من «نهج البلاغه» أنّ بدايه الخلق كانت من المياه، وقطعاً ليس المراد المياه الطبيعیه اليوم، بل الكتل العظیمه المذابه والمتلاطمه التي صنعها الله بقدرته، وقد تحولت هذه الماده المذابه بمرور الزمان إلى مواد جافه فكونت الأرض والكرات السماويه، ويتفق هذا الطرح مع النظريات العلميه المعاصره بشأن ظهور الكون، جدير ذكره أنّ العبارة (من ماء البحر الزاخر) تفيد أنّ قسماً من هذا البحر الزاخر تحول إلى كرات سماويه وبقى قسم منها وهذا ما ينسجم أيضاً والاكتشافات العلميه التي تقول: ما زالت مواد عظیمه من الكتل الغازيه المحرقه أو المواد المذابه في السماء لم تتحول إلى كرات على غرار كرات المنظومه الشمسيه.

ثم تحدّث عن ظهور السموات السبع فقال: «ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا (١) ، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِقَاقِهَا (٢) ، فَاسْتَمْسَكَ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ».

والكلام اقتباس ممّا ورد في الآيه ٣٠ من سوره الأنبياء: «أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا».

ومن الواضح أنّ المشاهده في هذه الآيه ليست المشاهده الحسيه وبالعين، بل المشاهده الباطنيه من خلال العلم والمعرفه، ذهبت النظريات العلميه اليوم إلى أنّ السماء والأرض كانتا في البدايه كتله عظيمه من الغازات والمواد المذابه وقد انفصلت منها بعض القطع الواحده تلو الأخرى اثر دورانها حول نفسها أو بفعل عوامل أخرى فقذفت في زاويه من الفضاء وكونت الكرات والمنظومات والمجرات.

ثم تطرق عليه السلام إلى خلق الأرض فقال: «وَأَرْسَى (٣) أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ (٤)»

ص: ١٢٨

١- (١). «اطباق» جمع «طبّق» الطبقات على بعضها.

٢- (٢) «ارتقاق» الاتصال من ماده «رتق» وضد ها «فتق».

٣- (٣). «أرسي» من ماده «رسو» على وزن «مسح» الثابت والراسخ.

٤- (٤) «اخضر» إشاره إلى عمق البحار التي تبدو لكثيره العمق بهذا اللون.

الْمُتَعَنِّجُ (١) ، وَالْقَمَقَامُ (٢) الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ».

ولعل الكلام إشاره إلى الأمطار الغزيره التي اجتاحت الكره الأرضيه فى بدايه خلق الأرض بصيغه بحر عظيم وتخللت هذه المياه فجوات الأرض بمرور الزمان فشكلت اليابسه التي تكون ربع الكره الأرضيه، وهدات المياه لتذلل الأرض لكي يعيش عليها الإنسان وسائر الكائنات.

ص: ١٢٩

١- (١) . «متعنجر» الملىء بالماء من ماده «تعجره» على وزن «حنجره» جريان الماء وما شابه.

٢- (٢) «قمقام» البحر العظيم فى الأصل من ماده «قمقمه» على وزن «همهمه» بمعنى الجمع ومن هنا يقال قمقام للبحر العظيم والأحداث المهمه التي تجمع فيها المشاكل الكثيره.

وَجَبَلٍ جَلَامِيدًا، وَنُشُوزٍ مُتُونًا وَأَطْوَادَهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاتِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمِيَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالُهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا، وَأَرْزَهَا فِيهَا أُوْتَادًا، فَسَيَّكَنْتَ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسَيَّجَحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعِيدَ مَوْجِيَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجَمَدَهَا بَعِيدَ رُطُوبِهِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مَهَادًا، وَبَسَّطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّي زَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكْرِكُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الدَّوَارِفُ؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى».

الشرح والتفسير: خلق الجبال

خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لخلق السموات والأرض واستقرار الأرض في موضعها في شرح إحدى الظواهر الأرضية المهمة التي تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية فقال: «وَجَبَلٍ (١) جَلَامِيدًا (٢)، وَنُشُوزٍ (٣) مُتُونًا (٤)»

ص: ١٣١

١- (١) «جبل» من مادة «جبل» على وزن «جبر» الخلق ومنه الجبل المعروف.

٢- (٢) «جلاميد» جمع «جلمود» على وزن «خرطوم» الصخره والجبل.

٣- (٣) «نشوز» جمع «نشز» على وزن «نشر» التل وما ارتفع من الأرض. ولهذه المفردة معنى مصدرى: الامتناع عن الإتيان بالوظيفة كنشوز الزوجه عن الزوج.

٤- (٤) «متون» جمع «متن» المحكم وتأتى بمعنى المستوى والمراد هنا المعنى الأول.

وَأَطْوَادِهَا (١)، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَايِسِهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ».

المفروغ منه علمياً أنّ سطح الكره الارضيه لم تَعْلَهُ المرتفعات قبل أن يبرد، إلّا أنّ الشقوق تخللتها بعد برودتها (كالتفاحه التي تمر عليها مدّه فتتصلب) فكونت هذه الشقوق الجبال والوديان العظيمه، وكانت الجبال تنطلق إلى السماء وتغوص جذورها في المواد المذابه في جوف الأرض فتكون سطح الأرض بصيغته الفعلية.

ثم وضح أكثر فقال: «فَأَنْهَدَ (٢) جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ (٣) قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا (٤)، فَأَشْهَقَ (٥) قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا (٦)».

تفيد هذه العبارة أنّ جبال الارض بغض النظر عن استوائها خارجياً فإنّ لها جذوراً عظيمة في أطناب الأرض وهي الجذور التي تشدها معاً من الداخل، بالضبط كالشجره التي كلما امتد ساقها وأوراقها إلى الأعلى انغمرت جذورها أعمق في الأرض، فالامتداد والاستقرار يرسخ الجذور في الأرض.

ثم ذكر عليه السلام فوائد الجبال وأهمها حفظ استقرار الأرض وسكانها، فقال بعبارات دقيقه وعميقه: «وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرْزَهَا (٧) فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ (٨) بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ (٩) بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا».

ص: ١٣٢

- ١- (١). «أطواد» جمع «طود» الجبل الشامخ.
- ٢- (٢). «أنهد» من «النهود» بمعنى الظهور والانفصال.
- ٣- (٣). «أساخ» من «السوخ» على وزن «قول» الغوص في الماء.
- ٤- (٤). «انصاب» جمع «نصب» على وزن «كتب» الأجسام الأعلام وللنصب معنى المفرد أحياناً والجمع أخرى حسب ما ذكر المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»، ج ١٠، ص ١٢٦.
- ٥- (٥). «أشهق» من «الشهوق» الارتفاع و «اشهق» يعنى رفع.
- ٦- (٦). «أنشاز» جمع «نشز» على وزن «مرض» من «النشوز» ذكرت سابقاً في هذه الخطبه.
- ٧- (٧). «أرز» من ماده «ررّ» على وزن «حظّ» بمعنى ثبت.
- ٨- (٨). «تميد» من «الميد» على وزن «صيد» الحركة والاضطراب.
- ٩- (٩). «تسيخ» من «سوخ» فسرت في الخطبه.

كيف تهب الجبال الأرض الاستقرار وتحول دون اضطرابها؟ وتوضح الاجابه عن هذا السؤال من خلال قضيه هي أن نواه جوف الأرض مواد مذابه وغازات تسلط ضغطاً على الدوام على القشره الخارجيه وتظهر أحياناً كبراكين، إلّا أنّ الجبال لا تتحمل تلك الضغوط بفعل جذورها المحكمه والمتصله فتحول دون الاضطراب فتصبح مصدراً لاستقرار القشره الأرضيه.

أضف إلى ذلك فإنّ الجبال تعتبر من العوامل المؤثره في استقرار الأرض بفعل الضغوط الخارجيه الناشئه من جاذبيّه الشمس والقمر وما يحصل منها من مد وجزر، من جانب آخر فإنّها ملاذات إزاء العواصف التي تصيب سطح الأرض ومن شأنها تهديد حياه الإنسان، ومن أراد المزيد بهذا الخصوص فليراجع الخطبه ٩١ من الجزء الرابع لهذا الشرح وتفيد العبارة «فسكنتا على حركتها» استناداً للعبارة «على» أنّ الإمام عليه السلام أشار بوضوح آنذاك إلى حركه الأرض التي كان يقول بسكونها آنذاك جميع علماء الهيئه حيث قال رغم حركه الأرض إلّا أنّها مستقره ولا تعرض سكانها للاضطراب.

وقد أشار المرحوم العلّامة شرف الدين صاحب كتاب (مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام) إلى هذه النقطه الظريفه(١).

ثم قال عليه السلام: «فَسَيَبْحَانُ مَنْ أَمْسَيْتَ كَهَا بَعِيدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعِيدَ رُطُوبِهِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَادًا، وَبَسَّطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّي رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسِيرِي، تُكْرِكِرُهُ (٢) الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمَخُّضُهُ (٣) الْعَمَامُ الدَّوَارِفُ (٤)؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى».

ص: ١٣٣

١- (١) مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١١٧.

٢- (٢). «تكركر» من ماده «كركره» على وزن «حجره» يرى البعض أنّها من ماده والبعض الآخر أنّها ماده مستقله من الرباعي المجرد وتعني التكرار.

٣- (٣) «تمخض» من ماده «مخض» على وزن «قرض» تعني في الأصل حركه اللبن لاستخراج الزبد ثم اطلقت على كلّ حركه شديده.

٤- (٤) «ذوارف» من ماده «ذرف» على وزن «حرف» سيلان الدمع من العين أو مطلق السيل و «ذوارف» جمع «ذارفه» بمعنى الجارى والصابى.

تبدو للوهله الأولى فى هذه العبارة جملتان متناقضتان؛ فقد قال فى الأولى: إِنَّ اللَّهَ بَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى بَحْرٍ عَظِيمٍ لَّجِي رَاكِدٌ لَا يَجْرِي وَقَالَ فِي ذَيْلِهَا: تَكَرَّرَ الرِّيحَ الْعَوَاصِفِ، إِلَّا أَنَّ تَأْمَلَ الْعِبَارَةَ يَوْضَحُ نَفْيَ أَى تَنَاقُضِ، فَالْعِبَارَةُ الْأُولَى تَتَحَدَّثُ عَن اسْتِقْرَارِ طَبِيعَةِ الْبَحْرِ، وَالثَّانِيهِ عَن تَأْثِيرِ الْعَوَامِلِ الْخَارِجِيهِ، أَى الرِّيحِ الشَّدِيدِهِ عَلَى سَطُوحِ الْبَحَارِ.

وقوله: «وَتَمَخُّضُهُ الْعَمَائِمُ الذَّوَارِفُ» إمَّا لِأَنَّ هَذِهِ السَّحْبَ مَقْتَرَنَهُ دَائِمًا بِالْعَوَاصِفِ، أَوْ أَنَّ سَيُولَ الْأَمْطَارِ تَسْقُطُ عَلَى سَطُوحِ الْمَحِيطَاتِ تَوْثِرَ عَلَيْهَا وَتَجْعَلُهَا مَتَلَاظِمَهُ.

والعبارة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى» إمَّا إِشَارَةٌ إِلَى سَكُونِ الْبَحَارِ وَحَرَكَتِهَا الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا، أَوْ إِشَارَةٌ لَمَّا ذَكَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ بِشَأْنِ خَلْقِ الْجِبَالِ وَخَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَالآيَةُ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى» (١). تَصَرَّحَ بِأَنَّ الْخَشْيَةَ وَلِيَدِهِ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ مِمَّنْ يَعْتَبِرُونَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (٢).

ص: ١٣٤

١- (١). سورة النازعات، الآية ٢٦. جدير ذكره أن هذه الآية القرآنية وردت فى سياق الخلقه وخلق السماء والأرض.

٢- (٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

كَانَ يَسْتَنْهَضُ بِهَا أَصْحَابَهُ إِلَى جِهَادِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه الخطبه في الواقع استغاثه بالله ممزوجه بالدعاء لنصره جند الإسلام ومؤاخذه العناصر العاكفه عن نصره الحق واطمام الحجه عليهم أمام الله تعالى، ويشير الكلام إلى مدى امتعاض الإمام عليه السلام عن ضعف أهل الكوفه وعدم مبالاتهم بأمر جهاد طغام أهل الشام؛ الأمر الذي يستفاد من أغلب خطب «نهج البلاغه» ولولا الضعف والنكوص لنحا التاريخ الإسلامي منحى آخر ولكن للاسف...!

ص: ١٣٥

١- (١) سند الخطبه: لم يذكر صاحب «مصادر نهج البلاغه» سنداً لهذه الخطبه؛ لكن يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغه» (وأشرنا لذلك في المتن) أنّ هذا الكلام كان ذيل الخطبه ١٩٨ ولم يذكر هذا الكتاب سنداً آخر غير «نهج البلاغه».

اللَّهُمَّ أَيُّمًا عَزِيدَ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُضِيْلَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ الْمُغْنَى عَنْ نُصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين

تفيد القرائن أنّ هذه العبارات العميقة المعنى المليئة بالأسى واللوعة كانت بعضاً من خطبه طويله اقتطف منها المرحوم السيد الرضى هذا القسم وفصله عنها، ويرى البعض أنّه ذيل الخطبه (١)١٩٨.

والهدف الأصلي لأئمة المؤمنين عليه السلام من هذه الخطبه تعبئه صحبه لجهاد أهل الشام الظلمه؛ لكن بصيغه شكوى إلى الله، شكوى من أولئك الذين يسمعون دعوته العادله ويتمردون عليه في الجهاد، الشكوى التي تبين مدى مظلوميه الإمام عليه السلام ومدى افتقار صحبه للشعور بالمسؤوليه. فقال: «اللَّهُمَّ أَيُّمًا عَزِيدَ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُضِيْلَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ (٢) عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ (٣) عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ

ص: ١٣٧

١- (١) تمام نهج البلاغه، ص ٤٩١.

٢- (٢). «نكوص» مصدر يعنى الانسحاب والتراجع.

٣- (٣) «إبطاء» التأخير من ماده «بطؤ» على وزن «قفل».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام أكّده بهذه العبارات بشأن الدعوه إلى جهاد ظلمه أهل الشام على أربع أو على اعتبار على صفتين:

١. إنّ هذا الكلام كلام على مسار العدل.

٢. لا ظلم فيه قط.

٣. سبب إصلاح الناس.

٤. لا يترتب عليه أى فساد وآثاره الايجابيه ظاهره فى دنيا الناس ودينهم.

والبدايه تحكم بضروره إتباع هذا الكلام الملىء بالحق والعدل والصلح والمصلحه وانحراف من يخالفه عن شرع الله والعقل.

القضيه الأخرى أنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من يتمرد على دعوته لجهاد أهل الشام الظلمه إنّما ينكص عن نصره الله واشتداد دينه دون أن يجنى الإمام عليه السلام نفعاً خاصاً من ذلك، كما أراد أن يذكر الإمام عليه السلام ضمناً بأنّ مسير أهل الشام مسير الظلم والجور وأساس الفساد فى دين الناس وديانهم.

وواصل عليه السلام كلامه بإشهاد من فى السماء والأرض إلى جانب إشهاد الله فقال:

«وَنَشْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ الْمُغْنَى عَن نَصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ».

فقد أتمّ الإمام عليه السلام بهذه الشكوى إلى الله المنبعثه من قلب حزين ملتاع، الحجه على المشاقلين عن الجهاد من جهه وتحذير من جهه أخرى لصحبه الأوفياء ألما يهنوا بسبب ضعف أولئك الأفراد ويعلموا أنّ الله ناصرهم وأولئك الناكسين سيلاقون جزاء أعمالهم، ويشهد التاريخ أنّهم ابتلوا عقب شهادته الإمام عليه السلام وولّى عليهم ظلمه من ولاة بنى أميه فلم يراعوا فيهم ذمّه ولم يألوا جهداً فى اذقتهم العقاب.

ورد فى كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم أنّه قام رجل من بنى فزاره فقال للإمام:

تريدنا أن نقاتل أهل الشام فنقتل إخواننا كما قتلناهم فى البصره يوم الجمل فلن

نفعل ذلك، فنهض مالك الأشر وقال: أمسكوه (فهو من أفراد العدو) فنهضوا إليه فهرب إلى موضع لبيع الخيل فجعلوا يطأونه بأرجلهم (١).

العباره «جَمِيعَ مَا أَشْكَنْتُهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ» تبدو إشاره إلى الملائكه والإنس والجن، لأنّ العباره «اسكنتها» تناسب ذلك وعليه «ما» اطلقت هنا على العاقل وإشهادهم رغم إشهاد الله قبل ذلك تأكيد لهذا الأمر المهم، كما جعل الله إلى جانب ذاته القدسيه شهداء كثيرين على أعمالنا.

ص: ١٣٩

١- (١) صفين لنصر بن مزاحم، ص ٩٤ و ٩٥.

فى تَمْجِيدِ اللّٰهِ وَتَعْظِيمِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

يستفاد من تعبير المرحوم السيد الرضى أنّ ما ورد فى هذه الخطبه جانب من كلام الإمام عليه السلام اقتطفه السيد الرضى فى قسمين:

القسم الأول: الذى جرى الكلام فيه عن صفات الله الجلاليه والجماليه ولا سيما احاطته العلميه بجميع المخلوقات.

وورد الكلام فى القسم الثانى عن صفات النبى وإمداده الغيبي وإزاله الموانع عن مسيرته وتطورها السريع، وبالتالى فإنّ الخطبه قبسات بشأن التوحيد والنبوه.

ص: ١٤١

١- (١) سند الخطبه: لم يذكر سند هذه الخطبه فى المصادر المعروفه سوى «نهج البلاغه» وقد روى العلامه المجلسى قسمها الأول عن «نهج البلاغه» فى الجزء الرابع من بحار الأنوار.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِعِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِأَلَاكِيسَابِ وَلَا اِزْدِيَادِ، وَلَا عِلْمِ مُسْتَتْفَادِ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِأَلَا رَوِيَّهِ وَلَا ضَمِيرِ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلْمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ، وَلَا يَزْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْأَبْصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ.

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه و آله:

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي الْأَضْيَافِ، فَرْتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَسَيَّأَرَ بِهِ الْمَعَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَيَّهَلَ بِهِ الْحُزُونََ، حَتَّى سَيَّرَحَ الضَّلَالَ، عَنْ يَمِينٍ وَشَمَالٍ.

الشرح والتفسير: قبسات من صفات الله ورسوله

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الخطبه الذى ورد فى صفات الله الجماليه والجلاليه إلى اثنتى عشره صفه، فقال فى الصفات الأربع الأولى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِعِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ (١)».

وكما قيل آنفاً فإنَّ الذات الإلهية لامتناهيه، ومن البديهي أن تعجز جميع

ص: ١٤٣

١- (١) «متوهمين» من ماده «وهم» الظن والخيال كما تعنى التفكير وهذا هو المعنى المراد والشاهد على ذلك كلمه الفكر قبل ذلك.

مخلوقاته المتناهيه من جميع الجوانب عن درك كنه ذاته، وعليه إنّما ندرك تلك الذات عن طريق آثاره العجيبه السائده في عالم الوجود؛ ومن هنا فإن قلنا أوضح من كلّ شيء وأخفى من كلّ شيء فذلك ناظر لهذين البعدين؛ من حيث آثار علمه وقدرته ظاهراً تماماً، وخفى من حيث كنه ذاته.

ثم خاض في الصفه الخامسه والسادسه فقال: «العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم مُستفاد، المُقدّر لجميع الأمور بلا رويّه ولا ضمير».

لا شك في أنّ علم الله كذاته لا متناهٍ، فلا يحتاج إلى اكتساب ولا تعلم من آخر، وهذا يقتصر على ذوى العلم المحدود والذين لهم الازدياد من خلال ثلاثه طرق:

التجربه وأمثالها، تأثير العلوم في بعضها والانتقال من مساله لأخرى، وأخيراً التلمذ والتعلم من الآخرين، أمّا من كان علمه لا متناهٍ فغنى عن كلّ هذه الأمور، كما هو غنى عن إحاله الفكر في خلق الكائنات وتقدير كلّ مخلوق من حيث الكميّه والكيفيه والقوانين التي تحكمه، فلا حاجه للرجوع إلى الوجدان بخلاف الإنسان الذي يحاول اختراع شيء ربّما يستغرق أحياناً لسنوات ويطلع ويستعين بمعلوماته وأفكاره لينجح في محاولته.

وقال في الصفه السابعه والثامنه: «الذي لا تغشاه الظلم، ولا يشتضىء بالأنوار».

ثم تطرق إلى الصفه التاسعه والعاشره لايضاح هذا المطلب فقال: «ولا يزهقه (١) لئلا، ولا يجري عليه نهاراً». ولعل هذه العبارات تشير إلى أنّ ذاته القدسيه جليه دائماً عن طريق الآثار ولا يعتربها الليل والنهار، أو إشاره إلى غناه عن الضياء بخلاف الإنسان في المشاهده والاحاطه بالاشياء.

وقال في الصفه الحاديه عشره والثانيه عشره المكمله والموضحه لما سبق من صفات «ليس إدراكه بالابصار، ولا علمه بالأخبار». فهذه الأمور مرتبطه بالجسم والجسمانيات وذوى العلوم الناقصه والمحدوده، هو ليس من قبيل الأجسام ولا

ص: ١٤٤

١- (١). «يرهقه» من ماده «رهق» على وزن «شفق» غشى الشيء أو القهر والغلبه كما وردت بمعنى تسلط الشيء.

وهنا يرد هذا السؤال: لم يركز الإمام عليه السلام في عدّه خطب على هذه المضامين ويؤكد عليها ويصر على غنى علم الله عن الأمور المذكوره، ما سرّ هذا التأكيد؟

نقول في الجواب: إنّ إحدى أعظم المشاكل في معرفه الله، قضيه مقايسته بالمخلوقات، كونه يتعامل طيله حياته معها فيقيس بها كلّ شيء، المخلوقات المحدوده من جميع الجوانب، العلم والقدرة والزمان والمكان والإدراك والشهود والتقلب والزوال، فإذا دار الكلام عن معرفه الله استعان - عالماً أو جاهلاً - بذلك القياس فيهوى في وادى التشبيه الخطير.

ومن هنا فإنّ هذا المعلم الرباني يحذر كراراً من الانزلاق إلى الهاويه والمقايسه بين الله وأيّ من مخلوقاته التي تبعد عن معرفه الله وتخلق لديه أوهاماً يتعبد بها.

والحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السلام: «كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَضِيئُ نَوْعٍ مِثْلِكُمْ مَزْدُودٌ إِلَيْكُمْ» (١). إشاره رائعه لهذا المطلب.

ولذلك كان الأئمه عليهم السلام دائمي المراقبه لصحبهم وأتباعهم حذراً من السقوط في مستنقع التشبيه أو التعطيل، في حين سقط فيه العديد ممن لم يستر على نهجهم ويتبعهم، ومن نماذج هذا الانحراف الخطير، الإيمان بتجسم الله وتشبيهه بمخلوقاته والاعتقاد بإمكانيه رؤيته ومشاهدته الحسيه في الدنيا أو على الأقل في الآخره والتي يلتزم بها الأعم الأغلب.

وأورد الإمام عليه السلام كلمات قصيره عظيمه المعنى بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

في القسم الآخر من هذه الخطبه الذي ذكره السيد الرضى تحت عنوان «وَمِنْهَا فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» فيبين عليه السلام سبعاً من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه و آله التي تشير إلى رفعه مقامه وسعه إصلاحاته في المجتمع الإسلامي فقال: «أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي

ص: ١٤٥

الإِضْطِفَاءِ، فَرَتَّقَ (١) بِهِ الْمَفَاتِقَ (٢) وَسَاوَرَ (٣) بِهِ الْمَغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونََ (٤)، حَتَّى سَرَّحَ (٥) الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ».

المراد من الضياء أحد الاحتمالات: نور الإيمان أو العلم أو القرآن أو الوحي أو جميعها، أى أنّ الله بعث النبي صلى الله عليه وآله بنور الوحي والقرآن والإيمان ليضيء بها الكون العبارة «قَدَّمَهُ فِي الإِضْطِفَاءِ»، ربّما إشاره إلى خاتمية النبي صلى الله عليه وآله (لأنّه لو لم يكن خاتماً سيرد ديناً أسمى من دينه) أو إشاره لأفضليته على جميع الأنبياء والخلق، المراد من «مفاتق» الاختلافات الواسعة التي سادت مجتمع الجزيره وقضى عليها النبي صلى الله عليه وآله، ووحدهم تحت لواء الإسلام.

العبارة «وَسَاوَرَ بِهِ الْمَغَالِبَ» إشاره إلى قطع أيدي الظلمه والطغاه عن المستضعفين والمحرومين والذي حصل ببركه ظهور الإسلام والذين سلموا جميعاً لقدرة الدين الجديد.

والعبارة «وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ» يمكن أن تكون إشاره إلى حل المشاكل المعنويه والعقائديه والاخلاقيه أو المشاكل الماديه والاجتماعيه أو جميع ذلك في ظل ظهور الإسلام.

وتشير العبارة «حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى نهايه جميع المفاسد التي اشير إليها في العبارات السابقه، أى زوال أنواع الضلال اليمين والشمال ومن جميع الجوانب بالنبي صلى الله عليه وآله ورسالته.

وربّما تشير العبارة «عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى الإفراط والتفريط أو إشاره لكل الطرق التي تؤدي إلى الفساد، قطعاً هذه الاصلاحات ليست مختصه بزمان ظهور

ص: ١٤٦

١- (١). «رتق» من «رتق» على وزن «حتم» الاتصال.

٢- (٢) «مفاتق» المواضع المنشقّه جمع «مفتق» على وزن «مكتب» من ماده «فتق» (ضد رتق).

٣- (٣) «ساور» من «المساوره» الغلبه والسيطره من ماده «سور» على وزن «غور».

٤- (٤) «حزونه» ضدّ سهوله، الخشن والغلظ في الأرض.

٥- (٥) «سرح» من «التسريح» الترك والطرده ومن هنا يقال للطلاق تسريح ومادته الأصلية «سرح» و «سروح» الاطلاق والتحرير.

النبي صلى الله عليه وآله فلو عملنا اليوم بالتعاليم والوصايا الإسلاميّة لتحققت وحده الأئمّة الإسلاميّة ولقطعت أيدي الطغاه والظلمه ولهانت جميع الازمات والمشاكل الاجتماعيّه، فكلّ ذلك من آثار التعاليم الإسلاميّه.

ص: ١٤٧

يَصِفُ جَوْهَرَ الرَّسُولِ، وَيَصِفُ الْعُلَمَاءَ، وَيَعْطُ بِالتَّقْوَى (١)

نظره إلى الخطبه

تتألف هذه الخطبه كما أشرنا من ثلاثه مقاطع: أشار عليه السلام في المقطع الأول عقب شهادته لله بالعدل إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشير إلى طهاره جوهر ذات النبي من جميع الجهات، وتطرق ضمناً إلى لطف الله بالمطيعين من عباده وإمداده الغيبي لهم.

وتحدث في المقطع الثاني عن العلماء الربانيين وصفاتهم البارزه وكيفيه تعاملهم مع الآخرين.

وأورد في الختام مواظب كثيره من شأن العمل بها تربيته روح الورع والتقوى لدى الإنسان بعبارات موجزه بليغه.

ص: ١٤٩

١- (١) سند الخطبه: روى الأمدى في «غررالحكم» جانباً من هذه الخطبه مع اختلاف يدل على أنه اقتبسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه».

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ، وَحَكَمٌ فَصِيلٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كَلِمًا نَسِيخَ اللَّهِ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمَ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا.

وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُبَيِّنُ الْأَفْئِدَةَ، فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَفٍ.

الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر الخطب - بالشهادتين (وإن دلت الواو في «وأشهد» أنه كانت قبلها بعض المطالب) فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ، وَحَكَمٌ فَصَلٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ».

التعبير (عَدْلٌ) الذى له معنى مصدرى، للتأكيد، أى أَنَّ ذات الله عين العدل، والعبارة التى أتت به بصيغته الفعل الماضى (عدل) تأكيد آخر و (حكم) له معنى واسع يشمل حكم الله فى جميع الجوانب التكوينية والتشريعية، وأنه فصل وفرقان بين الحق والباطل على الدوام.

والعجيب أن ابن أبى الحديد نسب الضمير فى (أنه) إلى القضاء والقدر ويعتقد بأنه كان قبل هذه العبارة (وفصله السيد الرضى، ووافقه عدد من الشراح، فى حين تشير العبارة «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» إلى أَنَّ الشهاده السابقه شهاده

مرتبطة بالله، بالإضافة إلى أن «حكم عدل» من صفات الله لا صفات القضاء والقدر (١).

ويشير وصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في عبارته المذكورة بالعبودية قبل الرسالة إلى أن أعظم فخر للإنسان عبودية الله والعبارة «سَيِّدُ عِبَادِهِ» تأكيد آخر لهذا المعنى، نعم كل ما هنالك في عبودية الله، ثم قال في ذكر صفات النبي صلى الله عليه وآله: «كُلَّمَا نَسَخَ (٢) اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا».

إشارته إلى أن نوره صلى الله عليه وآله في صلب آدم كان ينتقل من صلب لآخر ولما كان يظهر عدّه أبناء من نسله كان نوره المبارك في الفرع الأفضل من ذلك النسل وما زال كذلك حتى انتقل من صلب عبد الله لرحم آمنه بنت وهب.

ثم أضاف: «لَمْ يُسْهِمَ فِيهِ عَاهِرٌ (٣)، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ». وهونفس المضمون الذي ورد في زيارته وارث في الإمام الحسين عليه السلام: «أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ وَالْأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ تُلْبَسْكَ مِنْ مُدْلِهَمَاتِ ثِيَابِهَا» (٤).

وهو ذات المعنى الذي ورد في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى الْمُطَهَّرَاتِ حَتَّى أَخْرَجَنِي فِي عَالَمِكُمْ هَذَا لَمْ يُدْنَسْنِي بِدَنَسِ الْجَاهِلِيَّةِ» (٥).

والعبارة الواردة في هذه الخطبة والزيارة والرواية بالإضافة إلى بيان فضل النبي

ص: ١٥٢

١- (١) هنالك عبارات في كتاب «تمام نهج البلاغه» الذي أورد عبارات مكمله لهذه الخطبة تشير بوضوح إلى أن الضمير في «إنه» يرجع إلى الله تعالى لا إلى القضاء والقدر (تمام نهج البلاغه، الخطبة ٢٢، ص ٢٩٩).

٢- (٢). «نسخ» من «النسخ» على وزن «مسح» تعني في الأصل انتقال الشيء ومن هنا يقال حين ينتقل الظل إثر حركة الشمس: «نسخت الشمس الظل» كما يقال لكتابه شيء على كتبه أخرى استنساخ، لأنها تنقل المطلب. ومنه النسخ في الأحكام لأن حكماً يحل محل آخر والنسخ في العبارة إشارته إلى انتقال النطفة من الأب إلى الأب الآخر والذي تنتقل عن طريقه الصفات من الآباء إلى الأبناء.

٣- (٣). «عاهر» الشخص الفاسق والفاجر.

٤- (٤) مصباح المتهجد، ص ٧١٧.

٥- (٥) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١١٧؛ مجمع البيان، ج ٣-٤، ص ٤٩٧.

الأكرم صلى الله عليه وآله تعلمنا جميعاً هذا الدرس وهو أنّ فتره تربيته الإنسان بغية بلوغ المقامات الرفيعة تبدأ من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وأنّ العامل الوراثي أحد عوامل تبلور شخصيته الإنسان، وإن لم يكن العامل الفريد، وهنالكَ الكثير الذى يقال بهذا الخصوص ستعرض له فى الأبحاث القادمة على ضوء مناسبة الكلام إن شاء الله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى السائرين على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله الذى بين صفاته فى العبارات السابقة ليشير إلى ضروره تربيته بعض الطوائف فى كلِّ عصر فى ظلِّ تعاليم النَّبى صلى الله عليه وآله وليواصلوا مسيرته، فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا».

إشاره إلى أنّ هذا الطريق لا- يخلو فى أى عصر ومصر من سالكيه ولا- تتوقف خطط الخير والحق والطاعة؛ فهؤلاء من ذوى الإيرادات الصلبة والنيات الطاهره ولذلك شملتهم الطاف الله، العبارة «وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا» ربّما تشير إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام أوصياء النَّبى صلى الله عليه وآله حماه الحق وأمناء طاعه أوامر الله، كما ورد فى الزيارة الجامعة: «وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ».

وما ورد فى الحديث الذى روته مصادر الفريقين: «عَلَى مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ»^(١).

وربّما تشير إلى القرآن وسنّه المعصومين عليهم السلام أو العلماء ولا يبعد جمع هذه التفاسير الثلاثة فى مفهوم العبارة، ثم بشر أولئك السائرين بأنهم ليسوا وحيدين إزاء زخم مشاكل الطاعة وأنّ نصره الله منجزه لهم دائماً، فقال: «وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ^(٢) عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُبَيِّتُ الْأَفئِدَةَ. فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَفٍ».

نعم، فالله لا يترك عباده المؤمنين فينطق ألسنتهم ويرسخ إرادتهم ويقوى

ص: ١٥٣

١- (١) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٧٦؛ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٩٧.

٢- (٢) . الضمير «يقول» يعود إلى «الله» الذى ذكر سابقاً والمعنى أنّ الله يجعل لسانهم ناطقاً ويجرى عليه الخير.

عزائمهم؛ وقد ورد هذا الأمر كراراً في القرآن: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» (١).

وقال في موضع آخر: «يُسَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (٢).

وهذا ما نلتمسه كل يوم في الصلوات اليومية ونسأل الله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (٣).

ص: ١٥٤

١- (١) سورة طه، الآية ٤٦.

٢- (٢) سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

٣- (٣) سورة الفاتحة، الآية ٥.

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمُهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصِلُونَ بِالْوَلَايَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَبَّحُونَ بِكَأْسِ رَوْيِهِ وَيَصِيدُونَ بِرِيئِهِ، لَا تَشْوِبُهُمُ الرَّيْبَةُ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ. عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبُذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤَخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيسُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْحِيسُ.

الشرح والتفسير: حفظه علم الله

تطرق الإمام عليه السلام بعد أن فرغ من ذكر جانب من أبرز صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى السائرين على نهجه أى العلماء والعرفاء وخلص المؤمنين فيبين عشراً من صفاتهم، والحق أن من تحلى بهذه الصفات فهو من أولياء الله وخاصة أتباع النبي صلى الله عليه وآله فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ (١) عِلْمُهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ».

تشير هذه الصفات الثلاث إلى أن هذه الطائفة من عباد الله تمكنوا بتوفيق الله وإلهاماتهم الباطنية من تحصيل العلوم وحرسوا هذه العلوم وبلغوها طالبيها، فهم الحفظه والحارسون والناشرون لتلك العلوم وعلى غرار رى عيون الماء المتدفقه للأراضى العطشى وإنماء مختلف الأشجار والأزهار والنباتات فهم ينشرون الدين فى قلوب عطشى للمعارف ويغرسون فى نفوسهم الفضائل الإنسانية.

ولعل العبارة «يَصُونُونَ مَصُونَهُ» تعنى ما ذكر آنفاً؛ أى أنهم يتحفظون على

العلوم الربانيه عمّن لا- يستحقها، أو بمعنى أنهم صانوا هذه العلوم بأمانه وجهدوا في إيصالها من جيل لآخر من خلال تأليف الكتب ونشرها.

وواصل كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى فقال: «يَتَوَاصَى لُمُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَدَّقُونَ بِكَأْسِ رَوْيِهِ (١) وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّتِهِ (٢)».

فقد أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق إلى الأبعاد العلمية لأولئك العلماء الربانيين وتطرق هنا إلى جوانبهم العلمية؛ وربما كان المراد من «يَتَوَاصَى لُمُونَ بِالْوِلَايَةِ» ولايه الله وأوليائه التي ربطت هذه الفئات مع بعضها؛ أو الولاية بمعنى الحب والمودة التي الفت قلوبهم.

وتشير العبارة «وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ» إلى أنّ هذه المحبّة القلبية تتجلى حين لقائهم بالفعل والقول.

وتشير العبارة الثالثة إلى أنّ جلساتهم مركز تبادل العلوم والمعارف؛ فكلّ منهم يملأ إناء الآخر بعلمه كما ورد في العبارة الرابعة «وَيَصِيءُ دُرُونَ بِرِيَّتِهِ» ثم قال في بيان صفتين أخريين «لَا- تُشَوِّبُهُمُ الرِّيْبَةُ، وَلَا- تُشْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ». ولعل العبارة (ريبه) تشير إلى أنّ مبانيهم العقائديه وإيمانهم على درجة من الرسوخ بحيث لا- يشوبه أدنى شك وارتياب أو أنّ حياتهم نقيه وطاهره بحيث لا يشك أحد في حسن سريرتهم ودقّة أعمالهم كما يمكن أن تشير العبارة «وَلَا تُشْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ» أنّهم لا يتلوثون بالغيبه أو أنّهم على درجة من الطهر بحيث لا يسمح الآخرون لانفسهم باغتيالهم.

طبعاً لا تتنافى هذه التفسيرات المتعدده ويمكن جمعها معاً في مفهوم العبارة السابقة.

ثم قال على سبيل التأكيد: «عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ».

ص: ١٥٦

١- (١) «رَوْيِهِ» صفة مشبّهه من «رِيٍّ» على وزن «حَيٍّ» زوال العطش.

٢- (٢) «بَرِيَّتِهِ» تركيب من الباء الجارّه و «رِيَّة» اسم المصدر من «رِيٍّ» على وزن «حَيٍّ» الرى من العطش.

لا- ينافى هذا التعبير الاختيار فى الأعمال لأنَّ الإنسان إن انطلق مختاراً إلى الله أته الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية، وبغض النظر عن ذلك فإنَّ الله أودع البشريه منذ البدايه أرضيه الصلاح والسعاده لتطوى بها مسيره التكامل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين من صفات أولئك العلماء الربانيين فقال: «فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصُلُونَ».

نعم! حبهم لأحدهم الآخر لله وإرتباطهم ناشىء من علاقتهم المشتركة بالكمالات، أميا المنافع الماديه والصلوات الحيوانيه والاشتراك فى المقامات الدنيويه ليست سبباً قط فى إرتباطهم وحبهم لبعضهم البعض.

ثم بين فى ختام هذه الفقره بتشبيه رائع كيفيه انتخاب هذه الفئه من بين سائر الناس وقال: «فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبِذْرِ يُنْتَقَى (١) ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيسُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْحِيسُ (٢)».

أجل! هؤلاء بذور عالم الخليفه المنتقى الذين اختارهم خالق عالم الوجود للتهذيب والكمال ليجعلهم بهيته شجره طيبه أكلها دائم بتوفيق الله ومدده الغيبى.

وزيده الكلام أنَّ هؤلاء الأعلام الذين يتصفون بهذه الصفات ويطوون مراحل التكامل فى ظل عنايه الله ويزدادون كل يوم قرباً من الله لم يبلغوا هذا المقام عبثاً، فقد جدوا واجتهدوا فى إصلاح أنفسهم وجلاء قلوبهم من صدأ الأهواء وأخلصوا نياتهم واجتازوا الامتحان الإلهى الشاق فبلغوا ذلك المقام، وتلك عاقبه كل من سلك طريقهم.

ص: ١٥٧

١- (١) . «ينتقى» من «النقاوه» بمعنى الطاهر والخالص، وتعنى الاصطفاء والاختيار حين تأتى فى باب افتعال.

٢- (٢) «التمحيص» التطهير والإخلاص وورد بهذا المعنى أيضاً من ماده «محص» على وزن «فحص»، وإن تضمن التمحيص تأكيداً أكثر ولما كان الامتحان سبب التنقيه والتطهير فقد وردت هذه المفرده بمعنى الامتحان.

فَلْيَقْبَلِ امْرُءٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَهُ قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرْ امْرُؤٌ فِي قَصْرِ يَرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمَتَّحَوِّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقِلِهِ. فَطُوبَى لِإِذَى قَلْبِ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرِيدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصِيرٍ مَنْ بَصُرَهُ، وَطَاعَهُ هَادٍ أَمْرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

الشرح والتفسير: المهتدون

خاطب الإمام عليه السلام هنا الجميع داعياً إليهم إلى سلوك سبيل العلماء الربانيين الذين بين صفاتهم في القسم السابق، والواقع أنه استعرض هنا مراحل السير والسلوك إلى الله فقال: «فَلْيَقْبَلِ امْرُءٌ كَرَامَةً (١) بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَهُ (٢) قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرْ امْرُؤٌ فِي قَصْرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمَتَّحَوِّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقِلِهِ».

فالإمام عليه السلام لفت في الخطوه الأولى إنتباه الجميع إلى قصر عمر الدنيا وفناء الحياه

ص: ١٥٩

١- (١). «الكرامه» تعنى فى الأصل الشرف، الشخصيه، المثل، الاحترام والنعمة وما معناها فى العبارة فىرى البعض أنها مفعول به فقال: مفهوم الجملة أنه ينبغي على كل إنسان أن يقبل الكرامه الإلهيه والنعمة بقبول هذه الصفات البارزه، وعليه فالكرامه بمعنى كرامه الله وإشاره إلى نعمه، الاحتمال الآخر «كرامه» من قبيل المفعول له ومفهوم الجملة كل إنسان يقبل هذا الكلام للكرامه والمحبه.

٢- (٢) «قارعه» من ماده «فرع» بمعنى الضرب وقارعه تطلق على الحوادث المهمه والصعبه؛ كالموت والزلال. فأحد أسماء القيامه «القارعه» لأنها تقترب بحوادث صعبه.

وحلول الموت حتى لا يكونوا كأصحاب الدنيا الذين نسوا الآخرة ورأوا الدنيا خالده.

وهذه هي حاله اليقظه التي تمثل المرحله الأولى فى السيرو السلوك إلى الله، وهل من عامل لليقظه أنجع من ذكر الموت وحلول الأجل؟

وواصل كلامه بالإشاره إلى طهاره واصطفاء دليل الطريق فقال: «فَطُوبَى لِيذَى قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُزِدِيهِ (١)».

وبالنتيجه فإنه يظفر بطريق السلامه بمعونه من يبصره وبطاعته للمرشد الهادى الذى يأتمر به فيبلغ الطريق قبل أن تغلق بوجهه أبوابه وتتقطع سبله «وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَهُ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ».

وهكذا يوصى الإمام عليه السلام أتباعه أن يسلكوا الطريق فلا يسيروا عليه دون دليل وهاد فيبلغوا الهدف فى ظل هدايه العلماء الربانيين والسائرين السابقين مادامت الفرصه سانحه وأبواب الهدى مشرعه.

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعوه إلى التوبه وجلاء صدأ الذنب عن القلب والذى يعد الشرط الأصلى لسلوك هذا الطريق فقال: «وَأَسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ (٢)، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ».

يفتح بهذ الطريق مسار القرب إلى الله بوجه الإنسان ويشمل بخاصه لطف الله.

تأمل: الحاجه إلى المرشد فى السير والسلوك

تضمنت هذه الخطبه بعض الإشارات إلى نقطه وهى: هنيئاً لمن اقتفى آثار الهادى وواصل طريقه ببصيره من يبصيره بالطريق وأطاع من يهديه إلى الطريق القويم.

ص: ١٦٠

١- (١) «يردى» من ماده «رذى» على وزن «رعد» بمعنى الهلكه، أو السقوط المقرون بالهلكه و «يردى» (من باب أفعال) يعنى يهلك.

٢- (٢). «حوبه» تعنى فى الأصل الحاجه التى تسوق الإنسان إلى المعصيه، ثم اطلقت على مطلق المعاصى أو الكبائر.

وتثير هذه الخطبه وماورد في أمثالها من «نهج البلاغه» هذا السؤال: هل طى المقامات المعنويه التي يعبر عنها بالسير والسلوك إلى الله تتطلب استاذاً خاصاً طوى هذا الطريق وخبر مطباته وآفاته فيأخذ بأيدي السائرين الجدد ويوصلهم إلى الهدف؟

بعبارة أخرى: هل تكفى التعليمات الكليه التي وردت فى الكتاب والسنة لسلوك هذا الطريق أم أنّ كلّ سالك لهذا الطريق يحاجه إلى استاذ بما يناسب استعداده وروحيته ليعينه فى تشخيص الجزئيات؟ وكما لا تكفى نصائح الاطباء لجميع المرضى، بل يحتاج كلّ مريض إلى فحص وتشخيص للمرض ليصف له العلاج، فهل بلوغ المقامات المعنويه كذلك؟

طبعاً سياق الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه أنّ لجميع المؤمنين من خلال الإتيان بما ورد فى الكتاب والسنة والالتزام بالأحكام الشرعيه والالتفات إلى لطائف هذين المصدرين العظيمين، الوصول إلى ذروه الإيمان والمسارعه إلى القرب الإلهي.

فإننا لا نجد فى سيره صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحاب الأئمه المعصومين عليهم السلام من انتخاب أستاذ خصوصى، حتى الروايات التي وردت كإجابته لسؤال بعض الأفراد مفيده لعامه المؤمنين.

يستدل أنصار انتخاب الأستاذ الخاص أحياناً بهذه الأمور:

١. تشير قصه الخضر وموسى عليهما السلام إلى أنّ الله اصطفى مرشداً لموسى وكان مكلفاً بطاعه أوامره.

٢. ربّما من هذا القبيل قصه موسى وشعيب عليهما السلام.

٣. يلمس مثل ذلك فى قضيه لقمان وابنه.

٤. آيه السؤال فى القرآن المجيد: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (١) تأمر الجهال بطرح مشاكلهم العلميه والفكريه على العلماء.

٥. مضى فى الخطبه ١٠٥ من «نهج البلاغه» أنّ الإمام عليه السلام قال: «أَيُّهَا النَّاسُ

ص: ١٦١

١- (١). سورة الأنبياء، الآية ٧.

اسْتَضْبِحُوا مِنْ شُعْلِهِ مِصْبَاحٍ وَاعْظُوا مِثْلَهُ».

٦. قال الإمام السجّاد عليه السلام: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ وَذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يَعْضُدُهُ» (١).

٧. يمكن أن تكون العبارات الواردة في هذه الخطبه شاهد آخر على هذا المطلب؛ لكن أغلب ما ذكر كدليل على هذا المطلب لا يخلو من مناقشه، فالذى يفهم ممّا ورد في آيات القرآن بشأن موسى والخضر لا علاقة له بهذا المطلب.

فقد أمر موسى عليه السلام بأن يتعلم من الخضر بعض العلوم بخصوص العالم البشرى أو عدم الاعتراض على بعض الحوادث التى يستهجن ظاهرها ومن هنا لما رأى موسى عليه السلام بعض الأمور انفصل عن الخضر وواصل طريقه ولا صله لهذا الأمر بطى المقامات المعنويه والسير والسلوك إلى الله على هدى المرشد.

كما لا يلمس أدنى شىء ممّا ذكر فى القصه، طبعاً لا يمكن إنكار أنّ الإنسان يسعه التعلم ممن لازم النبى وتعلم منه العديد من المطالب والتجارب.

كما يشاهد فى قضيه لقمان وولده سلسله من المواعظ الكليه ذات الطابع العام وقد أوردها القرآن بهذه الصفه.

آيه السؤال أيضاً بخصوص مسأله التقليد والرجوع إلى العلماء والمجتهدين، كما استدلل بذلك فى كتب الأصول، بعبارة أخرى إشاره لبيان الأحكام بصوره كليّه، لا الأحكام الخاصّه والشخصيّه.

وقد اقتصرت الإشاره إلى هذا المطلب فى روايه «البحار» وبعض خطب «نهج البلاغه».

وزبيده الكلام إن أردنا التسليم بانتخاب الاستاذ المرشد كشرط ضرورى فى طى المقامات المعنويه، فإنّ ذلك لا ينسجم مع ظواهر الكتاب والسنة وسيره أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وأئمّه الهدى عليهم السلام؛ ولكن إن أردنا التسليم به كمساعد لطفى هذا الطريق،

ص: ١٦٢

فالأمر يبدو حسناً؛ إلا أنه لا ينبغي الغفلة عن قضيه أساسيه وهى أنّ هذا الموضوع استغل طيله التاريخ وحتى فى هذا الزمان من قبل الطالحين والمنحرفين، وفى بعض الموارد خلط بأفكار المتصوفه وتعاليمهم الشاذه لكى لا تبعد السالك عن مقام القرب فحسب، بل أبعدته عن الله تماماً.

فإن رأى الإنسان حقاً أنه بحاجة لمثل هذا الاستاذ، عليه أن يتشدد فى اختياره خشيه أن يسلم نفسه للشيطان ظاناً أنه الخضر والمرشد إلى الله، وإننا ننصح الجميع لاسيما الشبان الأتقياء الذين يفتشون عن الاستاذ أن يعكفوا بالدرجه الأولى على الكتب الحسنه التى ألفها العلماء الأتقياء الورعون المعروفون ومن ثم اصطفاء الاستاذ الذى ينشدون.

والجدير بالذكر أيضاً ما يراه البعض أنّ الاستاذ ضروره فى بدايه الطريق فإذا ما سار على الدرب فلا حاجه لذلك الاستاذ ولا بدّ من الانفتاح على التعاليم الإسلاميه الوارده فى الكتاب والسنة.

يستفاد من الروايات والتواريخ الإسلاميه أنه كان للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمه المعصومين عليهم السلام أصحاب خاصين حمله أسرارهم كعلى عليه السلام بالنسبه للنبي صلى الله عليه وآله و «كميل» و «الأصغ بن نباته» و «ميثم» و «رشد» الهجرى» وأمثالهم وكذلك سائر الأئمه؛ ولكن لا علاقه لهذا الموضوع بمسأله الاستاذ والتلميذ فى أمر السير والسلوك بحيث يعين الاستاذ كل يوم درساً جديداً لطفى الطريق ويكون لكل تلميذ دروسه الخاصه، بل كما قيل إنّ أولئك كانوا حمله أسرار المعصومين عليهم السلام وعلومهم التى يعجز عن إدراكها الآخرون.

على كلّ حال لا شك فى أنّ وجود الأستاذ الخبير والعالم بالطريق يستفيد منه الإنسان فى طى الطريق المعنوى، الأستاذ الثقة من جميع الجوانب لمن الأمور الحسنه، إلا أنّ الأمر ليس كما يذهب إليه من عدم إمكانه بلوغ هذه المقامات بالكتاب والسنة وما فيهما من تعاليم، والمهم أن يكون للإنسان عزم وإرادته على طى

هذا الطريق وإلّا فالطريق واضح وسالك إن توكل الإنسان على الله فهو هاديه ومرشده.

وتؤكد في الختام ثانيه أنّ هنالك العديد من الطالحين الذين أضلوا الكثير من الشبان بهذه العناوين الزائفة على أنه المرشد والدليل فلا بد من الاحتياط والحذر الشديد في التعامل مع هؤلاء الشياطين الذين يتلبسون بلباس الإنس.

ص: ١٦٤

كَانَ يَدْعُو بِهِ كَثِيرًا (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه الخطبه فى الواقع مركبه من سلسله من الأدعيه العميقه المعنى والقيمه للغاية كان الإمام عليه السلام يدعو بها فى أغلب الأوقات وتتكون من قسمين:

القسم الأول: الحمد والثناء على الله الذى غذانا بهذه النعم المعنويه والماديه ولم يحجبها عنا.

وسأل الإمام عليه السلام الله ثلاثاً من خلال ثلاثه أقسام قصيره وعميقه تشرع كل منها ب «اللهم»، وغالباً ما تنطوى هذه الأدعيه على جانب معنوى، وإن لم تخل من بعض العبارات الماديه، ومن المناسب التضرع بها عقب الصلاه أو القنوت وفى سائر الأوقات التى يقبل فيها الإنسان على الدعاء لينال بركاته وفضله.

ص: ١٦٥

١- (١) سند الخطبه: ورد فى «مصادر نهج البلاغه» أنّ «السيد ابن باقى» معاصر «المحقق الحلى» ذكرها فى كتاب «الاختيار» كما فى «نهج البلاغه» سوى العبارة الأخيره التى رواها بصيغته أخرى وأضاف لها سائر العبارات التى تشير إلى أنه استقاها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه». وسترد إشارات أخرى بمصادر هذا الدعاء فى ذيل الخطبه ٢٢٥.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي، وَلَا مُزْتَدًّا عَن دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسَيِّئًا تَوْحِشًا مِنِّ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِسًا عَقْلِي، وَلَا مُعْدِّبًا بِعِدَابِ الْأُمَّمِ مِن قَبْلِي. أَصِيْبِحْتُ عَيْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخَذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَّقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي.

الشرح والتفسير: اللهم كل شيء لك

هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام ليس خطبه، بل دعاء عميق المعنى جمع فيه جميع خير الدنيا والآخرة.

فقد حمد الله واثني عليه على إنقاذه له من عشره أشياء من شأن كل منها سلب رزق الدنيا والآخرة، فقال في أربعه أقسام منها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي (٢)».

العباره «لَمْ يُضَيِّعْ» إشارة إلى أن الإنسان يمكنه النجاح في حياته حين يكون سليماً نشيطاً منذ تباشير الصباح ولا بد من شكر الله على هذه النعمة.

العباره «وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَقِي بِسُوءٍ» فسرها طائفه من شراح «نهج البلاغه»

ص: ١٦٧

١- (١). «عروق» جمع «عرق» على وزن «حرص» مجارى الدم فى البدن واطلقت على أصل كل شيء وجذره.

٢- (٢) «دابر» تعنى فى الأصل الظهر أو الشخص التابع ومن هنا يطلق على الأولاد والأجيال التى تعقب الإنسان «دابر».

بأنها إشارة إلى الأمراض التي تشوّه شكل الإنسان كالبرص والجذام، وذلك كناية عن هذا المعنى في عرف العرب، بينما فسّر البعض العروق بمعنى الأعضاء وأنّ العبارة إشارة إلى سلامه أعضاء الإنسان التي تعد من أعظم النعم.

وفسّر البعض الآخر العروق بمعناها الأصلي؛ يعنى إشارة إلى أنّ خلوّ العروق من الآفات، من النعم العظمى التي تستحق الحمد والثناء، ونعلم اليوم أنّ أحد الأمراض الشائعة والخطيرة انغلاق عروق القلب والدماغ الذي يعدّ العامل المهم للسكته القلبية والدماغية.

النعمه الأخرى الكبرى هي بقاء نسل الإنسان ووجود الأولاد الصالحين الذين تعود أعمالهم الصالحة على آبائهم وأمهاتهم والتي أشير إليها بالعبارة «وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِيٌّ».

ثم أشار إلى ست نعم أخرى تستحق الحمد والشكر: «وَلَا مُزْتَدًّا عَن دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنِّ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِسًا (١) عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِن قَبْلِي».

ما أكثر أن يشمل الإنسان بدايه أمره بالنعم الربّانية العظيمة لكنّه قد يفقدها في أثناء مواصلته الطريق: وهناك عدد من العبارات المذكوره إشارة إلى تداوم النعم؛ نعمه الدين والإيمان والعقل، وعليه فالشمول بالنعمه يستحق الحمد والثناء وبقاؤها ودوامها كذلك، فالنعم آيله للزوال لولا لطف الله.

العبارة «وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي» بعد العبارة «وَلَا مُزْتَدًّا عَن دِينِي» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

العبارة «وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ...» إشارة إلى العذاب الأليم والشاقّ الذي أصاب بعض الناس كالصاعقه، العواصف الشديده والزلازل العظيمة والآفات العصيبه في بدن الإنسان وروحه.

ص: ١٦٨

١- (١). «ملتبس» من ماده «لبس» على وزن «حبس» بمعنى الخطأ و «ملتبساً عقلي» بمعنى إرتباك الفكر والعقل.

العباره «وَلَا مُسَدِّ تَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي» إشاره إلى أن الإنسان يمتلك الإيمان أحياناً لكنّه يخشى أن يلوّث بالمعاصي أو يخشى من زواله.

تضرع الإمام عليه السلام: أحمدك وأشكرك على إفاضه الإيمان المقرون بالسكينه.

ولما كان أحد أهم مقامات العارفين والمقربين، التسليم لأمر الله والاعتراف بالنقص تضرع الإمام عليه السلام مواصلاً دعاءه: «أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَقِي إِلَّا مَا وَفَّيْتَنِي».

أعظم فخر للإنسان أنه عبد لله كما ورد على لسان الإمام: «إلهي كفي بي عزاً أن أكون لك عبداً»^(١).

والتعبير «ظالماً لِنَفْسِي» إشاره إلى أن الإنسان لا يسعه قط أداء حق العبوديه حيث تضرع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إلهي ما عبدناك حقَّ عبادتك»^(٢) فلا بد أن يكون الآخرون أولى بهذا الاعتراف بالتقصير.

ص: ١٦٩

١- (١) خصال الصدوق، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٣.

اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ!

اللهمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيْعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!

اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعِ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

الشرح والتفسير: النعم المكمله

حمد الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبه، الله وأثنى عليه على ما يغذيه به من نعم كبرى ويتضرع هنا إلى الله ويسأله النعم المكمله لتلك النعم السابقه من خلال ثلاث عبارات استهلها ب «اللهم»: «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ (١) فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ (٢) وَالْأَمْرُ لَكَ!».

فهذه العبارات الأربع التى تعود جميعاً إلى التوحيد الأفعالى تشير إلى أن الغنى والهدى والنصر وغلبه الأعداء وجميع المشاكل ميسره فى ظلّ لطف الله؛ كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ» (٣).

ص: ١٧١

١- (١) «أضام» من «الضيم» على وزن «غيم» بمعنى الظلم والإذلال.

٢- (٢) «أضطهد» من ماده «ضهد» على وزن «مهد» بمعنى قهر و «الاضطهاد» بمعنى التأكيد قى القهر.

٣- (٣) سوره فاطر، الآيه ١٥.

وقال تعالى: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي» (١).

وقال تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ» (٢).

ثم تضرع في الدعاء الثاني وطلب فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَزْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعْمِكَ عِنْدِي!».

«كريمه» تعنى فى الأصل، الشخص القيم والأشياء النفيسة وهى هنا إشاره إلى أعضاء الإنسان المهمه كالعين والأذن واللسان التى تذكر كنعمه إلهيه ووديعه ربائيه لتكون إشاره إلى لطف الله ورحمته وإلى أن النعم ودائع تسترد فى خاتمه المطاف.

على كل حال فمضمون هذا الدعاء ورد بصيغته أخرى فى أدعية سائر المعصومين عليهم السلام؛ جاء فى دعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فى أعمال ليلة النصف من شعبان: «اللَّهُمَّ أَمْتِعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا» (٣).

حقاً إن الإنسان إذا فقد أواخر عمره نعمه قدره الروح والبدن والبصر والسمع فإنما يتحول إلى ميت متحرك تصبح حلاوه شهد الحياه مراره على لسانه بحيث يتمنى الموت والخلاص من هذه الحالة فى كل لحظة.

من البديهي أنه ليس المراد فى هذه الأدعية أن الله يأخذ من الإنسان فى البدايه أواخر عمره، روحه ثم بصره وسمعته، بل المراد أن أعضاءه تبقى سليمة حتى أواخر عمره.

وتضرع فى الدعاء الثالث: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعِ (٤) بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!».

تعوذ الإمام عليه السلام بالله فى هذا الدعاء من ثلاث معاصى ودواهي عظمى:

١. أن ينسى الإنسان أوامر الله ونواهيه ويمر عليها غير مُبالٍ.

ص: ١٧٢

١- (١) سورة الأعراف، الآية ١٧٨.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٤١٣، دعاء ليلة النصف من شعبان.

٤- (٤) «تتابع» من ماده «تتابع» (مصدر باب تفاعل) بمعنى الحمل بسرعه نحو الشىء.

٢. أن تتسلل وساوس الشيطان إلى قلب الإنسان فتصدده عن الحقّ.

٣. أن تستولى أهواء النفس على الإنسان فتصدده عن هدى الله.

يقيناً، لو استجيبت هذه الأدعية الثلاث التي تبدأ ب (اللهم) لنال الإنسان جميع خير الدنيا وسعاده الآخرة فما أحرانا أن نستحضر هذه الأدعية فإذا شعرنا بحاله الدعاء أقبلنا على الله وطلبنا منه ذلك.

أورد الإمام عليه السلام الكلام في القسم الأوّل والثاني من هذا الدعاء، بصيغه المتكلم؛ لكنّه ذكره في القسم الأخير بصيغه المتكلم مع الغير ليسأل الله صالحه وصالح جميع المسلمين.

ص: ١٧٣

خَطْبُهَا بِصِفَيْنِ (١)

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من خطب «نهج البلاغه» المهمّة التي أوردّها الإمام عليه السلام في يوم صفين، فاشتملت على مباحث مهمّة تتمحور في أربعة أقسام:

١. الحقوق المتبادله بين الوالى والرعيه (الحاكم والشعب) تناول فيه القانون الكلى بشأن الحقوق فقال: الحق دائماً ذو حدين؛ فمن كان له حق على آخر فلآخر أيضاً حق عليه، وهذه مسأله مهمّة ستعرض لها إن شاء الله.

٢. شرح في القسم الثانى حقوق الحاكم على الأئمة وحقوق الأئمة على الحاكم وأكّده هنا استحاله صلاح الأئمة دون صلاح الحاكم، والعكس، أى كلّ من هذين الأمرين يؤثر في الآخر.

٣. القسم الثالث إجابة الإمام عليه السلام لأحد أصحابه حيث أثنى كثيراً على الإمام

ص: ١٧٥

١- (١) سند الخطبه: ورد في «مصادر نهج البلاغه» ذيل هذه الخطبه رواها قبل السيد الرضى المرحوم الكليني في «روضه الكافي»: ج ٨ ص ٣٥٢ عن الإمام الباقر عليه السلام. وما ورد في «الكافي» أكثر ممّا ورد في «نهج البلاغه» وتختلف بعض عباراته عمّا في «نهج البلاغه» دون تغيير في المعنى (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٢٩).

وعبر له عن وفائه التام، فتواضع الإمام للغايه فى الردّ عليه وصرّح له: بأننى لا استسيغ أى مدح وثناء فالعظمه لله وحده.

٤. جرى الكلام فى القسم الرابع عن العلاقه الصحيحه بين الحاكم والشعب وأكد على ضروره ابتعاد الحاكم عن التملق، والاستعداد لسماع النقد والمعارضه لينطلق المجتمع نحو الصلاح والسداد.

ص: ١٧٦

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِلَوْلَايِهِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعِدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُلًا مِنْهُ، وَتَوْسَعًا بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

الشرح والتفسير: سعه حجم الحقوق

دعا الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبه جميع صحبه إلى أداء وظائفهم من خلال بيان حقه على الأمة فقال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِلَوْلَايِهِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ».

فقد أشار عليه السلام إلى قضيه مهمه في باب الحكومه الإسلاميه كانت تختلف في الواقع عن جميع الحكومات آنذاك، فالحكومات المستبده كانت ترى كل شىء لها والرعيه كالعبيد ما عليهم إلا الطاعه العمياء وإن كان لها من شىء فهو منه وبالتفضل وليس حقاً من حقوقهم عليه، بينما يصرح الإمام عليه السلام، بأن الحكومه الإسلاميه حقوق متبادله؛ حق الحاكم على الأمة وحق الأمة على الحاكم وكلاهما ثقيل وذو مسؤوليته.

ثم أشار إلى قاعده كلييه وشامله في الثقافه الإسلاميه فقال: «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ (١) ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ (٢) ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ».

حيث أشار عليه السلام في الواقع إلى أمرين:

الأول: أنّ الجميع عارفون بالحقّ وكل يتحدّث عنه ويتشدد به لحفظ مصالحه، بينما تراه في غايه التشدد حين العمل لأداء حقوق الآخرين، وكأنّه يرى الحق أحادي الجانب.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في الأمر الثاني إلى هذا الأمر الأساسي وهو ليس هنالك من حق أحادي الجانب في أي مورد؛ فإن كان لأحد حق، كان عليه مثله؛ مثلاً، للأستاذ حق على تلميذه، كونه علمه ورباه، وللتلميذ قطعاً حق على أستاذه، فعليه أن لا يألو جهداً في تعليمه وتربيته، كونه وضع فكره وعمره وشبابه تحت تصرفه، وإن كان للدائن حق على المدين في ضروره أداء الدين في وقته، فإنّ للمدين حقاً متبادلاً في أن يمهل إن تعذر عليه التسديد في الوقت المطلوب «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» (٣).

وإن كان للرجال حقوق على النساء، فللنساء مثل ذلك على أزواجهنّ: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ» (٤).

بل للأبناء عليهما حقوق كثيره، كما أنّ للأبناء حقوقاً على الآباء والأمهات، ومن أراد الوقوف على سعه الحقوق المتبادله للناس على بعضهم فليراجع رساله الحقوق

ص: ١٧٨

١- (١). «تواصف» من ماده «وصف» بمعنى أنّ بعض الأشياء وصف لبعضها الآخر. وتعني في الخطبه أنّ الناس في الكلام كلّ يؤدى بشأن الحق.

٢- (٢) «تناصف» من ماده «نصف» على وزن «هدف» وعلى وزن «حرص» الانصاف ومعنى «تناصف» أنّ كلّ شخص يراعى الانصاف بحق الآخر.

٣- (٣) سورة البقره، الآيه ٢٨٠.

٤- (٤) سورة البقره، الآيه ٢٢٨.

للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام (١)، حتى الحيوان له حق على الإنسان إن كان مملوكه (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى حق الله على العباد حتى أنّ هذا الحق ليس أحاديّاً، وإن كانت عبارته حق العباد على الله ليست مناسبة من جوانب؛ إلماً أنّ هذا الحق يبدو بلباس التفضل: «وَلَوْ كَانَ لِأَخِي أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ».

فالكلام إشارته إلى أنّ قدره الله تقتضى من جانب أن لا يترك عباده ويلطف بهم من جميع الجهات وتقتضى عدالته من جانب آخر أن لا يصيب الإنسان أدنى ظلم، سواء فى عالم التشريع أم عالم التكوين، وعليه فهنالكَ فارق بين الله وعباده؛ فلعل العباد يفرطون بحقوق الآخرين إثر عجزهم أو الحاجات التى تضطرهم لهجر العدالة، لكن كيف يرضى القادر المطلق والعاقل على الاطلاق بضياع حقوق عباده؟! ومن هنا يمكن استثناء الحق المتبادل بشأن الله واقتصار الحق عليه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُلاً مِنْهُ، وَتَوْسَعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ».

وبعبارة أخرى أنّ الله جعل لعباده حقاً عليه إزاء حقه عليهم، وإن كان هذا الحق تفضّل دون أن يكون لعباده دين عليه، كونهم لا يؤدون جزءاً من شكره مهما أطاعوه وعبدوه إزاء ما غمرهم به من نعم، ومن هنا لم يستثن حتى الله تعالى من هذا الأمر؛ أى كما له تعالى حق على العباد فهم كذلك لهم حق عليه، وإن كان هذا الحق من باب التفضل، لا الاستحقاق.

ص: ١٧٩

١- (١). أورد المرحوم العلامة المجلسى رساله الحقوق للإمام السجاد عليه السلام فى بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٠.
٢- (٢) ورد فى كتاب الحج من «وسائل الشيعة»، باب تحت عنوان «حقوق الدابة الواجبه والمندوبه» وهو مهم للغاية وأشير لهذا المعنى فى الخطبه ١٦٧.

ورد هذا البحث لدى علماء الكلام منذ القدم، هل الثواب الإلهي استحقاق أم تفضّل؟ بمعنى إن أطاع العباد أوامر الله فهل على الله إثابته، وإلّا كان ذلك قبيحاً عليه؟ أم ليس للعباد أى شىء على الله إن إمتثلوا أوامره وتركوا نواهيه، وإن أثابهم فمن باب اللطف والرحمه، وإلّا كان عين العدل؟

قال بعض المتكلمين الذين يميلون لمذهب الأشاعره بالتفضّل بينما ذهب مذهب الاعتزال للقول بالاستحقاق.

يرى القائلون بالاستحقاق أنّ إلزام العباد بالطاعة يتضمن مشقّات، فإن كان الإلزام هدفاً فهو ظلم وقبيح ولا يصدر من الحكيم، وإن كان له هدف فليس ذلك الهدف سوى الثواب الجميل، وعليه إن لم يعط الله الثواب استلزم القبح المحال على الله، أمّا القائلون بالتفضّل فيقولون: إنّ الله غمرنا بالنعم لو فنيّا أعمارنا فى طاعته لم نؤد شكر جزء من نعمه، وعليه فلا نستحق منه شيئاً ليلزم بإعطائه.

إلّا أنّ المذهبين كأنّهما غفلاً نقطه الالتفات إليها يكشف النقاب عن هذه المسأله ويجلى الحق، وهى أنّ استحقاق الثواب حين يقدم أحد خدمه لآخر فيتوقع عليها الأجر والثواب، بعبارة أخرى، قال المذهبان بالثواب أو ما يشبهه على طاعه أوامر الله؛ فالمذهب الأوّل يقول: إنّهم تلقوا أجرهم من قبل بصيغه نعم إلهيه، والثانى يرى أنّهم لا بدّ أن يحصلوا عليه لاحقاً.

والحال نعلم أنّ لجميع الأوامر والنواهى مصالح تعود لنفس المكلفين، فالصوم والصلاه والحج والجهاد سبب صفاء الروح وتكامل النفس والعزّه والرفعه وترك الذنب والغيبه والخمر والقمار ينقذهم من المفاسد والانحرافات، وعلى هذا الأساس فإنّ المكلفين إنّما يخدمون أنفسهم فى الطاعه وترك المعصيه، فهل لهم أن يروا لأنفسهم أجراً على الله إزاء خدمتهم لأنفسهم؟!!

يبدو الأمر أشبه بالطبيب الرؤوف بمريضه فينصحه مجاناً ويزوده بالدواء فيلتزم بها المريض ويشفى من مرضه، فلو ذهب هذا المريض إلى الطبيب وطالبه بالأجر على طاعته لأوامره، ألا يتعجب منه الجميع ويضحكون عليه؟

وجميع الأوامر والنواهي كذلك، فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيب دوار بطنه وكل ما ذكره لصالح المكلفين، وعليه فلا مجال لبحث قضيه ثواب الناس إزاء الطاعة سواء استحقاقاً أم تفضلاً.

نعم كتب الله على نفسه الثواب ووعد به بلطفه وكرمه وحشاً لعباده على طاعته التي توجب كما لهم والله لا يخلف وعده لاستحاله خلف الوعد على الحكيم القادر والعالم، قال تعالى: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ» (١).

وقال أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» (٢).

ص: ١٨١

١- (١) سورة الأنعام، الآية ١٢، وورد هذا التعبير في الآية ٥٤ مع اضافته كلمه «رَبِّكُمْ».

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ٩.

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا افْتَرَضَ هَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَنَكَّافًا فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُسَبِّحُ بِتَوْجِبِ بَعْضِهَا إِلَّا بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِيِ عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِيِ، فَرِيضَةُ فَرَضِهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِيِ حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِيِ إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَزَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِيِ بِرِعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَ الْإِمِّ الْجَوْرُ، وَكَثُرَ الْأَذْعَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعَمِلَ بِالْهَوَى، وَعَطَلَتْ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عَطَلٍ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلِ فِعْلٍ! فَهُنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعَزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبَعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ.

الشرح والتفسير: حق الوالى والرعيه

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق إلى حق الله على الناس وتطرق هنا إلى حق الناس على بعضهم وأهمها حق الوالى على الأمة وحق الأمة على الوالى فقال: «ثُمَّ

جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام اعتبر حقّ الناس على بعضهم فرعاً من حقّ الله على الناس وناشئ من حقوقه، وبعبارة أخرى فإنّ حقّ الله وحقّ الناس ليسا في عرض بعضهما، بل في طول بعضهما.

ثم قال: «فَجَعَلَهَا تَنكَافُؤًا (١) فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُسْتَوْجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ».

بعبارة أخرى لا- حقّ أحادي الجانب من هذه الحقوق، بل هي ثنائية جميعاً كما ورد في القسم السابق، فإن كان لأحد حقّ على الآخر كان هناك حقّ لذلك الآخر عليه، وعليه فهذه الحقوق متساوية ومتلازمة؛ ليس بمعنى إن لم يلتزم أحد بوظيفته كان على الآخر عدم الالتزام بها؛ مثلاً، لو لم يقيم الولد بطاعه والده يتمرد الأب على تربيته وأداء نفقته، أو إن لم تعمل طائفته من الرعيه بوظيفتها يقطع الوالى عنها الخدمات، بعبارة أخرى، أنّ هذه من قبيل اللانزوم والملزوم في مقام الوجوب، لا- في مقام التحقق والعمل؛ أى كلاهما واجب، سواء عمل الطرف المقابل بوظيفته أم لا.

ولمزيد من الإيضاح إليك هذا المثل، إن أدت الرعيه ما عليها من ضرائب وخراج سوف لن يتقاعس الوالى عن وظيفته في توفير الأمن لهم وتعليم وتربيته أولادهم ومعالجه مرضاهم وجرحاهم، لأنّ كلاً من هاتين الوظيفتين مستقله وليست مشروطه بالأخرى في مقام العمل، وإن تشابكتا كوجوبين في مقام التشريع.

وقال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانُهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ (٢)، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ».

ص: ١٨٤

١- (١). «تتكافأ» يعنى تتساوى من ماده «كفؤ» على وزن «كفر» التساوى فى المقام والمنزله والقدر، ثم اطلقت على كلّ شبيه ومثيل.

٢- (٢). «رعيّته» من ماده «رعى» على وزن «سعى» بمعنى الحفظ والمراقبه والمراعاة. ومنه «الراعى» لأنّه يحفظ الماشيه ويقال للحاكم «راعى» لأنّه يرمى الناس ويطلق على الناس «رعيه» لأنّهم تحت رعايه وحفظ الحكومه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في فلسفه هذين الحقيين فقال: «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِأَلْفَتِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ».

فرعايه هذه الحقوق لها فى الواقع آثار مادية مهمه ومعنويه فالعباره «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ» إشاره لآثارها المادية والظاهرية والعباره «عِزًّا لِأَلْفَتِهِمْ» لآثارها المعنويه والروحيه، وإلى هذه الحقيقه أشارت العبارتان بعدها إلى صلاح الرعيه والوالى وفسادهما تداخلا مع بعضهما ولكل منها أثره على الآخر، فالوالى الفاسد يسوق الرعيه إلى الفساد والرعيه الصالحه تضطر الوالى لقبول الحق والعدل، وإن صلحا معاً توفرت أفضل الظروف لرقى المجتمع وتطوره.

ثم خاض فى الآثار السلبيه لتقاعس الطرفين فى أداء الحقوق، بعباره أوضح وأبلغ عدّد هذه الآثار الواحد تلو الآخر فقال: «فَإِذَا أَذَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَدْلَالِهَا (١) السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَبَيَّسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ».

فقد بين الإمام عليه السلام هنا سبعة آثار مهمه لأداء الحقوق المتبادل بين الوالى والرعيه؛ أولها: العزّه والاقتدار، وثانيها: قيام مناهج الدين وضعف البدع، وثالثها: ارتفاع رايه العدل فى البلاد الإسلاميه، ورابعها: إحياء السنّه، وخامسها: كنتيجه لما سبق، صلاح الوسط الاجتماعى، وسادسها: الطمع فى بقاء الحكومه ودوامها، وسابعها: يأس الأعداء، وقد اتضح هذا الأمر على عهد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث كان أعظم مؤد لحقوق الأمه وكانت أغلبيتها الساحقه تؤدى حق الطاعه فبدت واضحه تلك الآثار السبعه.

ص: ١٨٥

١- (١). «اذلال» جمع «ذلّ» على وزن «ظلّ» بمعنى جاده محكمه ومستقيمه وبسبب كثره المرور عليه أصبحت قويه، وأصل هذه الكلمه مأخوذه من «ذلت».

وأما في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وإن احييت السنن الإسلاميه والعدل والقسط إلى حد معين، غير أن الانحرافات التي حدثت عقب وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيله ٣٥ سنه الواحد تلو الآخر والتي أدت في الختام إلى الخروج على حكومه عثمان، وبالتالي قتله، جعلت من المتعذر إعادته المسيره لما كانت عليه خلال المدّه القليله لحكومه الإمام على عليه السلام وبقاء العناصر الخطيره من الحكومات السابقه كمعاويه وبنى أميه وبنى مروان، الحقيقه التي يعترف بها كل من تمعن بهذه الحقيقه من التاريخ الإسلامي دون تعصب وباستطاعه المسلمين اليوم الظفر بعزتهم واقتدارهم بالاستلهاهم من كلمات الإمام عليه السلام وانسجام الولاه والرعايا والحكام والشعوب.

ثم تناول الإمام عليه السلام الآثار السيئه لتقاعس الوالى والرعيه عن حقوق بعضها البعض وقال: «وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالرِّبَا، أَوْ أَجْحَفَ (١) الْوَالِي بَرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَاكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَ الْبُحُورِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ (٢) فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ (٣) السُّنَنِ، فَعَمِلَ بِالْهَوَى، وَعُظِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النَّفُوسِ».

فبين الإمام عليه السلام أيضاً سبع مفاسد لعدم الانسجام بين الحاكم والشعب والذي لمسناه كراراً في حكومات الجور؛ اختلاف الكلمه، الظلم والجور، البدعه والخذاع، ترك المنهاج الواضح، العمل بالأهواء والاستبداد، ثم تطرق اثر ذلك إلى النتيجة النهائيه لهذه الأوضاع المؤسفه فقال: «فَلَا يُشِيءُ تَوْحَشُ لِعَظِيمٍ حَتَّى عَطَّلَ، وَلَا لِعَظِيمٍ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهَنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعَزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبَعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ».

فهذه الأمور الخمسه نتيجه مباشره وغير مباشره لحكومات الجور، فالناس في ظل هذه البيئه يعتادون على إبطال الحقوق ولا يكثر ثون لرواج الباطل فتصبح هذه

ص: ١٨٤

- ١- (١). «اجحف» من «الإجحاف» هضم حقوق الآخرين ومادته الأصليه «جحف» على وزن «محو» بمعنى إزاله الشىء.
- ٢- (٢). «ادغال» إدخال ما يفسد الشىء. من ماده «دغل» على وزن «دخل» الدخول فى مكان خفيه لاغفال الصيد.
- ٣- (٣) «محاج» جمع «محجه» الجاده الواضحه والسويه من «الحج» بمعنى القصد فالإنسان يقصد دائماً الطريق الواضح.

الأمر قضايا عاديه لمسنا نماذجها طيله التاريخ وفي عصرنا، فمن الطبيعي أن لا يشق طريقه صوت الأخيار والأطهار الذين يتبنون الحق ويناهضون الباطل وينحون من الميدان، وبالعكس تكون المناصب الحساسه بيد الأشرار والملوثين المسيرين لذلك الجوء، الأمر الذى حدث على عهد حكومه الخليفه الثالث؛ فنفى أبوذر وتسلسل مروان وواصل أمثال معاويه ذلك الطريق فقتل من على شاكلة عمار حتى بلغ الأمر يزيد وابن زياد فقتلا أظهر نسل النبي صلى الله عليه و آله وصحبه.

ومن البديهى أن يمسك الله لطفه فى هذه الظروف عن الرعيه وواليتها ويؤاخذهم بتبعات أعمالهم.

ص: ١٨٧

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّصَاحِحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَتِهِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ، وَافْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: ضرورة التعاون في أداء الحقوق

دعا الإمام عليه السلام هنا الجميع بما فيهم الوالي والرعيه لما فرغ من الوصيه بشأن حق الوالي والرعيه بالتعاون مع بعض، ثم أشار إلى ثلاثه أمور اجتماعيه مهمه فقال في القسم الأول: «فَعَلَيْكُمْ بِالتَّصَاحِحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ».

ثم أتجه صوب الأمور الثلاثه المهمه فقال بادئ الأمر - بغيه عدم اغترار الأفراد وأن لا يظنوا أنهم أتوا بوظيفتهم بهذا الخصوص بأحسن وجه ويتوقفوا بالنتيجه عن الحركة - «فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَتِهِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ».

وهذا أصل كلّي أنّ الإنسان إن رضى تماماً عن عمله ولم ير فيه نقصاً وخللاً،

كفَّ عن الحركة وتعثرت مسيرته نحو الكمال، والأمر كذلك فليس للسمو والتكامل وجلب رضى الله من حدود ليقنع بها الإنسان، فلا بدَّ من الاعتراف بالتقصير دائماً وبذل الجهد على الدوام، وعليه فليس هنالك من يستغنى عن وعظ الآخرين، لأنَّ النقص والتقصير يبدو أظهر للآخرين، بينما يحول حبَّ الذات دون رؤيته.

ورد في حيث مفضِّل عن الزهرى، قال: «دخلت مع على بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني على بن الحسين عليه السلام فقال: يا أبا محمَّد لقد بين عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى وأنت بضعه من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب... وأقبل يثنى عليه ويطريه، قال: فقال على بن الحسين عليه السلام: كلُّ ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم...؟ كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى تورم قدماه، ويظماً في الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له: يا رسول الله! ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً..»

والله لو تقطعت أعضائي وسالت مقلتي على صدرى لن أقوم لله جلَّ جلاله بشكر عشر العشر من نعمه واحده من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون، ولا يبلغ حدَّ نعمه منها في جميع حمد الحامدين»^(١).

ثم قال في بيان ذانك الأمرين: «وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزَلَتُهُ، وَتَقَدَّمتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النَّفْسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ^(٢) الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ».

إشاره إلى ضروره إدراك الجميع لهذه الحقيقه أن ليس أحد من الأقوياء ولا الضعفاء فى المجتمع غنى عن الآخر، فالله لم يودع شخصاً كلَّ شىء، فقد جعل فى

ص: ١٩٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٦، ح ١٠.

٢- (٢) «اقتحمت» من «الإقحام» الإخفاء أو الدخول فى عمل دون تروُّ وتعنى الاحتقار والازدراء ومادته «قحم» على وزن «فهم».

كُلُّ رَأْسٍ فِكْرًا وَفِي كُلِّ بَدَنٍ قُوَّةٌ وَقَدْرُهُ؛ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، وَعَلَيْهِ فَلَيْسَ لِمَنْ كَانَ مُقْتَدِرًا مِنْ حَيْثُ الْفِكْرُ وَالْإِدَارَةُ وَالْقُوَّةُ الْبَدَنِيَّةُ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ غَتِيًّا عَنْ عَوْنِ أَوْ أَعْضَفِ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ، كَمَا لَا يَنْبَغِي لِلْأَفْرَادِ الضَّعْفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ ظَاهِرِيًّا أَنْ يَتَصَوَّرُوا أَنَّ لَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ دَوْرٌ فِي إِدَارَةِ شُؤْنِ الْمَجْتَمَعِ.

رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: «غَرِيْبَانِ: كَلِمَةُ حِكْمَةٍ مِنْ سَفِيهِ فَاقْبَلُوهَا وَكَلِمَةُ سَفَهٍ مِنْ حَكِيمٍ فَاعْفُرُوهَا فَإِنَّهُ لَا حَكِيمٍ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ وَلَا سَفِيهِ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ» (١).

والتاريخ يحتفظ في ذاكرته بالعديد من مثل هذه الحوادث منها ماورد في المعتصم:

لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه، وبلغه أن امرأة هاشميه صاحت وهي اسيره في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجبتها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، ونهض من ساعته وصاح في قصره:

النفير النفير، وبلغه أن عموريه عين النصرانيه وأشرف عندهم من القسطنطينيه، فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك، وفرق عساكر ثلاث فرق، فخرّبوا البلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى فانوريه، ثم اجتمعوا في عموريه وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غايه الحصانه.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه المسمى بالمسامره فتح عموريه فقال: فتحها المعتصم في رمضان سنه ثلاث وعشرين ومائتين، وسبب فتحها أن رجلاً وقف على المعتصم فقال: يا أمير المؤمنين كنت بعموريه وجاريه من أحسن النساء أسيره قد لطمها عالج على وجهها، فنادت: وامعتصماه، فقال العالج: وما يقدر عليه المعتصم يجيء على أبلق ينصررك! وزاد في ضربها، فقال المعتصم: وفي

ص: ١٩١

أىّ جهه عموريه، فقال له: الرجل هكذا، وأشار إلى جهتها، فردّ المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك أيتها الجارية، لبيك هذا المعتصم بالله أجابك، ثمّ تجهز إليها فى اثنى عشر ألف فرس أبلق وفى هذه التلبيه يقول له فى قصيده أبو تمام حبيب الطائي:

لَبِيْتُ صَوْتًا رَطْبِيًّا قَدْ هَرَقْتَ لَهْكَاسَ الْكُرَى وَرَضَابَ الْحَرْدِ الْعَرَبِ

فلما حاصرها وطال مقامه عليها، جمع المنجّمين، فقالوا له: إنا نرى أنّك ما تفتحها إلّا فى زمان نضج العنب والتين، فبعد عليه ذلك واغتمّ لذلك، فخرج ليله متجسّساً فى العسكر يسمع ما يقول الناس، فمرّ بخيمه حدّاد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة بضرب نعال الخيل ويقول: فى رأس المعتصم، فقال له معلمه: اتركنا من هذا، مالك والمعتصم فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة على قوّته ولا يفتحها، لو أعطانى الأمر ما بتّ غداً إلا فيها، فتعجّب المعتصم ممّا سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكّلاً بالغلام، فلما أصبح جاءوا به فقال: ما حملك يا هذا على ما بلغنى عنك؟

فقال: الذى بلغك حقّ، ولكن ما وراء خبائك، وقد فتح الله عموريه فقال: قد وليتكم، وخلع عليه وقدمه على الحرب، فجمع الرماه، واختار منهم أهل الإصابه وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفى البدن من أوّله إلى آخره خطّ أسود من خشب، عرضه ثلاثه أشبار أو أكثر، فحمى السهام بالنار وقال للرماه: من أخطأ منكم ذلك الخطّ الأسود ضربت عنقه، وإذا بذلك الخطّ خشب ساج، فعند ما حصلت فيه السهام المحميّه قامت النار فيه واحترق، فنزل البدن كما هو، وتحامى الرجال، ودخل البلد بالسيف، وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجّمون، وفى ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائي فى قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتح عموريه:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

تأمل: الحكومات الشعبيه

كثير الكلام فى عالمنا المعاصر عن الحكومات الجماهيريه؛ لكنها غالباً ما تنتهى إلى دكتاتوريات مرثيه وغير مرثيه تقتصر على حفظ مصالح الأقوياء والغاصبين، كونها تفتقر إلى العنصر المعنوى والورع السياسى.

وقلنا غير مرثيه، كون الطغاه يستعينون بالوسائل الاجتماعيه المتطوره وأبواق الدعايه فى غسل أدمغه الجماهير ويصادرون آراءهم بوعودهم المعسوله، والنموذج الواضح فى عصرنا: الديمقراطيه الأمريكيه

أضف إلى ذلك فإنّ آراء هذه الحكومات فى أفضل صوره حكومه النصف زائد واحد ونتيجه ذلك الاصطفاف بين الطبقة الحاكمه والنصف ناقص واحد، وقد رأينا فى عصرنا مراراً الحكومات التى تتسلم الحكم من خلال آراء الشعب وحيث لم يعملوا لصالح الجبابره فقد سعوا بشتى الوسائل لإسقاطهم، فنجحوا فى أغلب الحالات، وكلّ ذلك كونهم يفتقرون فى حكومتهم الماديه للغايه للشرط الأساس المتمثل بالعنصر الروحى، وعدم شعورهم بالمسؤوليه أمام الله.

وما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه يشير إلى سياده الشعب بأحسن صورها، فقد تطرق بادئ الأمر إلى العنصر المعنوى للحكومه وذكّر الجميع أنّكم تغرقون بنعم الله بحيث لا يسعكم شكر عشر أعشارها مهما اجتهدتم فى طاعته

ثم يوصى الحكام أنكم لا تستغنون عن مساعده كل فرد في المجتمع

ص: ١٩٢

مهما بلغت من القوه والعلم والتجربه والفطنه، فلا بدّ لكم من إشراك الجميع والاستعان بهم.

ثمّ ذكر الجماهير بعدم اعتزال المساهمه في إداره شؤون المجتمع كيفما كانت أعمارهم ومستوى علومهم، فلا بدّ من تضافر الجهود والتركيز على عنصر التقوى في تشكيل الحكومه المرضيه لله والمجتمع (1).

ص: ١٩٤

١- (١) تمرّ علينا حين كتابه هذه السطور حادثتان مهمتان هزتا العالم الإسلامى: الأولى: حادثه الإهانه الأليمه للنبي صلى الله عليه وآله بتلك الصور المستهجنه التى عكستها أجهزه الإعلام الغربيه والتى انطلقت من الدانمارك لتعم أكثر البلدان الأوربيه وموجه استنكار المسلمين التى عمّت العالم وقاطعوا بضائع تلك الدول حتى اضطروا للتراجع ودخلوا مرحله الاعتذار. أمّا الحادثه الثانيه فكانت الجريمه التى انتهكت حرمة ضريح العسكرين عليهما السلام حيث استيقظ المسلمون يوم الأربعاء عام ٢٠٠٦ ليروا أيادى الاستعمار والاستكبار والعملاء الرعاع قد أحالوا الضريح إلى ركام من التراب من خلال خطه مدبره مسبقاً، فأجج مشاعر العالم الإسلامى برمته دون الاقتصار على الشيعه، مستنكره تلك الجريمه التى سعت لبث الفرقة بين المسلمين وإثاره الحرب الأهليه، جدير ذكره أنّ كلّ هذه الأمور كانت تهدف إلى مواجهه الحكومات الشيعيه التى تسلمت الأمور فى العراق وفلسطين. «اللهمّ فرّق جمعهم وشئت شملهم وخذهم أخذ عزيز مقتدر».

فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكْتَبَرُ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، وَيَذْكَرُ سَمْعُهُ وَطَاعَتُهُ لَهُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصِيرَ عُرْ عِنْدَهُ لِعَظْمِ ذَلِكَ كُلِّ مَاسِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظَّمَتْ نِعْمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَهُ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَرْدَادَ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظْمًا. وَإِنَّ مِنْ أَسِيخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاهِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ يَكُونَ جَالٌ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحَبُّ الْأَطْرَاءِ، وَاسْتِمَاعِ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنِ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظْمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ. وَرُبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعِيدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا.

الشرح والتفسير: الشكر على الواجب

لما بلغ الإمام عليه السلام العبارة الأخير من القسم السابق «فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكْتَبَرُ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، وَيَذْكَرُ سَمْعُهُ وَطَاعَتُهُ لَهُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:».

لم يذكر شراح نهج البلاغه من كان ذلك الشخص، إلا أن المرحوم الكليني ذكر في «الكافي» كلاماً طويلاً بين أمير المؤمنين عليه السلام وذلك الرجل، ثم قال: ولم يشاهد

أحد ذلك الرجل بعد ذلك الكلام(١).

ومن هنا احتمال المرحوم الكليني أنّ ذلك الرجل هو الخضر عليه السلام الذي كان يرد في بعض المواقع الحساسه على الإمام عليه السلام فيؤدى وظيفته ثم يختفى عن العيون:

على كلّ حال حسب روايه «الكافي» فإن ذلك الرجل قال:

«أنت أميرنا ونحن رعيتك، بك أخرجنا الله عزّ وجلّ من الذلّ وإعزازك أطلق عباده من الغل، فاختر علينا وأمض اختيارك واثمراً فأمض ائتمارك فإنك القائل المصدّق والحاكم الموقّ والملك المخوّل لا نستحلّ في شيء معصيتك ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرک ويجلّ عنه في أنفسنا فضلك».

فردّ عليه الإمام عليه السلام فأستأنف مدحه وثناءه وتكررت هذه القضية مراراً ثم اختفى الرجل(٢).

على كلّ حال ما ورد في «نهج البلاغه» أنّ الإمام عليه السلام أجابه: «إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ».

يبدو واضحاً تماماً هذا المعنى من خلال الالتفات إلى أنّ ذات الله وجود مطلق من جهه ولا متناهى من حيث العلم والقدرة وكل ما سوى الله، قطره إزاء بحر عظيم متلاطم، كما ورد ذلك في خطبه همام في صفات المتقين: «عَظَمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ». فمن تطلع لقرص الشمس كان ضوء الشمعه لا شيء بنظره.

ثم أضاف عليه السلام: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أزدَادَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظَمًا». هذا الكلام في الواقع جواب على مديح ذلك الرجل المحبّ للمولى عليه السلام، أى لا تظن أنّ

ص: ١٩٤

١- (١) الكافي، ج ٨، ص ٣٥٥.

٢- (٢) المصدر السابق.

كلامك يسوقني للكبر والغرور، فأولاً: أنا عرفت الله بعظمته وما سواه صغير حقير بنظري. وثانياً: أنا مشمول بنعم جمه وعلّي أن أخضع أكثر من الآخرين لولى نعمتى.

وقال مكماً ومؤكداً هذا الكلام: «وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ (١) حَالَاتِ الْوُلَاهِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالٌ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحِبُّ الْإِطْرَاءَ (٢)، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ».

صحيح أنه طبق بعض الاحتمالات كان ذلك المادح هو الخضر عليه السلام ولم ينطق سوى بالحق وما أورده كان فى الإمام، بل أكثر من ذلك، إلّا أنّ الإمام أشار إلى أمر ضرورى وهو أننى لا استحسن حتى الثناء بالحق فلعله يخلق انطباعات لدى السامع فيظن أنه يحب هذا الكلام ويتصف بالكبر والفخر والعجب الذى يؤثر سلباً على علاقته بالإمام بالأئمه.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوْ كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكِ لَمَرَّكَتُهُ انْحِطَاطاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظْمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ».

«وَرَبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبُلَاءِ، فَلَا تُثَنُّوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابَدٍ مِنْ إِمْضَائِهَا».

ورد فى النسخه الموجوده فى المتن المذكور «وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ» إشاره إلى تقوى الإمام عليه السلام وخشيته فى أداء حقوق الناس، بينما ورد فى بعض نسخ «نهج البلاغه» ومتن «الكافى» «بقية» ومعنى ذلك، ما زالت لكم على بقية حقوق لابد أن أجد فى أدائها، فقد أبان الإمام عليه السلام فى هذه العبارة غايه رفعته، حيث بين عدم إكترائه بالمدح والثناء من جانب ومنتهى خضوعه لله من جانب آخر وبالتالي اعترافه بعدم أداء الحقوق بصورة كامله، الأمر الذى قلما نجده فى زعيم طيله التاريخ.

ص: ١٩٧

١- (١). «اسخف» من «السخف» على وزن «قفل» و «سخافه» ضعف العقل والجهل.

٢- (٢) «إطراء» من «الطراوه» الجديد، وتعنى المدح والثناء من باب الإفعال.

١. المدح والثناء

مدح الآخرين والثناء عليهم على نوعين؛ نوع ايجابي وبنّاء وسبب حركه الخدام ويأس الخونه ورقى المجتمع، والآخر مدعاه للخراب والتخلف وتقويه شوكة الظلمه، وللنوع الأوّل ثلاثه شروط: الأوّل، مدح من يستحق المدح، الثانى، عدم خروج المدح عن حده، والثالث، ألا يكون هدف المادح التقرب إلى الممدوح وتحقيق الاطماع.

قال النبى صلى الله عليه و آله: «إِذَا مِدِحَ الْفَاجِرُ اهْتَزَّ الْعَرْشُ وَعَظِبَ الرَّبُّ» (١).

وورد فى حديث آخر: «الثناءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الإِسْتِحْقَاقِ عَيٌّْ أَوْ حَسَدٌ» (٢).

ولا ينبغى الغفله عن هذا الأمر فى ضروره الأخذ بنظر الاعتبار قابليه الممدوح؛ حذراً من أن يدعوه المدح للغرور ويحرفه عن الحق، كما ورد فى قصار كلمات الإمام على عليه السلام: «رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ» (٣).

لا شك فى أن كلّ هذه الأمور مع أخذها بنظر الاعتبار فإن المدح والثناء دلالة على التقدير ومعرفه الحق ومدعاه لتشجيع الأخيار والصالحين.

وتعقد اليوم العديد من التجمعات لتكريم المهرة من خدمه المجتمع والعلماء الأعلام وأصحاب الكفاءات العاليه وتقدّم لهم الجوائز تقديراً لجهودهم مثلاً للكتاب جراء أفضل كتاب للسنه والعمال والفلاحين النموذجيين ورسائل السلام والصدقه فى العالم وتكريمهم وتقديرهم، والتي تلعب دوراً بناءً إن لم تكتسب صبغه سياسيه وتقدم الروابط على الضوابط وحفظ الشرط الثالث المذكور فى حسن نيه المشرفين.

ص: ١٩٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٢.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٣٤٧.

٣- (٣) المصدر السابق، الكلمه ٤٦٢.

إلا أن النوع الثاني يناقضه تماماً؛ أي إذا مُدِحَ الأشرار وغير المستحقين وأثنى عليهم أكثر من الحد وكانت دوافع ذلك العوامل السياسية والحبّ والبغض الشخصى تشجّع الطالحون ويثسّ الفضلاء والخيرون، فينفرد المتملقون فى الميدان والمجتمع ويتفوق الصادقون المخلصون.

قال على عليه السلام: «إياك وَالْمَلَقُ فَإِنَّ الْمَلَقَ لَيْسَ مِنْ خَلَائِقِ الْإِيمَانِ» (١).

وقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «أُحْثُوا فى وُجُوهِ الْمُدَّاحِينَ التُّرَابِ» (٢).

والنقطة الأخيرة فى هذه الرسالة ونرى من الضرورى ذكرها أن للمدح أحياناً جانباً إيجابياً ويتصف بالشروط المذكوره، لكنه يخلق حالة شاذة لدى الرأى العام ويتهم الممدوح بحب المادح وهذا ما ينبغى أيضاً الابتعاد عنه، وأكثر ما ورد فى هذه الخطبه من هذا القبيل.

٢. ألسنه التملق

التملق كما قيل، المدح والثناء الذى يتجاوز الحدود والكلام الجُزاف فى فضائل الأفراد للتقرب منهم والاستفاده من منافعهم الماديه، حتى ذكر الصفات الحقيقيه لشخص دون الإشاره إلى نقاط ضعفه يعدّ نوعاً من التملق، وأبعد من ذلك ما يفعله بعض المتملقين ممّن جعل نقاط الضعف كنقاط القوّه والتملق عاده لأرباب القدره والجاه والذى يعتبر من أعظم المخاطر التى تهدد الولاه والحكام والمدراء، لأن أول شرائط الإدارة المعرفه بالحقائق المتعلقة بحيز الإدارة والمتملقون يغطون الحقائق ويخفونها عن انظار المدراء والمسؤولين فيخلق ما لا يحصى من المفساد.

والعجيب أن الزعماء الضالين غير المؤهلين غالباً ما يشجعون المتملقين ويمتعظون من قول الحق ويشعرون بالهدوء الكاذب من تملق المتملقين.

ص: ١٩٩

١- (١) غرر الحكم، الحكمة ٢٦٩٦.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

وقد عدَّ الإمام عليه السلام التملق من أسوأ الأمراض أو مرض لا علاج له «أدوى الداء الصلف»^(١) واحد معاني الصلف التملق والآخر مدح الذات.

وقال في موضع آخر: «إِنَّمَا يُحِبُّكَ مَنْ لَا يَتَمَلَّقُكَ»^(٢).

وقال: «لَيْسَ الْمَلَقُ مِنْ خُلُقِ الْأَنْبِيَاءِ»^(٣).

ولا ينبغي أن ننسى أن التملق يتم تاره بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة أو عن طريق النثر أو الشعر أو العمل وكل آثاره السيئه متساويه.

ص: ٢٠٠

١- (١) عيون الحكم والمواعظ، ص ١١٧.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٤٠٩.

فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالَ فِي حَقِّ قَيْلٍ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكْفُؤُوا عَنْ مَقَالِهِ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورِهِ بِعَيْدِلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُحْطِيَءَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِي اللَّهَ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجْنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى.

الشرح والتفسير: لا تملقوا أمامي

جانب مهم من هذه الخطبة - كما أشرنا - في بيان حقوق الوالي والرعيه وقد غير الإمام عليه السلام مسار الخطبة بعد أن أثنى عليه أحد الحاضرين إلى جانب خاص من حقوق الوالي والرعيه وهو ترك المدح والثناء على الولاة والحكام.

ثم خاض هنا آخر الخطبة في آفه أخرى من آفات الحكام والناس في أن إرتباطهم ببعضهم علاقه تملق وكتمان الحقائق المريره لصعوبتها وترك النقد الصائب والبناء فقال: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ (١)، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ».

ص: ٢٠١

١- (١) «بادره» من «البدور» على وزن «غروب» تعنى فى الأصل المسارعه إلى القيام بعمل و «بادره» الحركات السريعه والخاطئه التي تصدر من الغاضب.

إشاره إلى أنّ العاديين من الأفراد حين يقفون بين يدي الجابره يخفون شخصيتهم الحقيقيه ويتحفظون عن كلّ نقد وشكوى واعتراض حذراً من أن يغضبوا عليهم، ويسعون بالعكس إلى الأمن من شرّهم بالمدح والثناء والتملق، ومن هنا فلا تتضح لهم قط الحوادث الحقيقيه في المجتمع فيغطون في وادي الضلاله والجهل.

يطمئن الإمام عليه السلام كلّ مخاطبيه بضروره بثّ ما لديهم من شكوى ومشكله فهم أحرار في ما يقولون بشأن الحكومه والمجتمع.

نعم فهذه إحدى الفوارق البارزه بين حكام العدل والجور، ورد في «العقد الفريد»: وقام رجل إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكه، فقال: «كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^(١). فأمر به فضرب مائه سوط، فكان يئن الليل كله ويقول:

الموت! الموت! فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه واستحلّه فأحلّه^(٢).

وجاء في نفس هذا الكتاب أيضاً: جلس الوليد بن عبدالملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال:....، إنّ الوقت لا ينتظرک، وإنّ الربّ لا يعذرک، قال: صدقت: ومن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامک، من هاهنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه^(٣).

بينما رأينا مراراً في سيره أمير المؤمنين عليه السلام أنّ عدداً من المنافقين تفوهوا بأسوأ الكلمات بحضرته كالأشعث بن قيس وبعض الخوارج، فلم يتعرّض لهم قط.

ثم قال مواصلاً ذلك الكلام: «وَلَا تَنْظُنُوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي، وَلَا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتِثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ».

إشاره إلى أنّ الذين لا يطيقون سماع الانتقاد أعجز عن ممارسه الإصلاح، ومن هنا يوغلون كلّ يوم في مزيد من الظلم والفساد، وشجع الإمام عليه السلام في تأكيد هذا

ص: ٢٠٢

١- (١). سورة يوسف، الآية ٣.

٢- (٢) العقد الفريد، ج ١، ص ٥٣، (طبق نقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٤٤٧ و ٤٤٨).

٣- (٣) المصدر السابق.

الكلام جميع مخاطبيه بيان الحق صراحه وذكر المشاكل الفرديه والاجتماعيه والتأكيد على العداله الاجتماعيه فقال: «فَلَا تَكْفُوا عَنْ مَقَالِهِ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورِهِ بِعَدْلِ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِيَّ، وَلَا آمَنْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي».

الجملة «فإني لست في نفسي بفوق أن أخطي» كانت مبرراً لبعض مخالفى عصمه الأئمه وأكثروا الضجيج بشأنها، بينما العبارة «إلا أن يكفى الله من نفسي» تفسرها بصراحه، فمفهوم العبارة الأولى أتى كإنسان لا آمن الخطأ، ومفهوم العبارة الثانيه لى وضع آخر فى ظل رعايه الله، شبيهه ما أورده القرآن بشأن النبى يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا- أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ»(١).

إشاره إلى أن يوسف عليه السلام كإنسان يخشى عليه أن يتلوث بأهواء امرأه العزيز، إلا أن مشاهدته برهان الرب الذى يشير إلى مقام وعصمه يوسف ومعرفته الرفيعه بالله، حفظته من ذلك.

أضف إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام فى مقام تربيته وتعليم أصحابه فيرشدهم إلى احتمال الخطأ على أنفسهم مهما كانوا؛ لكنه يضع نفسه فى زمرتهم تواضعاً، على كل حال لا ينبغى التذرع بهذه العبارة إزاء كل الأدله على عصمه النبى والإمام.

قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «ما منكم من أحد إلا وله شيطانٌ. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن الله تعالى أعاننى عليه فأسلم»(٢).

والشاهد البليغ الآخر على ما قلنا ما أورده الإمام عليه السلام أواخر الخطبه ٩٧: «وَإِنِّي لَعَلِي بَيْنَهُ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّ وَإِنِّي لَعَلِي الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبُ لَقُطًّا».

وعلى هذا الضوء فالإمام عليه السلام يؤيد أنه سائر على الصواب دائماً بلطف الله ولا سبيل للخطأ إليه.

ص: ٢٠٣

١- (١) سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٣٢٩.

ثم قال فى إكمال وتأيد الكلام المذكور: «فإنَّما أنا وأنتُم عبيدٌ مملوكونَ لِربِّ لا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا ما لا نَمْلِكُ مِن أنفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى ما صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلالَةِ بِالهُدَى، وَأَعْطَانَا البَصِيرَةَ بَعْدَ العَمَى».

وكما ذكر فإنَّ روايه فى «الكافى» حيث وردت هذه الخطبه أطول ممَّا ورد فى «نهج البلاغه»، والسيد الرضى اقتطف فى الواقع جوانب من الخطبه.

ونقرأ فى روايه «الكافى» قسماً آخر من هذه الخطبه:

«يقال: لم ير الرجل بعد كلامه هذا لأمير المؤمنين، فأجابه وقد عال الذى فى صدره فقال والبكاء يقطع منطقه وغصص الشجا تكسر صوته إعظاماً لخطر مرزئته ووحشه من كون فجيئته.

فحمد الله وأثنى عليه، ثم شكى إليه هول ما أشفى عليه من الخطر العظيم والذل الطويل فى فساد زمانه وانقلاب جدّه وانقطاع ما كان من دولته ثم نصب المسأله إلى الله عزَّ وجلَّ بالامتنان عليه والمدافعه عنه بالتفجع وحسن الثناء، فقال: يا ربَّانِى العباد ويا سكن البلاد أين يقع قولنا من فضلك وأين يبلغ وصفنا من فعلك أنى نبلى حقيقه حسن ثنائك أو نحصى جميل بلائك فكيف وبك جرت نعم الله علينا وعلى يدك اتصت أسباب الخير إلينا، ألم نكن لذلّ الدليل ملاذاً وللعصاه الكفّار إخواناً فبمن إلّابأهل بيتك وبك أخرجنا الله عزَّ وجلَّ من فظاعه تلك الخطرات، أو بمن فرج عنّا غمرات الكربات...»^(١).

ص: ٢٠٤

١- (١) الكافى، ج ٨، ص ٣٥٨، ح ٥٤٥. تتمه هذا البحث فى «الكافى» لطيفه للغاية فيمكن الرجوع إلى ما ذكر. فقد اغضضنا المواصله حتى لانخرج عن اسلوبنا فى الشرح.

فِي التَّظَلُّمِ وَالتَّشَكُّي مِنْ قُرَيْشٍ (١)

نظره إلى الخطبه

كما قيل في سند الخطبه فإن هذه الخطبه والخطبه ١٧٢ والخطبه ٢٦ تشترك مع بعضها في أقسام مختلفه وتبدو أنها رساله كتبها الإمام عليه السلام أواخر حكومته في الرد على طائفه من أصحابه، فقد أصرت طائفه على الإمام أن يبين رأيه في الأحداث التي أعقبت عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعصر الخلفاء.

فكتب الإمام عليه السلام بناءً على إصرارهم هذه الرساله وأمر بقراءتها على الناس حتى لا يتمكن المخالفون من تزييف الحقائق وتحريف التاريخ.

أشار الإمام عليه السلام إلى قضيتين أساسيتين في هذه الخطبه:

ص: ٢٠٥

١- (١) سند الخطبه: ورد جانب من هذه الخطبه في الخطبه ١٧٢ وجانب آخر في الخطبه ٢٦ وكما مضى في سند الخطبه ١٧٢ يبدو أن هذه الخطبه جانب من رساله كتبها الإمام أواخر خلافته وبين فيها باختصار الحوادث التي وقعت عقب وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى ذلك الزمان وأمر أن تقرأ على الناس. وأضاف صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغه» أن المرحوم الكليني في كتاب «كشف المحجّه» (ص ١٨٠) طبق نقل السيد ابن طاووس في كتاب الرسائل. ويحتمل أيضاً أن الإمام بين بعض هذه الخطبه في مختلف المناسبات لأكثر من مره. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٢).

الأولى: إنه شكاً قريشاً لله أنّهم اتحدوا على هضمه حقّه وأنّهم قالوا له صراحة عليك أن تتنازل عن حقك في الخلافة!

الثانية: إنّ الإمام عليه السلام شرح علّه عدم قيامه لأخذ حقّه لأنّه لم يجد أعواناً على هذا الأمر وقد رأى الخطر محمداً بأرواح أهل بيته.

ص: ٢٠٦

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَوُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا:

أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُنْمَعَهُ، فَاصْبِرْ مَعْمُومًا، أَوْ مُتَّسِفًا. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِعٌ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَيْتَةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشُّفَارِ.

قال الشريف رضي الله عنه: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبه متقدمه، إلا أنني ذكرته هاهنا لاختلاف الروايتين.

الشرح والتفسير: تحمل الصعاب

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَوُوا (١) إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي».

بالرغم من أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام أواخر عهد خلافته، لكن هنالك خلاف عند شراح «نهج البلاغه» والمؤرخين بشأن الزمان، فهل المراد فضيه السقيفه والأحداث التي أعقبت وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أم الشورى التي تألفت من

سته

ص: ٢٠٧

١- (١). «اكفؤوا» من «الإكفاء» بمعنى قلب الإناء بحيث يسكب كل ما فيه، ومادته الأصلية «كفاء» على وزن «دفع» بمعنى التولى.

أشخاص أم الزمان الذى نكث فيه العهد طلحه والزبير واشعلا فتنة حرب الجمل؟

ويبدو الاحتمال الأوّل هو الأقوى من بينها ثم الثانى، بينما يستبعد الاحتمال الثالث فتمرد طلحه والزبير لا يعدّ من اجتماع قريش على الإمام.

العباره «أَسْتَعْدِيكَ» من «الإستعداد» بمعنى الاستعانه أو الشكوى لأحد.

العباره «إِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَجِمِي» ربّما تشير إلى أنّ غاصبى الخلافة استندوا إلى القرابه من النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى حين كان الإمام أقرب إليه من غيره.

العباره «أَكْفَوُوا إِنَائِي» يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو الذى ملأ هذا الإناء وسلّمه إلى الإمام وعرفهم به أنّه الأوّل بالخلافه من الجميع كراراً؛ لكنهم قلبوا إناء ماء الحياه رأساً على عقب.

أمّا قوله إنّهُ أولى بهذا الحق منهم جميعاً فهذا ممّا ثبت بالدليل العقلى والنقلى لكل منصف؛ فليس هنالك من يمتلك شجاعته أو ورعه وتقواه وزهده.

نقل ابن أبى الحديد فى شرح الخطبه ١٧٢ حين ذكر هذه العباره، عبارات شبيهه أخرى تدل جميعاً على أنّ عليّاً عليه السلام كان يرى الخلافه حقه المسلّم وقد غصبه الآخرون، ثم قال: فسّيرت الإماميّة والزبيديّه هذه العبارات حسب ظاهرها ولم يروا غير على عليه السلام يليق بها، وأضاف قائلاً: رغم أنّ هذا هو الظاهر الذى ذهبوا إليه لكننا نعتبرها كالمتشابه من الآيات فلا نحملها على ظاهرها(١).

هذا الكلام العجيب ناشىء عن نوع من التعصب والذهنيه المريضة ومعنى ذلك أننا لا نقبل سوى ما نرغب فيه، يقول جزءاً من المتشابهات، فى حين يرد المتشابه عندما يكون هنالك إبهام وإجمال فى الكلام، لا مثل هذا الكلام الواضح الصريح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى منطق مخالفه العجيب: «وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مَثَّ مَتَّاسِفًا».

حقاً هذا منطق رهيب أن يعترف الإنسان ببعض الأمور أنّها حق لكن لا بدّ من

ص: ٢٠٨

التنازل عنها استجابته للقوّه والغطرسة فإمّا أن يصبر ويتحمل أو يموت كمدّاً من القهر، وهذا هو الشعار الذى يهتف به الاستكبار العالمى خفيه أو علانيه: «المُلْكُ لِمَنْ غَلَبَ» ولا بدّ هنا من سؤال ابن أبى الحديد: هل هذه العبارة جزء من المتشابه وينبغى تأويلها وعدم حملها على الظاهر؟!

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ (١)، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ (٢) بِهِمْ عَنِ الْمَمِيَّةِ».

تشير هذه العبارة إلى أنّ الناس انسأقت للحكومه آنذاك فهذا طمعاً وذاك خوفاً وثالث حقداً وبغضاً ورثه من المعارك الإسلاميه السابقه، وأخيراً الغفله الجهاله، كان من الطبيعى أن يتعذر على الإمام فى ظل تلك الشرائط أن ينهض ليشكل حكومه العدل الإسلامى وهى الامتداد لحكومه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن هنا قال إثر ذلك: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى (٣)، وَجَرَعْتُ رِيْقِي عَلَى الشَّجَا (٤)، وَصَيَّبْتُ مِنْ كَطْمِ الْعَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلْقَمِ (٥)، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ (٦) الشُّفَارِ (٧)».

إشاره إلى أنه لا ينبغى قط أن يفسىر سكوتى على تلك الاوضاع بالدليل على الرضى، بل إنى أتأوه بشده من الانحرافات التى أعقبت وفاه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى الحكومه الإسلاميه؛ لكن لم يكن أمامى سوى الصبر والسكوت.

وعقب اختتام الخطبه: «قَالَ الشَّرِيفُ رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبِهِ مُتَقَدِّمًا، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرُّوَايَتَيْنِ».

ص: ٢٠٩

١- (١) . «رافد» من ماده «رفد» على وزن «ربط» بمعنى المعونه والعطاء والمساعده.

٢- (٢) «ضننت» من ماده «ضنّ» على وزن «فنّ» تعنى فى الأصل البخل الشديد؛ لكنها هنا التحفظ الشديد عن الشىء المطلوب.

٣- (٣) . «قذى» هذه المفرده تقابل تماماً الصفاء والإخلاص ويطلق القذى على الأشياء الملوثة التى تقع فى الماء والشوك الذى يدخل فى العين ويؤذيها.

٤- (٤) «شجى» من ماده «شجو» على وزن «هجو» بمعنى الحزن والشده كما يطلق على ما يعترض حنجره الإنسان.

٥- (٥) «علقم» نبتة مرّه للغايه ويطلق عليها أيضاً «حنظل» وتطلق هذ المفرده على كل شىء مر.

٦- (٦) «وخز» بمعنى اللسع والثقب والأذى.

٧- (٧) «شفار» جمع «شفره» على وزن «دفعه» السكين.

فى ذِكْرِ السَّائِرِينَ إِلَى البَصْرَةِ لِحَرْبِهِ عَلَيْهِ السَّلَام (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيره إلى الجرائم المتعدده التى إرتكبها أصحاب الجمل الذين انطلقوا برفقه عائشه وطلحه والزبير فى طريقهم إلى البصره ليتمردوا على الإمام عليه السلام، ويثّثوا التفرقه فى صفوف أهل البصره الذين كانوا متحدين على بيعه الإمام وطاعته، فقد نهب أصحاب الجمل بيت مال المسلمين ونحو خزانه وقتلوا طائفه من شيعه الإمام وفئه ممن قاومتهم وإرتكبوا بعض الجنايات التى لا يأتيتها من كان له أدنى حظ من الإيمان.

ص: ٢١١

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب «مصادر نهج البلاغه»، مصادر هذا الكلام هى مصادر الكلام السابق، لأنّ كلاً منه فصل من رساله كتبها الإمام عليه السلام وأمر بأن تقرأ على الناس (ليقفوا على ما حدث منذ وفاه النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله حتى عصر خلافته). ثم قال: «لذلك ذكر هذا الكلام متصلاً بالكلام السابق فى بعض نسخ نهج البلاغه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٣).

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُرَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيْ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَيَّ شَيْعَتِي، فَفَتَلُوا طَائِفَهُ مِنْهُمْ غَدْرًا؛ وَطَائِفَهُ عَضُّوا عَلَيَّ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ.

الشرح والتفسير: جنایات أصحاب الجمل فی البصره

كما ورد في سند الخطبه فإن هذا الكلام في الواقع جانب من رساله طويله كتبها الإمام عليه السلام لتسجيل في التاريخ وعدم نسيان الحوادث المريره التي حدثت بعد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام القصير إلى الجنایات العظمى للناكثين الذين أثاروا فتنه حرب الجمل قال: «فَقَدِمُوا عَلَيَّ عُمَالِي وَخُرَّانِ مَالِ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ».

ثم أضاف قائلاً: «وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ».

وأشار إلى جريمتهم الكبرى الثالثه وقال: «وَوَثَبُوا عَلَيَّ شَيْعَتِي، فَفَتَلُوا طَائِفَهُ مِنْهُمْ غَدْرًا؛ وَطَائِفَهُ عَضُّوا عَلَيَّ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ».

ص: ٢١٣

١- (١) «عَضُّوا» من ماده «عَضَّ» على وزن «سَدَّ» تعنى فى الأصل العَضُّ بالأسنان ثم استعملت لمن يتابع عمله بجد والعبارتان «عَضُّوا على أسيافهم» من هذا القبيل.

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى ثلاث من جرائمهم البشعه: نهب بيت المال، بث الفرقة والنفاق في صفوف المسلمين وقتل عدد من الأبرياء من المسلمين الصالحين الصادقين.

ورد في حوادث الجمل (1)، عندما أقبلت عائشه - إلى البصره - على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس، أقلوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبه.. ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرت بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

قال (الراوى): فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول:

وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأه مأموره بلزوم بيتها، وارتفعت الأصوات وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال، وتراموا بالحصا.

ثم إن الناس تمايزوا وصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشه وأصحابها (2).

هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بشأن بث النفاق والفرقة بين المسلمين الذين كانوا متّحدين من قبل الفئه الباغيه التي شقت عصا المسلمين وزرعت الفتنة بينهم إلى يوم القيامه.

ص: ٢١٤

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣١٥.

٢- (٢) المصدر السابق.

لَمَّا مَرَّ بِطَلْحَةَ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابِ بْنِ أُسَيْدٍ وَهُمَا قَتِيلَانِ يَوْمَ الْجَمَلِ (١)

نظره إلى الخطبه

هذا الكلام القصير الذي اقتطفه المرحوم السيد الرضى من كلام طويل يبين في الواقع ثلاث نقاط: إحداها، إعرابه عن أسفه على قتل طلحه الذى ما كان ينبغى أن يسلك هذا الطريق الخاطئ وله تلك السوابق فى الإسلام فيقتل تلك القتل الغريبه تحت السماء.

الأخرى، أنّ أمراء معركة الجمل الذين قتلوا خزّان بيت مال المسلمين فى البصره وشيعه الإمام سينالون جزاءهم.

والثالثه، أنّ أولئك (وأمثالهم) لم يكونوا مؤهلين لما كان يدور فى أذهانهم.

ص: ٢١٥

١- (١) سند الخطبه: رواها أبو الفرج الاصفهاني فى «الأغانى» والمبرّد فى «الكامل» وابن عبد ربّه فى «العقد الفريد» وابن الأثير فى «النهايه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٥).

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا! أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَثْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَيَّ أَمْرٌ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ!

الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل

كما قيل، فإنَّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما مرَّ بعد حرب الجمل بجسد طلحه بن عبد الله وعبد الرحمن بن عتاب اللذين صرعا غريبين على التراب.

وطلحه بن عبد الله هو صاحب النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله المعروف الذي بايع الإمام بعد مقتل عثمان ولكن حين لم تتحقق آماله في الوصول إلى حكمه بعض الولايات الإسلاميَّة، رفع لواء المعارضة واتحد مع الزبير وعائشه واشعل فتيل حرب الجمل واكتوى بناها.

ولم يكن عبد الرحمن بن عتاب من الصحابه؛ ولكنه يعتبر من التابعين، وكان أبوه عتاب ممن أسلم في فتح مكة وولاه النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله أمره مكة، وكان لوالده آنذاك اثنتان وعشرون سنة وقال له النَّبِيُّ لو كان هنالك من هو أفضل منك لذلك الأمر لو ليته، واستمر ذلك حتى عهد أبي بكر وتوفى مع أبي بكر في نفس اليوم، لكن للأسف فإنَّ ابنه عبد الرحمن انحرف عن الجاده وأصبح العوبه بيد طلحه والزبير ووسيله لتحقيق أطماعهما حتى قتل في حرب الجمل فكان جسده في العراء قرب جسد طلحه.

قيل: لما قتل عبدالرحمن بن عتاب في الجمل حمل يده المقطوعه عقاباً وألقى بها في اليمامة وتعرّف الناس على خبره من خاتمه الذي خط عليه اسمه.

على كلّ حال، أعرب الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه عن اسفه لقتل طلحه فقال:

«لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا!».

التعبير (أبو محمد) دلالة على نوع من الاحترام والأسف على غربته لسوابق طلحه الحسنه في الإسلام، حيث كان ممّن صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن الأشداء في الذبّ عن بيضه الإسلام؛ ولكن للأسف فإنّ حبّ الجاه والمقام والحسد دفعه لشن حرب دمويه ضد خليفه المسلمين الذي نصب من جانب الله والمبايع من قبل الأمه والتي خلفت أكثر من سبعين ألف قتيل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكُؤَاكِبِ!».

صحيح أنّ طلحه والزبير وأمثالهما يستحقون ذلك العقاب، لكن الإمام عليه السلام أعرب عن امتعاضه بكلّ حبّ ورأفه وعاطفته الخاصّه بالنظر لسوابقه في الإسلام ليته لم يقتل في هذا الطريق وتكون هذه العاقبه، فجميع الأنبياء والأوصياء وأولياء الله يرجحون كفّ الخاطئين وحتى المجرمين الطغاه عن مسيرتهم والالتحاق بصفوف المؤمنين والصالحين.

ثم قال عليه السلام: «أَذْرَكْتُ وَتَرِي (١) مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْافٍ، وَأَفْلَتَنِي (٢) أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ».

هنالك خلاف بين الشّراح بشأن المراد من «بني عبد مناف» من هم؛ قال البعض:

إنّ المراد بهم طلحه والزبير وعبدالرحمن الذين أشير إليهما آنفاً.

وأشكل ابن أبي الحديد على أنّ طلحه والزبير لم يكونا من بني عبدمناف، وأُجيب أنّهما يتصلان بعبد مناف من جانب الأم وإن لم يتصلا به من طرف الأب.

ص: ٢١٨

١- (١) «وَتَرِي» على وزن «سَطَرَ» و «وَتَرِي» على وزن «فَطَرَ» بمعنى الجنايه أو الأذى ويطلق على القصاص ووردت بهذا المعنى في العبارة المذكوره.

٢- (٢) «أَفْلَتَنِي» من «الإفلات» وردت بمعنى الخلاص والهروب وهي هنا الهروب.

واعترض المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغه على هذا الكلام من جهتين: الأولى أن الانتساب إلى القبائل في عرف العرب عن طريق الأب؛ وليس الأم، والأخرى أن أم الزبير وإن انتهى نسبها لعبد مناف كونها بنت عبدالمطلب إلا أن أم طلحة كانت من اليمن. ولم يذكر العلامة التستري بعد هذين الاعتراضين، من الأفراد المرادون بيني عبد مناف.

وربما كان في أهل الجمل غير عبد الرحمن، بنو عبد مناف الذين إرتكبوا بعض الجرائم وقتلوا هناك؛ إلا أن أسماءهم لم ترد في التاريخ لعدم شهرتهم.

فبنو جمح طائفه من قریش كانت في معسكر أهل الجمل؛ ولما رأوا المعركة ليست لصالحهم فروا ولم يقتل منهم سوى اثنان.

واختتم عليه السلام هذا الكلام قائلاً: «لَقَدْ أَتَلَعُوا(١) أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوَقَّصُوا(٢) دُونَهُ!»..

هذا الكلام إشاره إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين يفتقرون لأهليه الخلافه بوجود الإمام عليه السلام بل ليس لهم أهليتها حتى مع عدم وجود الإمام عليه السلام، فحبّ الجاه والتعلق بالدنيا يحول دون أهليه زعامه الأئمه الإسلاميه.

تأملان

١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمه

كان طلحة والزبير من السابقين إلى الإسلام الذين قاتلوا ببساله دفاعاً عن النبي والإسلام، كما كانت لهما مكانتهما المميزه بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى درجه أن عمر لم يتمكن من تجاوزهما في الشورى التي شكّلها لانتخاب الخليفه من بعده؛ لكن حبّ الجاه والمقام والتعلق بالدنيا أخرجهما عن طريق الحق فغيرا مسارهما والتحقا

ص: ٢١٩

١- (١). «أتلعوا» من «الإتلاع» بمعنى مد العنق من ماده «تلع» على وزن «طرب» بمعنى رفع العنق.

٢- (٢) «وقصوا» من «الوقص» على وزن «نقص» بمعنى الكسر.

بصفوف المنافقين.

فمن جانب غارا على بيت مال المسلمين في البصره وقتلا خزان بيت المال واستغلاه لإثارة معركة الجمل.

ومن جانب، آخر أجبنا نيران فتنة الجمل التي راح ضحيتها مئات الآلاف من المسلمين وأساسا للحروب الأهلية.

ومن جانب ثالث، أخرجنا زوج النبي صلى الله عليه وآله من بيتها وجعلوها مطية لأهوائهم السياسيه فانتهاكا من خلال ذلك حرمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن جانب رابع، كلاهما قتل في تلك المعركة ولم يحققا اطماعهما الشخصيه، وبالطبع سيدوقا وبال أمرهما يوم القيامة بما سوّدا به صحيفه أعمالهما.

هذه كلّها نتائج حبّ الجاه وحبّ الدنيا، الأمر الذي عدّه جميع الأنبياء والأولياء مصدر جميع الذنوب فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١).

وقد بيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقه بوضوح بعبارات موجزه عقب الجمل طبق روايه المرحوم الشيخ المفيد، قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه في قضيه معركة الجمل: «مَرَّ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْجَمَلِ بِطَلْحَةَ قَتِيلًا فَقَالَ: أَجْلَسُوهُ، فَأَجْلَسُوهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ لَكَ قَدَمٌ لَوْ نَفَعَكَ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلَّكَ فَأَزَلَّكَ فَعَجَّلَكَ إِلَى النَّارِ»^(٢).

٢. الكفاءه الشرط الاول لكل عمل

صرّح الإمام عليه السلام مختتماً خطبته المذكوره بأنّ طائفه اشْرأبت أعناقها لنيل الحكومه الإسلاميه؛ وحيث لم تكن جديره بها فقد كسرت رقبته، إشاره إلى أنّ كلّ عمل ومشروع يتطلب كفاءه معينه ولا يكفي مجرد الرغبه بالشئ بغيه الوصول إليه

ص: ٢٢٠

١- (١) روى المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً مشهوراً قى شعب الذنوب ودوافعها عن الإمام زين العابدين عليه السلام جاء في آخره: «فَقَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ بَعِيدٌ مَعْرِفَهُ ذَلِكَ: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». (الكافي، ج ٢، ص ١٣١، ح ١١، باب ذنب حبّ الدنيا).

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤٧.

ولا يمكن شغل مواقع العظماء بالمجان إلّا أنّ يعدّ الإنسان الأسباب العظيمة.

صحيح أنّ البعض استند إلى تلك المواقع دون إعداد تلك الأسباب؛ ولكنهم واجهوا الهزيمة والخسران في خاتمه المطاف إثر سوء إدارتهم.

ص: ٢٢١

فى وَصْفِ السَّالِكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ (١)

نظره إلى الخطبه

كما يتضح من عنوان الخطبه خاض الإمام عليه السلام فى هذا الكلام الموجز البليغ، فى التعريف بالسالك إلى الله والسائر على الطريق وعدّ سبب موفقيته إلى إحياء العقل وإماته أهواء النفس وصرح أنّ بارقه من نور أَلطاف الحق تقتدح فى قلبه فى ظلّ هذا العمل؛ الذى يضيء المسير ويوصله إلى مقام النفس المطمئنه ورضى الله.

ص: ٢٢٣

١- (١) سند الخطبه: نقل صاحب «مصادر نهج البلاغه» هذا الكلام عن «غور الحكم» للآمدى باختلاف كبير يدل على أنّه رآها فى مصدر آخر غير «نهج البلاغه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٦).

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبُرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ
الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْإِقَامَةِ، وَتَبَتَّ رِجْلَاهُ بِطَمَئِنِّهِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

الشرح والتفسير: سالك طريق الحق

طرح الإمام عليه السلام في هذا الكلام العميق المعنى، دوره عرفانيه إسلاميه من خلال عبارات موجزه واستعرض شرائط السير والسلوك إلى الله ونتائجه ومقاماته فقال:

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ (١)، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ (٢)».

إحياء العقل إشاره إلى الانفتاح على الأدله العقليه لتكامل الإيمان والحسن والقبح العقليين لتكامل الفضائل الأخلاقيه، وهكذا فإن مفرده العقل هنا تشمل العقل النظرى والعقل العملى.

أما النفس فلا تعنى القضاء على الغرائز النفسانيه، بل المراد تهذيبها بحيث لا يسعها القذف بالإنسان فى مصائد الشيطان وتصده عن سبيل الله.

المفرده «جليل» فى العبارة «دَقَّ جَلِيلُهُ» إشاره إلى الأبدان السمينه والتى أصبحت بهذه الصوره إثر كثره الأكل والافراط فى أكل الأطعمه الدسمه، ويخفف

ص: ٢٢٥

١- (١) «الجليل» بمعنى الكبير أو القيم من «الجلال» بمعنى العظمه وهو هنا إشاره إلى الجسم الإنسانى القيم.

٢- (٢) «غليظ» تعنى فى الأصل الخشن وتعنى هنا الغلظه الأخلاقيه التى تزول فى ظل الرياضه النفسيه وتتحول إلى لطافه خلقيه.

الوزن بترك الشهوات.

والمفردة «غليظ» في «لُطْفَ غَلِيظُهُ» إشاره إلى أنّ الخلق الخشن والرذائل الأخلاقية تتلطف في ظل الرياضة النفسانية.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب آثار هذه الحركة العقلانية والرياضة الشرعية ليعدّ ثمارها الطيبة في ثلاث فقال: «وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرٌ الْبَرَقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ».

وهذا هو نور المعرفة والمعنويات التي تتجلى للإنسان إثر الرياضات العقلانية والنفسانية وتضيئ له الطريق كما يقول القرآن المجيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ»^(١).

فقد شبّه السائر على الدرب بالسالكين لطريق صحراوي مظلم؛ ولكنهم يشملون بالعيان الربانية، يبرق لهم بريق من السماء فينير لهم الطريق ليبلغ لهم عمق الصحراء. صرّح بعض العارفين المسلمين بثلاث مراحل لأنوار الهداية الربانية التي تحصل إثر الرياضات النفسانية، المرحلة الأولى التي تسمى «اللوائح»؛ وهو نور يشرق في باطنهم؛ ولكنه لا يدوم طويلاً. المرحلة الثانية، التي تسمى «اللوامع» التي لا تزول بسرعه؛ ولكنها تنطفئ بالتالي، والمرحلة الثالثة، «الطوالع» التي تدوم مدّة مديده وتصون السالك إلى الله من الانحراف.

وقال في القسم الثاني من تلك الآثار: «وَتَدَافَعَتْهُ»^(٢) الأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْأَقَامَةِ».

على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُثَبِّتُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٣).

ص: ٢٢٤

١- (١) سورة الحديد، الآية ٢٨.

٢- (٢). «تدافعت» من «التدافع» بمعنى الدفع والطرود وتعني أحياناً التماس البدني والمعنى الأول هو المراد هنا من ماده «دفع» على وزن «فخر» بمعنى الدفع.

٣- (٣) سورة الأنعام، الآية ١٢٧.

وقال على لسان أهل الجنة: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» (١).

ثم قال فى القسم الثالث من تلك الآثار: «وَتَبَّتْ رِجَالُهُ بِطُمَأْنِينِهِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ».

وكأنه ماورد فى القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي» (٢).

نعم! الإنسان فى مسير القرب إلى الله فى كلِّ زمان يكون عرضه لوساوس شياطين الجنِّ والإنس ويهزه خوف الضلال حتى يبلغ ما يزيل عن سماء روحه غيوم وساوس النفس والشيطان، ويقدم فى كيانه بريق معرفه الله فيعيش السكينة التامة ويستحق الخطاب «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي».

ثم اختتم هذا الكلام بالتأكيد على هذه الحقيقة: «بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبُهُ، وَأَرْضَىٰ رَبَّهُ».

نعم! وهذا ما اشير له فى الآيات المذكورة: «ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً».

تأمل: مقامات السير والسلوك

إنَّ رواج التعبير بالسير والسلوك فى تعبيرات أهل العرفان فى عصرنا والعصر القريب منه مقتبس فى الواقع من القرآن حين قال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» (٣).

وآيات التوبة مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا» (٤). (بالنظر إلى

ص: ٢٢٧

١- (١) سورة فاطر، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

٢- (٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧-٣٠.

٣- (٣) سورة الانشقاق، الآية ٦.

٤- (٤) . سورة التحريم، الآية ٨.

أَنَّ التَّوْبَةَ فِي الْأَصْلِ تَعْنِي الْعُودَةَ). وَالآيَةُ الشَّرِيفَةُ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١).

الواقع أنَّ روح الإنسان كالغواص الذى وطئ عالم المادة واقترب بالجسم المادى ليغوص فى أعماق بحار هذا العالم ويحمل معه الجواهر النفيسة هناك ويخرجها معه.

ويربط الغواصون أحياناً جسماً ثقيلاً بأرجلهم ليلبغ بهم أعماق البحار فان أتموا بحثهم طرحوا ذلك الجسم الثقيل ثم يعودون إلى سطح الماء، والسعيد من يعلم اين هذه الجواهر النفيسة.

الهدف من هذا السير والسلوك إلى الله الذى يشرع بالتربية وتهذيب النفس والتوبه والإنابه والرياضات الشرعيه، هو العبور من النفس الأمّارة بالسوء إلى النفس اللوامة ومن هناك إلى النفس المطمئنه والوصول إلى رفعة مقام راضيه مرضيه. العبور الذى ينتهى بالتالى بالمكاشفات وإزاله الحجب عن عين الإنسان، حيث قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لذلك الشاب السعيد الذى رآه مواقيت الفجر فى صلوات الجماعه وبدت عليه آثار قيام الليل: «هذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» (٢).

هناك مقامات ومراحل متفاوتة لهذا السير والسلوك يراها العرفاء والسالكون ويعتقد البعض بأنهم اقتبسوها من الآيات القرآنيه وروايات المعصومين عليهم السلام.

فقد أوجز بعضهم النظام اليومى للسالكين إلى الله فى أربعة أمور: المشارطه، المراقبه، المحاسبه والمعاقبه أو المؤاخذة.

وعلى هذا الضوء يشترط السالك على نفسه فى الصباح أن لا يتقدم خطوه فى غير رضى الله؛ ثم يراقب أعماله طيله النهار ويفرغ ليلاً للحساب فإن بدر منه خلاف عاقب نفسه بحرمانها من اللذائذ وماترغب فيه.

وورد اثنا عشر منزلاً ومقاماً لهذا النظام فى رساله السير والسلوك للفيقيه الكبير

ص: ٢٢٨

١- (١) سورة البقره، الآيه ١٥٦.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٥٣، ح ٢.

المرحوم العلامة بحر العلوم، ثم يرد الإنسان بعد طيها عالم الإخلاص ومصادقه «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (١).

وقد ذكرت في هذه الرسالة الآداب الخمسة والعشرون لبلوغ هذا المقام (٢).

المؤسف أنّ هذه المسألة استغلت كثيراً لاسيما في عصرنا وقد تشبث بها الصوفيون أساس الانحرافات في العقيدة والعمل ليجعلوه شماعه ويتصورون أنّهم سالكون إلى الله، بينما هم غالباً مصادق «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِبُونَ صُنْعًا» (٣) ولكن هنالك بعض الأفراد الذين يتحركون على هدى الكتاب والسنة ولا يحدون عن مسير القرآن وقول المعصومين وهؤلاء هم السائرون والسالكون الحقيقيون.

وقد اعتبر أمير المؤمنين على عليه السلام إمام العارفين في كلامه الموجز كما بيناه أنّ أساس سلوكك طريق الحق هو إحياء العقل وإماتة النفس وإصلاح الأخلاق، وبين الثمرات الثلاث المهمّة لهذا السلوك بصيغته غايه في الروعه والجمال والبلاغه.

ص: ٢٢٩

١- (١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

٢- (٢) راجع خلاصه هذه الرسالة وسائر المناهج التي اعتمدها بعض كبار عارفي عصرنا في كتاب الأخلاق في القرآن، ج ١، ص ١٣٣.

٣- (٣) . سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

قال بَعْدَ تِلَاوَتِهِ: «أَلْهَأْكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (١)

نظره إلى الخطبه

يمكن تقسيم هذه الخطبه إلى أربعة أقسام وإن كانت وارده في تفسير قوله تعالى: «أَلْهَأْكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (٢).

الحديث في القسم الأول عن جهل المتبقيين، بمصيرهم كيف لا- يتعظون بمن يتوسدون التراب وبيّن في القسم الثاني، كيفيه أحوال الماضين وكيف رقدوا تحت التراب وتوسدوا القبور الباردة المظلمه، لا يخبر بهم أحد، خلت بيوتهم ونسيت حياتهم.

القسم الثالث، كأن الإمام يحدثهم ويردون عليه بلسان الحال بما يهز ويوقظ.

ص: ٢٣١

١- (١) سند الخطبه: أورد هذا الكلام على بن محمد شاكر الليثي في كتاب «عيون الحكم والمواعظ» الذي ألفه سنة ٤٥٣ للهجره وكان متأخراً عن السيد الرضى؛ ولكن الاختلافات والتعبيرات في عدّه عبارات من الخطبه تشير إلى أنّها اقتبست من مصدر آخر غير «نهج البلاغه». كما فسّر ابن الأثير مفرداتها الصعبه في كتابه «النهايه» (واحتمالاً كان لديه مصدر آخر غير «نهج البلاغه»). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٤٥ بتلخيص طفيف).

٢- (٢) سورة التكاثر، الآيتان ١ و ٢.

وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الرابع عن أواخر أيام العمر كيف يئأس الأطباء عن العلاج ولا ينفع الدواء ويقترّب الإنسان كلّ آن من نهايته ويبتعد عن أهله وقرابته ويتوقف لسانه ويفقد سمعه ويستحوذ الموت على كيانه، والتمعن فى هذه الخطبه يؤثر فى الإنسان ويوقظه مهما كان قاسى القلب.

ص: ٢٣٢

يَا لَهُ مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ! وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَرًا مَا أَفْطَعَهُ! لَقَدْ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيْ مُدِّكَرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلَكَى يَتَكَاثِرُونَ! يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوْتًا، وَحَرَكَاتٍ سَيِّئَةً وَلَآنَ يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَحِرًا! وَلَآنَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذَلِّهِ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزِّهِ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِهِ جَهْلًا، وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جَهْلًا، تَطُؤُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَزْتَعُونَ فِيمَا لَفْظُوا، وَتَسِي كُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!

كما مضى فإن هذه الخطبة إحدى خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام الجامعه الشامله والمؤثره.

وقد أشاد ابن أبي الحديد إشاده عجيبيه بهذه الخطبه وعدّها فريده من حيث الفصاحه والبلاغه وقال: ومن تأمل هذا الفصل علم صدق معاويه في علي عليه السلام:

«وَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرُهُ».

ثم قال: وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له

كما سجد الشعراء في مواضع الشعر.

وأضاف: وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أنّ طبعه مناسب لطباع الأسود، ثمّ يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظه بكلام يدل على أنّ طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابسى المسوح الذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً فيكون كالمسيح في زهده. وأقسم لقد قرأت هذه الخطبه منذ خمسين سنه وإلى الآن أكثر من ألف مره ما قرأتها قط إلّوا أحدثت عندي روعه وخوفاً وعظه وأثرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعداه وكم قال الواعظون والخطباء في هذا المعنى وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفى عليه فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام(١).

واستناداً لما قيل يجدر بنا أن نتوقف عند شرحنا لهذه الخطبه على عمق كلام الإمام عليه السلام فنستفيد منها بما فيه الكفايه ونلمس آثارها في أنفسنا وأرواحنا.

وكما ورد في عنوان الخطبه فإنّ هذا الكلام في الواقع تفسير لأول آيتين من سوره التكاثر «أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ». ونلقى بادئ الأمر نظره إجماليه على تفسير الآيتين:

ذكر المفسّرون المعروفون تفسيرين لهما:

(الف) المراد أنّ تكاثركم أنساكم الله والقيامه حتى خرجتم من الدنيا وحللتهم القبور.

(ب) المراد أنّ تكاثركم وتفاخركم أنساكم الله والقيامه حتى زرتم المقابر لإثبات أفضليتكم فعددتهم قبور موتاكم فخراً على من سواكم.

طبعاً الأصح التفسير الثاني، لأنه: أولاً زياره القبور مستبعده جداً بمعنى الدفن في القبور وثانياً، لو كان التفسير الأول صحيح فلا بدّ من القول: «تزوروا القبور» أى يكون الفعل بصيغه المضارع لا الماضى، لأنّ المخاطبين أحياء.

ص: ٢٣٤

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ١٥٢ فصاعداً (بتلخيص).

يدور كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه حول المحور الثانى وهذا دليل واضح على ترجيح هذا التفسير.

فقال الإمام عليه السلام: «يَا لَهُ مَرَامًا (١) مَا أَبْعَدُهُ! وَزُورًا (٢) مَا أَغْفَلُهُ! وَخَطَرًا (٣) مَا أَفْطَعُهُ! (٤)».

نعم، فالعظام الباليه تحت التراب والأجساد المتفسخه ليس فيها ما يدعو للفخر، فما أحراهم بالاعتبار بدل هذا الافتخار وهم يرون بأم أعينهم أنهم سيحملون ليوسدوا هذا التراب وينقطعوا عن الأهل والقرابه فيفقدون من هذا السبات العميق والنوم الوييل. ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا (٥) مِنْهُمْ أَى مُدِّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ (٦) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ!».

فسير بعض الشراح العبارة «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا»: «أنهم سيدكروا من مات منذ مدّه وأصبح تراباً ففى التفسير الأوّل «اسْتَخْلَوْا» وجدوهم خالين وفى التفسير الثانى بمعنى ذكر الأموات.

ثم وبخهم توبيخاً شديداً وذمهم فقال: «أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بَعْدِيدِ الْهَلْكِ يَتَكَاثَرُونَ!».

ترى مامدى جهل الإنسان الذى يريد أن يفخر بتلك العظام النخره ويجعل أمواته فى عداد الأحياء ويعدهم من الأدله على كثرته. ثم قال: «يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوْثَ (٧)، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ».

ص: ٢٣٥

١- (١) «المرام» بمعنى الهدف والمطلوب ومن ماده «روم» على وزن «قوم» بمعنى الطلب والقصد.

٢- (٢) «الزور» بمعنى الزائر ويطلق على المفرد والجمع.

٣- (٣) «الخطر» تعنى أحياناً الأمر الخطير وأخرى الأمر المهم والمعنى الثانى هو المراد؛ أى أن هؤلاء كانوا يرون كثره قبور موتاهم مهمه والحال هذا فخر بغيض وموهوم.

٤- (٤) «أفطع» من ماده «فضاعه» بمعنى القبيح والبغيض.

٥- (٥) «استخلوا» من ماده «خلو» على وزن «غلو» بمعنى الخلو والمضى.

٦- (٦) «تناوشوا» من ماده «تناوش» ومن «نوش» على وزن «خوف» بمعنى تناول الشىء بسهولة أو بقوه والتناوش من مكان بعيد الأخذ عن بعد.

٧- (٧) «خوت» من ماده «خوى» على وزن «هوا» تعنى فى الاصل خلت وتعنى أحياناً تهدمت وهذا هو المراد بها فى العبارة المذكوره.

وأضاف: «وَلَا تَنْ يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا؛ وَلَا تَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ (١) ذَلِّهِ، أَحَجَى (٢) مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عَزِّهِ!».

فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه العبارات على هذه النقطة أنّ نظره هؤلاء للأموات مقلوبه تماماً وقد أخطأوا في مسارهم حتى عاد القبيح لديهم حسناً، فعلى هؤلاء أن ينظروا إلى الأموات بعين الاعتبار؛ ويشاهدوا أوضاع أخيارهم تحت التراب ويتأملوا مصيرهم على ضوء قانون الموت الذي لا استثناء فيه قط.

ورد في الخبر أنّه لما سار على عليه السلام بصحبه إلى صفين بلغ سابات المدائن وأطرافه (الموضع الذي كان يوماً مركز أقوى الحكومات ولكن انتهى فيه كل شيء).

فالتفت أحد أصحابه إلى آثار كسرى فأنشد قائلاً:

جَرَّتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِعَادِ

ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا المقدار فقال هلاً قرأت هذه الآيات: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ (٣)» (٤).

وخاض الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه في بيان هذا الموضوع، لم هذا الفخر على الآخرين بهذه الأجساد الميتة الخاوية بدل الاعتبار «لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِهِ جَهَالَةً».

ثم قال: «وَلَوْ اشْتَبَهَتْ قُومًا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ (٥) الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا (٦)، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا، تَطَّوُونَ فِي

ص: ٢٣٦

١- (١) «جناب» من ماده «جَنَب» الضلع واستعملت بمعنى الجانب والناحية والطرف وجناب ذلّه في العبارة بهذا المعنى.

٢- (٢) «أحجى» من «حججا» على وزن «رضا» العقل، وأحجى أعقل.

٣- (٣) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧.

٥- (٥) «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والمسكن.

٦- (٦) «ضلال» جمع «ضال».

هَامِهِمْ (١) ، وَتَسْتَنْبِتُونَ (٢) فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ (٣) فِيْمَا لَفْظُوا (٤) ، وَتَسِي كُنُونَ فِيْمَا خَرَبُوا؛ وَإِنَّمَا الْإِيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ (٥) وَنَوَائِحٍ (٦) عَلَيْكُمْ».

العباره «ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِهِ جَهَالَهُ» إشاره إلى غرقهم في بحر الجهل و «ضرب» تعطى معنى الغرق بقريته آخر هذه العباره.

والجمله «تَطْوُونَ فِي هَامِهِمْ» إشاره إلى أن أجسام الناس حين تتعفن وتصبح تراباً فإن ذلك التراب ينتقل إلى سطح الأرض بفعل بعض العوامل كالرياح والأمطار والسيول وتقلب التربه بواسطه الإنسان وهذا الإنسان الغافل يمر عليها ولا يدري ماذا يفعل، وذكر «الهام» (أعلى الرأس) كون أهم شىء في جسم الإنسان جمجمته وإلا فإن الجسد بأكمله أصبح تراباً يطأه الآخرون.

الجمله «تَسِي تَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ» إشاره إلى أن المزارعين يلقون بذورهم على الأرض الممزوجه بتراب أجساد الماضين ومع ذلك هم غافلون.

الجمله «تَرْتَعُونَ فِيْمَا لَفْظُوا» تعنى أحياناً ما ذكر وأخرى أنه تتناثر من أجسادهم قطع والمزارعون يلقون عليها بذورهم وينتفعون بشمارها.

الجمله «تَسِي كُنُونَ فِيْمَا خَرَبُوا» ربما هي إشاره إلى أنهم عاشوا مدّه في تلك البيوت فلما انتهوا ووسدوا التراب حللتم في مساكنهم وذهب بعض الشراح إلى أن

ص: ٢٣٧

١- (١) . «هام» جمع «هامه» أعلى الرأس.

٢- (٢) «تستنبتون» من ماده «نبت» على وزن «ضبط» الإنبات وتعنى الزراعة.

٣- (٣) «ترتعون» من ماده «رتع»، على وزن «قطع» تعنى فى الاصل الرعى وكثره اكل الحيوانات؛ ولكن تستعمل أحياناً بشأن الإنسان بمعنى اللعب والمرح وكثره الاكل والمعنى الثانى هو المراد فى العباره.

٤- (٤) «لفظوا» من ماده «لفظ» لفظوا وطرحوا وغالباً ما تعنى الطرح من الفم وبما أن الكلام يطرح من الفم فلذلك يطلق عليه اللفظ والمعنى الأول هو المراد فى العباره.

٥- (٥) «بواك» جمع «باكيه» تعنى فى الأصل بكاء النساء والعزاء.

٦- (٦) «نوائح» جمع «نائحه» المرأه التى تنوح والاختلاف بينهما أن النواح بكاء وصوت وألفاظ وذكر مطالب بينما البكاء مفهوم عام.

العباره «خربوا» تعنى الخلو من السكنه، وقيل المراد منه أنها خربه لتركها الذكر والعباده على غرار العمران فى الآيه الشريفه «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ» (١) الذى فسّر بذكر الله والعباده.

نعم إن هؤلاء لم يؤدوا حق المساكن وخربوها عملياً بالغرور والغفله ونسيان ذكر الله وإن كانت فى الظاهر عامره وورثوها للغفله وارتحلوا.

الجملة «وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ» إشاره لطيفه إلى هذه النقطه أنكم تبكون وتتأوهون على الأموات؛ ولكن الدهر يبيكيكم وينوح عليكم على مدى غفلتكم وجهلكم بمصيركم وتنسون أنكم ملتحقون بهم عما قريب.

ص: ٢٣٨

١- (١) . سورة التوبه، الآيه ١٨.

أُولَئِكَ سَلَفٌ غَايَتِكُمْ، وَفُرَاطٌ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا. سَلَكَوا فِي بُطُونِ الْبُرْزَخِ سَبِيلًا سَلَطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصِيبُحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا- يَنْمُونَ، وَضَمَامًا لَا يُؤَيِّدُونَ؛ لَا يُفْرِغُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفَلُونَ بِالرَّوَاغِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّبًا لَا يُتَنَظَّرُونَ، وَشُهُودًا لَا يَحْضَرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافًا فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سَقُوا كَأَسَاءَ بَدَلْتَهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْتَجَالِ الصِّفِّهِ صَرَغَى سُبَات. جِيرَانٌ لَا- يَتَيَأَسُونَ، وَأَجْبَاءٌ لَا- يَتَرَاوِرُونَ. بَلَّيْتُ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْأَخْيَاءِ، فَكَلَّهْمُ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَحْلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سِرْمَدًا، شَاهِدُوا مِنْ أخطارِ دَارِهِمْ أَفْطَحَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلَّتَا الْعَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءِهِ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفِّهِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا.

الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت

بعد أن وَبَّخَ الإمام عليه السلام بشدَّة أولئك الذين يزورون قبور موتاهم ويفخرون

بالأجساد الباليه لأخيارهم، خاض فى هذه النقطة أن مصيرهم من شأنه أن يكون عبره ودرسا وموعظه قيمه لمن يخلفهم فقال؛ «أولئكم سلف غايتكم (١)، وفراط (٢) مناهلكم (٣)، الذين كانت لهم مقاوم (٤) العز، وحلبات (٥) الفخر، ملوكا وسوقا (٦)».

التعبير «سلف غايتكم» إشاره إلى أن هؤلاء بلغوا آخر نقطه فى حياتهم التى هى الموت الذى سبقوكم إليه وعلى الخلف أن يعتبر بمصير سلفه.

العباره «فراط مناهلكم» إشاره إلى أن الناس كأنهم فى قافله ينطلقون إلى الموت فهناك طائفه تتقدم القافله وأخرى تسير خلفها. التعبير «مقاوم العز» إشاره إلى أن ذوى القدره ينبغى عليهم أن يطؤوا هذا الطريق كالآخرين.

وشبهه الناس فى العباره «وحلبات الفخر» بالذين يشتركون فى سلسله من المسابقات العظيمه والواسعه لكسب مزيد من الفخر فقد قال الإمام عليه السلام: كل أولئك سيبلغون فى الختام منزلا اسمه القبر.

ثم قال بكلمه واحده: «ملوكا وسوقا» الكل يذهبون الملوك والرعايا.

وقال لمزيد من الايضاح: «سلكوا فى بطون البرزخ سبيلا سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم».

ورغم أن البرزخ يطلق عادة الذى يتوسط الدنيا والآخره كما ورد فى القرآن

ص: ٢٤٠

١- (١). «الغايه» النهايه وتعنى هنا الموت.

٢- (٢) «فراط» من ماده «فرط» على وزن «شرط» السرعه والعجله و «فراط» جمع «فارط» تطلق غالباً على متقدم القوم إلى الماء ثم اطلق على كل من يتقدم فى أمر.

٣- (٣) «مناهل» جمع «منهل» من ماده «نهل» على وزن «أهل» موضع الشربه الأولى و «منهل» يقال لموضع ما لشرب الشاربه من النهر.

٤- (٤) «مقاوم» جمع «مقام» وقيل جمع «مقامه» وكلاهما بمعنى مجلس.

٥- (٥) «حلبات» جمع «حلبه» على وزن «دفعه» الدفعه من الخيل فى الرهان.

٦- (٦) «سوق» جمع «سوقه» على وزن «كوفه» الرعيه والناس من «سوق» على وزن «فوق»؛ لأن الرعاه يسوقونهم إلى الأهداف المطلوبه.

المجيد: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١) ولكن البرزخ هنا يعنى القبر بقريته العبارات التي أعقبتها كما ورد في الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْبَرْزَخُ الْقَبْرُ» (٢) طبعاً أحياناً القبر بمعناه المادى من قبيل ما ورد في هذه الخطبه وأحياناً أخرى بمعناه غير المادى من قبيل ماورد في الحديث المشهور: «الْقَبْرُ إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيرانِ» (٣).

ثم قال موضعاً أكثر: «فَأَصْدَبُحُوا فِي فَجَوَاتِ (٤) قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ، وَضَمَارًا (٥) لَا يُؤَجِدُونَ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزِنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفَلُونَ (٦) بِالرَّوَاكِيفِ (٧)، وَلَا يَأْذُنُونَ لِلْقَوَاصِفِ (٨). غُيْبًا لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشْتَتُوا، وَآلِفًا (٩) فَافْتَرَقُوا».

ما ورد في هذه العبارات الملهبه إشاره بالظاهر لجسم الأموات، وإن كانت لأرواحهم في العالم الآخر احساس وخوف ورعب وهم وحزن.

نعم ففي لحظه يغمض الإنسان - اليقظ والضاحك أو المهموم المحزون النشط أو الكسل - عينيه عن الدنيا وتنتهى عنده جميع ظواهر الحياه حتى يتحول إلى حجره خاليه من الروح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى فقال: «وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعِيدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَّتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصِيَمَتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سَقُوا كَأَسَا بَدَلْتَهُمْ بِالنُّطْقِ

ص: ٢٤١

١- (١) . سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٧.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٢١٤؛ صحيح الترمذى، ج ٤، كتاب صفه القيامة، باب ٢٦، ح ٢٤٦٠.

٤- (٤) . «فجوات» جمع «فجوه» الموضع الواسع ويعنى الفرجه وورد هنا بمعنى شق القبر.

٥- (٥) . «ضمار» الغائب أو المال الذى لا يؤمل رجوعه ومن ماده «ضمم» على وزن «امر» بمعنى الإخفاء.

٦- (٦) . «يحفلون» من ماده «حفل» تجمع الأفراد وورد بمعنى اللامبالاه بالشيء و «لا يحفلون» هنا تعنى لا يباليون.

٧- (٧) «رواجف» جمع «راجفه» الزلازل ومن ماده «رجف» على وزن «ربط» بمعنى الاضطراب والزلازل الشديده.

٨- (٨) «قواصف» جمع «قاصف» بمعنى الرياح والعاصفه العاتيه ومن ماده «قصف» على وزن «وصف» الكسر.

٩- (٩) «آلاف» جمع «أليف» بمعنى من يتعلق بالشيء ومن ماده «إلفه».

خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالٍ (١) الصَّفْهِ صَرَغِي (٢) سُبَاتٍ (٣)».

يالها من عبارات بليغة وموقظة وكلمات مؤثره وعميقه! نعم! فقد نسوا حتى كأنهم ابتعدوا عنا قرونًا وانطفأت مساكنهم وكأنهم غادروها منذ سنين مديدة في حين ربّما تجرعوا كأس المنون في لحظه وانتهى كل شيء.

وأضاف في عبارات أخرى عميقه المعنى وموقظه: «جِيرَانٌ لَا يَتِيَانُونَ، وَأَجْبَاءٌ لَا يَتَرَاوِرُونَ. بَلِيَّتٌ يَبْنِيهِمْ عُرَا (٤) التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِحَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً. أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعُنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا».

نعم كل شيء لهؤلاء يختلف عن الأحياء؛ بيوت قبورهم الواحد يلاصق الآخر دون أن يخبر أحدهم بالآخر أو يزوره؛ إنهم مجتمعون مع بعضهم في الداخل مع ذلك كأنهم مقاطعون لأحدهم الآخر؛ إن غادروا الدنيا ليلاً فسوف لن يروا طلوع الشمس قط وإن غادروها نهاراً لم يروا ظلمه الليل أبداً وفي هذا أنشد الشاعر:

لَا بَدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلَا لَيْلِهَا وَ لَيْلِهِ تَأْتِي بِلَا يَوْمٍ

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى جانب آخر من أحوال الموتى وأرواحهم عند مشاهدته العذاب الإلهي والثواب العظيم فقال: «شَاهَدُوا مِنْ أخطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَعَ (٥) مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَغْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلَّمْنَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءِهِ (٦)، فَاتَتْ مَبَالِغَ

ص: ٢٤٢

١- (١). «ارتجال» بيان مطلب بدون مطالعه مسبقه ومن ماده «رجل» على وزن «أجر» المشى على القدمين واطلقت بهذا المعنى على المبدع الذى يرتجل الكلام وكأنه يمشى على رجليه.

٢- (٢) «صرعى» جمع «صريع» الشخص أو الجنازه الملقاه على الأرض ومن جمع «صرع» على وزن «فرع» الالتقاء على الأرض.

٣- (٣) «سبات» من ماده «سبت» القطع والقص ثم وردت بمعنى الاستراحة بعد العمل ومن هنا يقال للنوم سبات.

٤- (٤). «عرى» جمع «عروه» القبضه.

٥- (٥). «أفطع» من ماده «فطع» على وزن «جزع» بمعنى أخوف وأرهب.

٦- (٦). «مباءه» بمعنى المنزل تعنى فى الأصل الموضوع الذى تعود إليه الجمال ومن ماده «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق.

الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا(١) بِصِفِهِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا».

الواقع أن ما بينه الإمام عليه السلام هنا ما جاء صراحه في الخطبه ١١٤ من «نهج البلاغه»: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عَيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عَيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ».

ودليل ذلك واضح، فعالم الآخرة غايه في السعه والكبر وإذا ما قورن بالدنيا كان كالدنيا بالنسبه لعالم الجنين في رحم امه.

ص: ٢٤٣

١- (١) «عيوا» من ماده «عَيَّ» على وزن «حَيَّ» العجز.

وَلَيْسَ عَمِيَّتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النَّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتْ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَّتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَيْسِنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَ دَنَا ضَبِقِ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَتْنا الْوَحْشَهْ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَمَا نَمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَهْ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبِ فَرَجًا، وَلَا مِنْ ضَبِقِ مُتْسِعًا! فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَيْتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتْ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَّاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَتْ فِي كُلِّ جَارِحِهِ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلَى سَمَّجَهَا وَسَهَّلَ طُرُقَ الْإِفْهِ إِلَيْهَا، مُسْتَسِيلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْرَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْدَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فِطَاعِهِ صِفَهُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَعَمْرَهُ لَا تَنْجَلِي.

الشرح والتفسير: أحوال الأموات!

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه، وضع الأموات ومتوسدى القبور بيان بليغ ومؤثر فقال: «وَلَيْسَ عَمِيَّتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النَّطْقِ».

ففي الواقع أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أمرين: أن الاستخبار عنهم ليس

بالطرق العاديه (كالبصر والسمع)، بل بطرق أعمق وأقوى من خلال بصيره القلب وسمع العقل، كما أن تكلمهم ليس بلسان القول، بل بلسان الحال الأعمق آثاراً، فلسان القول قد يشوبه الكذب الذى لا مجال له للسان الحال.

ولنرى الآن ما يقولون بهذا اللسان؟ يشير الإمام عليه السلام إلى طبيعه كلامهم: «فَقَالُوا:

كَلَحَتْ (١) الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ (٢) ، وَخَوَتْ (٣) الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبَسْنَا أَهْدَامَ (٤) الْبَلَى، وَتَكَأَدْنَا (٥) ضَيْقُ الْمَضْجِعِ، وَتَوَارَتْنَا الْوُحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ (٦) عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الضُّمُوتُ (٧)».

نعم! يتحدثون أحياناً عن مصير أبدانهم وأخرى عن مواضعهم. الأبدان الذابله بدايه، الوجوه العابسه، ومن ثم تحللها، وبالتالي تفسخها واستحالتها إلى تراب، القبور الضيقه والمظلمه والبارده الساكنه وقد سيطرت عليهم أجواء الرعب فسادهم الصمت التام.

ثم قال: «فَانْمَحَتْ مَحَارِسُنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوُحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرْجاً، وَلَا مِنْ ضَيْقٍ مُتَّسِعاً!».

نعم! فالوجوه النظره الجميله والمعروفه والمساکن الواسعه والفاربه التى قلبت رأساً على عقب بحلول الموت، فتبدلت تلك المنازل الجميله الفاربه إلى قبور مقفره مظلمه، وتلك الوجوه الناعمه لم تفقد نضارتها وحيويتها فحسب؛ بل تحولت إلى أشباح موحشه.

ومن هنا قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى كلمه موجزه موقظه: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا إِلَّا وَالْقَبْرُ

ص: ٢٤٤

١- (١) . «كلحت» من «الكلوح» على وزن «طلوع» الوجه العابس والمقطب.

٢- (٢) «نواضر» من «نضره» على وزن «دفعه» الحسنه الباسمه المتفتحه.

٣- (٣) «خوت» من «خواء» بمعنى تهدمت وتلاشت.

٤- (٤) «اهدام» جمع «هدم» على وزن «حرص» الثوب البالى والمرقع.

٥- (٥) . «تكاؤدنا» من «التكاؤد» المشقه ومادته «كأد» على وزن «رعد».

٦- (٦) «تهكمت» من «التهكّم» السقوط فى بئر وما شابه ذلك أو التهدم.

٧- (٧) «الضموت» السكوت وفى العبارة مصدر له معنى وصفى.

ثم سعى الإمام عليه السلام ليكشف لمخاطبيه أوضاعهم في القبور بعبارات حيّه فقال:

«فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْعِطَاءِ لَمَكَ، وَقَدِ ارْتَسَيْتَ (٢) أَسْمَاعُهُمْ بِالْهُوَامِ (٣) فَاسْتَكَّتْ (٤) ، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسِفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعِيدَ ذَلَالَتِهَا (٥) ، وَهَمِدَتْ (٦) الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعِيدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَتْ (٧) فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلِيٌّ (٨) سَمَّجَهَا (٩) وَسَهَّلَ طُرُقَ الْأَفْهِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ (١٠) قُلُوبٍ، وَأَقْدَاءَ (١١) عُيُونٍ».

صحيح بقبض الروح يتوقف كل شيء؛ لكنه مادام سالماً فإن له القابلية لاستعادته نشاطه لو فرض عوده الروح إليه؛ ولكن يفقد كل شيء بعد تعفنه وتلاشيه، ولذلك صرح الإمام عليه السلام: توقف الحشرات أسمعهم عن العمل والتراب أبصارهم وألستهم عن النظر والنطق.

ثم أكمل كلامه بعباره بصيغه خلاصه فقال: «لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٌ لَا تَنْتَقِلُ، وَعَمْرُهُ (١٢) لَا تَنْجَلِي».

ص: ٢٤٧

- ١- (١) سنن الترمذى، ج ٣، ص ٣٧٩؛ ميزان الحكمه، ماده «قبر»، ح ١٦٢٥١.
- ٢- (٢) . «ارتسخت» من «الارتساخ» المبالغه فى الرسخ ومن «الرسوخ» النفوذ.
- ٣- (٣) . «هوام» جمع «هامه» الحشرات السامه؛ كالحيه وتطلق على كل نوع حشره.
- ٤- (٤) «استكتت» من ماده «سكك» على وزن «حكك» بمعنى صمت.
- ٥- (٥) . «الذلاقه» الحده؛ ثم استعملت بمعنى اللسان وسرعه النطق ويقال: خطيب ذلق للمتكلم الفصيح والبلغ.
- ٦- (٦) «همدت» من «الهمود» على وزن «سجود» تعنى فى الأصل انطفاء النار. ثم استعملت بمعنى السكوت والسكون والتوقف عن العمل.
- ٧- (٧) «عاثت» من ماده «عيث» على وزن «حيف» أفسد كما ورد بمعنى التبذير والمعنى الأول هو المراد فى العبارة.
- ٨- (٨) . «جديد بلي» هنالك نوع من صناعه البديع فى العبارة من خلال كلمه جديد والتي تقابل البالى بصيغه مضاف ومضاف إليه ومعناه الفساد الجديد.
- ٩- (٩) «سمج» من «السماجه» القبيح والمنفر و «سمج» على وزن «خشن» تطلق على من ينشد شيئاً بطريقه قبيحه.
- ١٠- (١٠) «أشجان» جمع «شجن» على وزن «كفن» الهموم.
- ١١- (١١) «اقداء» جمع «قذى» على وزن «سجى» ما يسقط قى العيون ويؤذيها من أجسام صغيره والتي تظهر كل ساعه على جسد الميت.
- ١٢- (١٢) «عمره» تعنى فى الأصل الماء الجارف الذى يغطى الأشياء ثم اطلق على كل أمر شديد.

إشاره إلى أنّ مصيبتهم الكبرى أنّ هذه الأحوال لا تزول عنهم، بل تشدد عليهم كلّ يوم؛ وتعاستهم أن ليس أمامهم من مستقبل واضح، وكلما تقادم عليهم الزمان كلّما تأكلت أجسامهم أكثر وبلت عظامهم.

ص: ٢٤٨

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدِي، وَأَنِيْقِ لَوْنِي، كَانَ فِي الدُّنْيَا عَدِيَّ تَرْفِي، وَرَبِيبِ شَرْفِي! يَتَعَلَّلُ بِالشُّرُورِ فِي سَاعِهِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبُهُ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنَا بَغْضَارِهِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَهُ بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشِ غُفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسِيكَهُ وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُتُوفُ مِنْ كَثْبِ فَخَالِطِهِ بَثُّ لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيَّتِي هَمَّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتْرَاتُ عَمَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصَةِ حَتِيَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطِبَاءُ مِنْ تَسْيِكِينَ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا تَوَّرَّ حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَبَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ لِنَتَلِكِ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمِيدًا مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ؛ حَتَّى فَتَرَ مُعَلَّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصَةِ فَهٍ دَائِهِ، وَخَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّتِي خَبِرَ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لَمَّا بِهِ، وَمَمَّنُّ لَهُمْ إِيَابُ عَافِيَّتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُدَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِيَةِ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الْأَحْبَبِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصْبِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فُطْنَتِهِ، وَبَسَّتْ رُطُوبُهُ لِسَانَهُ. فَكَمْ مِنْ مُهَمِّ مِنْ حَيْوَانِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَايَا مُؤَلِّمِ بَقْلِهِ سَمِعَهُ فَتَصَيَّامًا عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَمَا يُعْظَمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَمَا يَزُحِمُهُ! وَإِنَّ لِلْمَيُوتِ لَعَمْرَاتٍ هِيَ أَفْطَحُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرِقَ بِصَفِهِ، أَوْ تَعْتَدَلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

أشار الإمام عليه السلام هذا المتكلم البليغ الفصيح الفريد، في آخر مقطع من هذه الخطبه إلى جوانب أخرى من قضيه الموت ونهايه الحياه وعقباته ليجزها في أربع مراحل فقال أولاً: «فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيرٍ (١) جَسَدٍ، وَأَنِيْقٍ (٢) لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَدِيًّا (٣) تَرَفٍ، وَرَبِيْبٍ (٤) شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ (٥) بِالسُّرُوْرِ فِي سَاعِهِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ (٦) إِنْ مُصِّبَتْهُ نَزَلَتْ بِهِ، ضَمًّا (٧) بَغْضَارِهِ (٨) عَيْشِهِ، وَشَحَاحَهُ (٩) بِلَهْوِهِ وَلَعْبِهِ!».

وهذا الكلام إشاره دقيقه لمن اعتادوا الحياه الهانئه المرفهه والعيش الرغيد والنعمة الوافره، الذين يسعون حين نزول المصائب الخروج من ذلك عن طريق أنواع اللعب وقد نسوا كل ما من شأنه إيقاظهم وهدايتهم وهذا بحد ذاته مصيبه عظمى فى أن يلود الإنسان بعوامل السكر والجهل والغفله؛ لكن الأحداث المريره لاتنساهم، وبالتالي فإن الأرض سوف تبتلعهم.

نعم، «فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ (١٠)؛ إِذْ وَطِئَءَ

ص: ٢٥٠

- ١- (١). «العزير» تعنى فى الأصل القوى والقادر ويلزمه نفي الذل عن الإنسان؛ ولكن لم يتضح لم فسرها بعض الشراح بالجمال.
- ٢- (٢) «أنيق» جميل والماء الحسن والطيب الطعم.
- ٣- (٣). «غدي» من «الغذاء» بمعنى الطعام و «غدي ترف» والمراد أنه تغذى بالنعمة على أساس «ترف» التى تعنى النعمة.
- ٤- (٤) «ربيب» من ماده «رَبَّ» التربيه والتدبير، وعليه «ربيب شرف» من تربي فى أحضان العزه والاحترام.
- ٥- (٥) «يتعلل» من «تعلل» يتناسى ويتشاغل.
- ٦- (٦). «سلوه» المعيشه الطيبه.
- ٧- (٧) «ضن» البخل الشديد.
- ٨- (٨) «غضاره عيش» الحياه المفعمه بالنعمة.
- ٩- (٩) «الشحاحه» البخل وقيل: أعلى درجه البخل. فالبخيل من يبخل عما فى يده، أما الشحيح فيبخل بما فى يده وما فى أيدى الناس.
- ١٠- (١٠). «غفول» من ماده «غفلت» الذى يغفل أو يوجب الغفله.

الدَّهْرُ بِهِ حَسَكُهُ (١) وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ (٢) مِنْ كَثَبٍ (٣) فَخَالَطَهُ بَثٌّ (٤) لَا يَغْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ (٥) هَمٌّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتٌ عِلَلٌ، آتَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ».

إشاره إلى أنّ هؤلاء الجهال مهما سعوا للتناسى إزاء المصائب والضحك على الدوام على الدنيا فإنّ الدنيا هي الأخرى تضحك عليهم؛ ولكن سرعان ما يباغتهم الموت فتفنى قواهم وطاقتهم الواحده تلو الأخرى، فالعين تعشو وتضعف، والأذن تنقل والعظام تنحف والأعصاب تنهك وتعجز، وتهجم عليهم أنواع الأمراض فيدق العالم في آذانهم أجراس الموت.

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا في الواقع إلى انحلال قوى الإنسان أولاً، وظهور الأمراض إثر ذلك والتي تعدّ الخطوه الأولى نحو الموت.

ثم أتجه صوب الخطوه الثانيه في رجوعه دائماً إلى الأطباء وتناول أنواع الدواء وانعدام تأثيرها فقال: «فَفَزَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطْبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ (٤)، وَتَخْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوْرًا (٧) حَرَارَةً، وَلَا حَرَكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيْجَ بُرُودَةٍ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ (٨) لِتَلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ دَاءً».

ص: ٢٥١

- ١- (١) . «حسكه» من ماده «حسك» على وزن «فدك» نبات ذو أشواك يؤذى الإنسان بشده وورد بمعنى البغض والكره والمعنى الأول هو المراد هنا.
- ٢- (٢) «حتوف» جمع «حتف» الموت.
- ٣- (٣) «كثب» من ماده «كثب» على وزن «كسب» بمعنى الاقتراب.
- ٤- (٤) . «بثّ» الحزن الشديد. ووردت بمعنى السعه والتناثر والانتشار والمراد هنا المعنى الأول.
- ٥- (٥) «النجي» الخفى والمستور ومن «نجوى» الهمس فى الأذن.
- ٦- (٦) . «قار» بارد من ماده «قر» على وزن «حر» البروده.
- ٧- (٧) . «ثور» من ماده «ثوران» الهيجان.
- ٨- (٨) «ممازج» الأشياء التى تمزج مع بعضها.

نعم! فإن حلَّ الأجل زالت اسباب الصحة والسلامة ولم يعد هنالك من أثر للدواء، وعاده ماتكون نتيجته معكوسه فيعيب الأطباء وليس للمريض من سبيل سوى السير إلى الموت.

ما ورد هنا في عبارات الإمام الدقيقه إشاره للتقسيمات التي كانت متداوله في الطب القديم حيث كان الأطباء آنذاك يعتقدون بأربعة أنواع من الأمزجه: المزاج الحار، المزاج البارد، المزاج الرطب، والجاف، وهنالك أربعة أمزجه مركبه من زاويه أخرى: المزاج الحار والرطب (الذى يسمى الدموى) والمزاج الحار والجاف (الصفراوى) والمزاج البارد والرطب (البلغمى) والمزاج البارد والجاف (السوداوى).

طبعاً هذه الأمزجه إن كانت في حد الاعتدال لاتقدح بالصحة، ولأصحابها جميعاً باختلافهم الكثير حياه طيبه؛ ولكن إن غلبت إحدى هذه الأمزجه (الحراره، البروده، الرطوبه والجفاف) فلا مناص من التعامل بالعوامل المخالفه لإعادته إلى اعتدال المزاج؛ فالحراره تسكن بالبروده والبروده تحرك بعوامل الحراره والرطوبه توازن بالجفاف والجفاف يعدل بالرطوبه.

كل هذا التأثير حين لا يختل الأمر وإلا فليس هنالك أدنى تأثير.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى المرحله الثالثه وهى مرحله اليأس من عوده السلامه وانتظار نهايه العمر عن قريب: «حَتَّى فَتَرَ مُعَلَّلًا (١)، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ (٢)، وَتَعَايَا (٣) أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ».

وكأنَّ الإمام عليه السلام كان حاضراً عند هؤلاء المرضى وأسرهم فهو يتابع عن كذب حالاتهم فالطبيب يظهر عجزه والممرض يبدى تعبهُ وأسرته لا تدرى ما تقول للناس، إذا قالت: صحته أحسن، فذلك غير صحيح، وإذا قالت: أسوأ، فهذا متعب فلا مناص لها من الصمت وتجب بنظرات العيون المليئه باليأس.

ثم قال عليه السلام: «وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيًّا (٤) خَبِرَ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ،

ص: ٢٥٢

١- (١). «معلل» المعالج واخذت في الأصل من «عله» بمعنى المرض.

٢- (٢) «ممرّض» من ماده «مرض» المعالج.

٣- (٣) «تعايا» من ماده «عَيَّ» العجز.

٤- (٤). «شجّي» الغم من ماده «شجو» على وزن «هجو» الهم والغم.

وَمَمَّنْ لَهُمْ إِيَابٌ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى (١) الْمَاضِيْنَ مِنْ قَبْلِهِ».

وأخيراً بين الإمام عليه السلام رابع وآخر مرحلة حياه هذا المريض. حين يكون على اعتاب الموت والتأهب لسفر الآخرة ومغادره هذا العالم فقال: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَزُوكِ الْأَحْبَبِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَيِّ صِهٍ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ، وَبَيَسَتْ رُطُوبُهُ لِسَانَهُ».

ثم قال مواصلاً كلامه: «فَكَمِّ مِنْ مُهَمِّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَمَّى عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ (٢) عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظَمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَزْحَمُهُ!».

نعم! وفي هذه الحاله حيث يعلم بحلول أجله ونهايه عمره يغط في التفكير في الأموال التي أخفاها أو الديون على الآخرين ويريد إبلاغها الورثه أو يريد أن يحدث أهله عن قضايا الدفن وموضع القبر فلا يسعه الكلام.

أشار ابن أبي الحديد هنا إلى قصه فيها عبره حيث أنه شهدها آنذاك وهي أن أحدهم حضرته الوفاه فأراد الوصيه فانعقد لسانه فأشار إلى القلم والدواه ليكتب فاضطربت يده فكتب كلاماً غير مفهوم حتى توفي (٣).

واختتم الإمام عليه السلام خطبته العظيمه الموقظه بهذه العبارة فقال: «وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَعَمْرَاتٍ (٤) هِيَ أَفْطَحُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرَقَ بِصَفِهِ، أَوْ تَعْتَدَلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا».

نقل المرحوم العلامه التستري في شرحه لنهج البلاغه حديثاً عن كتاب «الكافي» عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ فِتْنَةَ مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانُوا مُتَعَبِّدِينَ وَكَانَتْ الْعِبَادَةُ فِي أَوْلَادِ بَنَى إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّهُمْ خَرَجُوا يَسِيرُونَ فِي الْبِلَادِ لِيَعْتَبَرُوا فَمَرُّوا بِقَبْرِ عَلِيٍّ ظَهَرَ الطَّرِيقَ قَدْ سَفَى عَلَيْهِ السَّافِي، لَيْسَ يُبَيِّنُ مِنْهُ إِلَّا

ص: ٢٥٣

١- (١) «أَسَى» الغم والحزن ووردت في بعض النسخ «أسى» (بضم الهمزه) جمع «أسو» بمعنى الأسوه والمعنيان مناسبان في الخطبه.

٢- (٢) «فتصام» من ماده «صم» طرش الاذن و «تصام» تظاهر بالصمم.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٦٧.

٤- (٤) «عمرات» جمع «عمره» مضى معناها في الفقره السابقه.

رَسَمُهُ، فَقَالُوا: لَوْ دَعَوْنَا اللَّهَ السَّاعَةَ فَيُنْشِرَ لَنَا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ، فَسَأَلْنَاهُ كَيْفَ وَجَدَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَدَعَا اللَّهَ... فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبْرِ رَجُلٌ أبيضُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ التُّرَابِ فَزَعَا شَاحِصًا بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا يُوقِفُكُمْ عَلَى قَبْرِي؟ فَقَالُوا: دَعَوْنَاكَ لِنَسْأَلَكَ كَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَقَالَ: لَهُمْ لَقَدْ سَكَنْتُ فِي قَبْرِي تِسْعَةَ وَتَسْعِينَ سَنَةً مَا ذَهَبَ عَنِّي أَلْمُ الْمَوْتِ وَكَرْبُهُ وَلَا خَرَجَ مِرَارَةً طَعْمَ الْمَوْتِ مِنْ حَلْقِي...» (١).

تأمل: ممز يرده الجميع

قيل وقلنا كراماً إن الإنسان إن شك في كل شيء ليس له أن يشك في أنه سيغادر يوماً هذه الدنيا ويشرب راغباً أو مرغماً كأس المنون. كما أن كل جنين مهما كان شكله وصورته لابد أن يمر يوماً برحم الأم ويطأ هذه الدنيا، وكل فاكهه لابد يوماً أن تسقط من الشجرة وتقطف. والإنسان شاء أم أبى لابد أن يشهد الموت.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يرغب البعض بسماع اسم الموت؟ لم يسعون لنسيان هذه الحقيقة التي لا تنساهم؟!

والأهم من كل ذلك مقدمات الموت ونتائجه؛ فالحالات العجيبه التي رسمها المولى أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبه بتلك الدقه كصوره حيّه، وصدى الموت الذي اسمعه كل إنسان مستعد لمغادره هذه الدنيا ولاسيما من حوله، حيث يبدو أن الهدف الأصلي للإمام هو إيقاظ الغافلين وهزّ الثملين من الغرور والأنانيه والعجب والأهواء، والحق والإنصاف أن الإمام عليه السلام أعطى الكلام حقّه بهذا الخصوص وقال كل ما ينبغي أن يقال بحيث لا يقرأه غافل أو جاهل إلّا أيقظه وبلغ منه تأثيره.

ص: ٢٥٤

قال الإمام عليه السلام فى حديث آخر: «ما رأيت إيماناً مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان، إنه كل يوم يودع إلى القبر ويشيع، وإلى غرور الدنيا يرجع وعن الشهوة والذنوب لا يقلع» (١).

بالمقابل نعرف أفراداً هبوا للقاء الموت وابتسموا للأجل ولم يكن لسكرات الموت عندهم من معنى وكأنهم كمن يتطلع لعزير فكانت هذه حالتهم أواخر عمرهم. والنموذج الواضح لذلك شخص الإمام عليه السلام الذى قال فى كلامه المعروف فى «نهج البلاغه»: «لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بتدى امه» (٢).

جدير ذكره أنه ورد فى الأحاديث الإسلاميه أن موت المؤمن الصالح يختلف عن موت الآخرين. قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «صفت لنا الموت» قال: «للمؤمن كطيب طيب يشمه فينعمس لطيبه وينقطع التعب والألم عنه وللكافر كلسع الأفاعى ولمدغ العقارب وأشد» (٣).

لا شك فى أن عدم تعلق المؤمن بزخارف الدنيا، وبالعكس تهافت الملحدىن عليها هو الذى يؤدى إلى الاختلاف المذكور وإن كان هنالك تأثير فى هذا الأمر لالطاف الله ومشاهدات المؤمن بالنسبه للنعم التى تنتظره وبالعكس مشاهدات الكافر والعذاب الذى ينتظره.

ص: ٢٥٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٧، ح ٤٠.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٥.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٧٢، ح ٥٠.

قاله عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١) * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ

وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ (٢)» (٣).

نظرة إلى الخطبه

هنالك عدّه أقسام مهمّه في هذه الخطبه:

القسم الأول: يبين الإمام عليه السلام أهميّة ذكر الله في كلّ شيء وخاض في آثارها على روح للإنسان ونفسه ليشرحها بعبارات مؤثره.

وأشار في القسم الثاني إلى حمله الأذكار في كلّ عصر ومصر ومواعظه في كيفية انقاذ عباد الله من الانحراف ويضيء طرقهم بمصابيح نوره البيّنات.

وجرى الكلام في القسم الثالث عن صفاتهم وتولّيتهم عن زخارف الدنيا

ص: ٢٥٧

١- (١) «آصال» جمع «أصل» على وزن «رسل» وجمع أصيل من ماده أصل بمعنى العصر أو آخر النهار لأنّه يعتبر أصل الليل.

٢- (٢) سورة النور، الآيتان ٣٦ و ٣٧.

٣- (٣) سند الخطبه: ذكر الآمدى في حرف الألف من «غررالحكم» المقطع الأول من هذه الخطبه باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغه»، ولم يرد مصدر آخر لهذا الجانب من الخطبه، ويدل الاختلاف على أنّه أخذها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه».

(مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٥١).

واجتناب المعصيه ومناصره العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وشرح فى القسم الرابع أحوالهم فى القيامه عند نشر صحف الأعمال وحشر العباد للحساب والحديث عن حسن عاقبتهم والنتائج الباهره لأعمالهم الصالحه.

وأمر فى القسم الخامس مخاطبيه بحساب أنفسهم وإصدار الحكم على أعمالهم.

ص: ٢٥٨

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْفَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظِهِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكَّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوَّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلِهِ الْأَدْلِهِ فِي الْفَلَوَاتِ.

مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاهِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدْلَهُ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

الشرح والتفسير: أدله السائرین علی الطريق

لابد بادئ الأمر من معرفه تفسير آيه سوره النور ليتضح الكلام العميق للإمام عليه السلام في شرحه للموضوع.

تحدث القرآن المجيد في الآيه ٣٥ من سوره النور: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» عن نور الله وشرحه بمثال لطيف يتضمن العديد من الأمور التعليميه ثم قال في الآيات التاليه: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَاتُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (١).

ص: ٢٥٩

من الواضح أنّ هؤلاء الرجال بالدرجة الأولى هم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم المخلصين السائرين على نهجهم.

ونخوض بعد هذه الإشارة الاجمالية في شرح الخطبه، قال الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبه: «إِنَّ اللَّهَ سُيِّحَانُهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ (١) جِلَاءً (٢) لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرِ (٣)، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ (٤)، وَتَتَّقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ».

نعم! هنالك آثار عجيبة للذكر إن اقترن بالفكر. فإذا ذكر الإنسان اسم الله بعظمه وعدد صفاته الجماليه والجلاليه من علم وقدره وسمع وبصر ومقام الرحمانيه والرحيميّه ومراقبته بالنسبه لعباده، زالت عن بصيرته حجب الغفله ورأى الحق واضحاً، وتخدم لجاجه الأهواء والشهوات فيسمع بأذن روحه خطاب أولياء الله والدعاه إلى مرضاته ونتيجه ذلك الانقياد التام لأوامر الله.

ذهب بعض الشراح أو احتملوا أنّ المراد من الذكر في العبارة، القرآن المجيد بقريته ما أورده القرآن بشأنه فقال: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ» (٥) ولكن الحق أنّ للذكر مفهوم عام، أحد مصاديقه البارزه الآيات الشريفه للقرآن.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَمَا بَرِحَ (٦) اللَّهُ عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي التُّبْرَهَةِ (٧) بَعْدَ التُّبْرَهَةِ، وَفِي

ص: ٢٤٠

١- (١). «ذكر» المراد به هنا ذكر الله وهو على ثلاثه أنواع: القلبى، اللسانى والعملى فيتذكر الله حين تتوفر مقدمات المعصيه فيتركها. وقيل: الذكر يشمل ذكر الله وكذلك القيامه والنبوه والولايه.

٢- (٢) «جلاء» إزاله الصدأ والايضاح والإناره. ويقال للكحل جلاء كونه ينور العين.

٣- (٣) «وقره» من ماده «وقر» تعنى فى الأصل الثقل، ومن هنا يقال لتعظيم الأفراد توقير، وقد استعمل الوقر فى القرآن الكريم بمعنى ثقل السمع وهذا هو المعنى المراد هنا.

٤- (٤) «عشوه» ضعف العين.

٥- (٥). سوره الأنبياء، الآيه ٥٠.

٦- (٦). «ما برح» دائماً وأبداً.

٧- (٧) «برهه» الزمان الطويل أو مدّه من الزمان.

أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عَيَّادًا نَاحِيَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلْمِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَضَى بِنُورِ يَقْظِهِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْتِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلِهِ الْأَدْلَى فِي الْفَلَوَاتِ (١)».

ربّما هذا التعبير إشارة لأوصياء الأنبياء المتواجدين طيله الفترات الزمنية ويستلهمون الحقائق الربانية عن طريق الإلهامات القلبية ويوصلونها إلى العباد.

كما يمكن أن تكون إشارة إلى الصالحين والمخلصين والعارفين والبصيرين غير الأنبياء والأوصياء الذين يعيشون بين الناس في كل زمان؛ فهؤلاء أيضاً يقفون على الصراط المستقيم بالإلهام الغيبي والتأييد الرباني ويسعون لهدايه الآخرين، ولعلها تشمل الفريقين.

والتعبير بـ «أدله» جمع دليل إشارة إلى ما كان سائداً في الأسفار في الأزمنة الماضية، فلم تكن الطرق مشخصة آنذاك كما هي عليه اليوم، فيمر بها المسافر ويصل المقصد، ومن هنا فإنّ القوافل تحمل معها عارفين بالطريق حتى لا يضلوا الطريق ويطلق عليهم «الأدله». فهؤلاء الأولياء في الحياه الدنيا كأدله الطريق الذين يهدون قافلة بشرية من الضلال وينقذونهم من الهلكه.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ الْقُضْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاهِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا دَمُوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ».

نعم! فهؤلاء يراقبون بنى جنسهم على الدوام؛ فيشجعون السائرين على الدرب ويشدون عزائمهم ويحذرون المنحرفين ويذمونهم ويصرخون بهم حتى لا يواصلوا طريق الانحراف فيهلكوا.

ثم قال في استنتاج لما ورد في العبارات السابقه: «وَكَاثُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدْلَى تِلْكَ الشُّبُهَاتِ».

نعم! فهناك الظلمات المعتمه في مسيره الحياه الدنيا والطرق المضله وكلاهما خطر على السالكين، ووجود أولئك الأولياء مصابيح للدجي والأدله على ذلك الطريق الخطير.

ص: ٢٤١

١. ما المراد من أيام الله؟

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه إلى أنّ أولياء الله يذكرون الناس بأيام الله. طبعاً كلّ الأيام هي أيام الله وكل موضع بيته وفي نفس الوقت ليس له يوم ولا- بيت فهو اسمى من الزمان والمكان؛ ولكن كما سميت الكعبه كونها اعظم مركز للعباده «بيت الله»، فإنّ هناك بعض الأيام الخاصه التي تلاءمت لما تحمله من حوادث مهمه.

قال البعض: «أيام الله» إشاره إلى غلبه الأنبياء لجيوش الشرك والكفر. وقال البعض الآخر: أيام العباده كأيام الشهر المبارك وأيام الحج، ما ورد في تاريخ بنى إسرائيل وموسى أنّه أمر أن يذكر بنى إسرائيل بأيام الله في إشاره إلى يوم النصر على فرعون والنجاه من البحر وما شابه ذلك، ولكن جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير «أيام الله»: «يُرِيدُ بِأَيَّامِ اللَّهِ سُنَّتَهُ وَأَفْعَالَهُ فِي عِبَادِهِ مِنْ إِنْعَامٍ وَأَنْتِقَامٍ»^(١).

وطبق هذه الروايه فإنّ كلّ يوم يلمس فيه العبد نعمه من نعم الله أو ينتصف فيه من الأعداء إنّما يعتبر من أيام الله.

على كلّ حال فإنّ ذكر ايام الله عامل تكامل الإيمان وآثاره حسن الشكر والتوجه إلى الله.

حتى أيّام البلاء الربّاني عدّت في الروايه من أيّام الله كما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَيَّامُ اللَّهِ نِعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ وَمَثَلَاتُهُ سُبْحَانَهُ»^(٢). لا شك في أنّ لمفرده أيام الله في هذه الخطبه مفهوم عام يشمل كلّ ما ذكر سابقاً.

ص: ٢٤٢

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٢٧.

٢- (٢) . المصدر السابق، ج ٦٧، ص ٢٠.

العبارة «عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ...» أشار فيها الإمام عليه السلام إلى رجال ألقى الله في قلوبهم نور الهدى عن طريق النجوى الفكرية والإلهامات القلبية وطرح عنهم حجب الجهل والظلمة فسعوا بما يتلقون من هدى لهدايه الخلق وإرشاد ضالى سبيل الإيمان والتقوى.

فهل هؤلاء هم الأوصياء والأئمة المعصومون عليهم السلام الذين يتلقون الحقائق من عالم الغيب عن طريق الإلهام في فترات بعثه الأنبياء، أم يشمل الصالحين من الأفراد الذين بلغوا قمة الورع والتقوى؟

أى أن قلوبهم مرتبطة بعالم الغيب كما هو به مضمون «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» (١). ومضمون «وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (٢).

والله لا يتركهم لوحدهم في الشدة كأم موسى عليه السلام: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...» (٣) حيث ألهمها مسير ولدها، فكيف يمكن أن يحرم من هذا الفيض سائر الصالحين، ومن هنا يعتقد بعض الأعلام بأن كل عمل مهم يصدر من تقى، أو اكتشاف يتوصل إليه عالم، إنما يتم في ظل هدايه الله التكوينية والإلهامية.

فروح القدس الذى يعين بعض الأفراد مثل حسان بن ثابت والكميت حين إنشادهم لتلك الأشعار الرفيعة وينطق الشعر على ألسنتهم (٤) فلم لا يمد سائر العشاق.

ص: ٢٤٣

١- (١) سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٢- (٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٣- (٣) . سورة القصص، الآية ٧.

٤- (٤) ورد فى الحديث: لما دخل الكميث شاعر أهل البيت المعروف على الإمام الباقر عليه السلام وأنشد شعره المعروف: «مَنْ لَقَّبَ مُتَيْمٍ مُّسَيِّئًا» فلما فرغ قال له الإمام: «لَا تَزَالُ مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا دُمْتَ تَقُولُ فِيْنَا» (وسائل الشيعة، ج ١٠، باب ١٠٥، أبواب المزار، ح ٤). اقتبس الإمام هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذى قاله لحسان بن ثابت لما أنشده «يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ». (بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ١٥٠).

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا أُطْلِعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبِرِّ فِي طَوْلِ الْأَقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار ذكر الله في جلاء القلوب وسعه معطيته على روح الإنسان، خاض في شرح أهل الذكر بالحق، وتطرق إلى صفاتهم الواحده تلو الأخرى فقال «وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا».

إشاره إلى أن ذكر الله يعصم من الغرور بالماديات الزائلة للدنيا التي عبرت عن حُبها الأحاديث الإسلاميه أنها «رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١) ومصدر جميع المعاصي.

طبعاً هذا لا- يعنى أن هؤلاء كالرهبان الملازمين للدير أو المقاطعين للدنيا الذين يولون أدبارهم للحياه الاجتماعيه (بقرينه العبارات القادمه) بل المراد أن هؤلاء لا تأسرهم مُغريات الدنيا.

ص: ٢٤٥

أما ما المراد بـ «الذكر» و «الأهل»؟ هنالك تفسيران رئيسيان: أحدهما خاص والآخر عام؛ التفسير الخاص: أن المراد من الذكر، النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو القرآن وأهل الذكر «أهل البيت» والأئمة المعصومون عليهم السلام والصفات التي وردت بعد هذه العبارة في أهل الذكر تنطبق عليهم بصورة تامه.

ومفهومه العام يشمل جميع العلماء الأتقياء والمؤمنين الكمل، والصفات الواردة بعدها تنطبق عليهم.

وليس هنالك مانع من الجمع بين المعنيين؛ فمفهوم الجملة عام وأهل البيت من مصاديقها البارزه وأنصع نماذجها.

ثم بين الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه آثار ذكر الله لدى هؤلاء ضمن خمس صفات فقال: «فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ».

لا- أنهم لم يكن لديهم بيع وتجاره ولم يمارسوا الأنشطة الاقتصادية والاجتماعيه، بل كانوا يخطون خطوات مؤثره في هذا المجال؛ ولكن هذه الأنشطة الاقتصادية تجعلهم يغفلون عن ذكر الله ويتهاككون في الاقبال على الدنيا.

أما ما الفرق بين التجاره والبيع؟ يقال أحيانا النسبه بينهم العموم والخصوص المطلق وذكر البيع بعد التجاره من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأن البيع أحد أنواع الفعاليات الاقتصادية.

كما يحتمل أن تكون التجاره إشاره إلى الفعاليات الاقتصادية المستمره ويشمل البيع الفعاليات المحدوده والزمانيه؛ أى أن أهل الذكر لا يفقدون هذا ولا ذاك وفي نفس الوقت يتجلى فيها ذكر الله بصورة دائمه.

ثم أشار إلى باقى صفاتهم فقال: «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ (١) بِالزَّوْجِرِ عَنِ مَجَارِمِ اللَّهِ فِي أَشْيَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ».

ص: ٢٦٦

١- (١). «يهتفون» من ماده «هتف» على وزن «هتك» الصراخ بشخص.

الجملة «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ» إشاره إلى أن ذكر الله وآثاره المباركه ليست مرتبطه بيوم أوبضعه ايام من عمرهم، بل يشمل أيام حياتهم منذ الشباب حتى الكهوله والشيخوخه.

وتشير العبارات بعدها إلى أنهم لا يتخلون قط كالمثوقين عن المسؤوليات الاجتماعيه؛ بل نشطون للغايه فى ميدان إرشاد الجاهل وتبنيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالنظر إلى أن العبارة وردت بصيغه الفعل المضارع والفعل المضارع يدل على الاستمرار، فهى إشاره إلى أن أعمالهم الصالحه هذه دائميّه.

جدير ذكره أن الإمام بين هنا أنهم يأمرن بالمعروف ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، كما قال الإمام عليه السلام فى الخطبه ١٧٥: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتُكُم عَلَى طَاعِهِ إِلَّا - وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا - أَنْهَاكُم عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا!».»

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مزيد من الشرح بخصوص أحوال أولياء الله وأهل الذكر فقال: «فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ».

نعم! فهؤلاء يرون هذا العالم بأعينهم الباصره النافذه عالم ما بعد الموت والقيامه والبرزخ ويشاهدون مصير الأخيار والأشرار.

ثم قال فى ايضاح ذلك الكلام: «فَكَأَنَّمَا أَطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبُرْزَخِ فِي طَوْلِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتَهَا(١)».

ثم بين نتيجة هذه المكاشفه الروحيه: «فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ».

لم يعجز أهل الدنيا العاديون عن إدراك أحوال البرزخ والآخره بينما يشاهدهما

ص: ٢٤٧

١- (١) «عدات» جمع «عده» بمعنى الوعود وقوله عليه السلام: (وحققت القيامة عليهم عداتها) فى الواقع نوع من المجاز، لأن الوعود الإلهيه وعود الثواب والعقاب عالم تحققه هو عالم القيامة، وعليه فلا ينبغى تصور الحاجه إلى الحذف والتقدير.

أولياء الله أهل الذكر بل يرون فيها أنفسهم؟

لأنّ أرواح أهل الدنيا معلقه بالدنيا فألقت حجاباً بينهم وبين العوالم الأخرى؛ أمّا أهل الذكر الأطهار المتحررون من تلك التعلّقات والذين جلوا أرواحهم بدوام التفكير والعبادة، أزيلت عن أعينهم تلك الحجب فانعكست فيها صور حقائق عالم البرزخ والقيامة.

هؤلاء حملة الرسائل الإلهية من ذلك العالم إلى هذا العالم، الرسائل التي تؤدي إلى يقظه الغافلين وإبصار المكفوفين.

ص: ٢٤٨

فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمُحْمُودَةَ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةَ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَّغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمْرًا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهَوَّا عَنْهَا فَفَرَطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَمُّوا عَنِ الْأَشْيَاءِ تَقْلَالَ بِهَا، فَتَشَجُّوا نَشْجًا، وَتَحَيَّأَوْا نَحْيًا، يَعْبُجُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَغْلَامَ هَيْدَى، وَمَصَابِيحَ دُجَى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ أَطْلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِي سَعِيهِمْ، وَحَمِيدَ مَقَامِهِمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّحَيُّوْزِ، رَهَائِنُ فَاقِهِ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذَلِّهِ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدَّ قَارِعَهُ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط

رسم الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه صورته دقيقه لحال أهل الذكر وأولياء الله، كيف يحاسبون أنفسهم ويتلافون ما بدر منهم فقال: «فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ (١) لِعَقْلِكَ فِي

ص: ٢٤٩

١- (١). «مثلتهم» من «التمثيل» على وزن «خليل» بمعنى التجسيد.

مَقَاوِمِهِمْ (١) الْمَحْمُودَهُ، وَمَجَالِسِهِمْ الْمَشْهُودَهُ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ (٢) أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَّغُوا لِمَحَاسِنِهِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمْرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نَهَوْا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ (٣) ظُهُورَهُمْ، فَضَمُّوا عَنِ الْأَسْيَةِ تَقْلَالًا بِهَا، فَشَجُّوا نَشِيجًا (٤)، وَتَجَاوَبُوا (٥) نَحِيبًا (٦)، يَعْجُونَ (٧) إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ نَدَمَ وَاعْتَرَفَ.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر حالات أولياء الله كيف يراقبون أنفسهم ويحاسبون أعمالهم وما يبدون من ردود أفعال إزاء ما يبدر منهم من تقصير ويتأوهون إلى الله خالص إلى نتيجة ذلك فقال: «لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجَى (٨)، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكِرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ اطَّلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعِيهِمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ».

هذا القسم من كلام الإمام في الواقع جواب شرط للجمله السابقه: «فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ...». ذكر الإمام عليه السلام هنا خمس صفات أو نتيجة مهمه لمراقبتهم تفيد الهدى وكشف الدجى. إشاره إلى أنهم ليسوا كالزهاده المعتزلين قط الذين لا يرون إلا أنفسهم، بل هم منقذو الغرقى الذين يسعون لإنقاذ الغرقى فى بحر المعاصى، وأنهم على درجه من العلو والرفعه من حيث المقام والمكانه بحيث تحفهم الملائكه وتقوم

ص: ٢٧٠

١- (١) . «مقاوم» جمع «مقام» المكانه المعنويه أو البدنيه.

٢- (٢) «دواوين» جمع «ديوان» الدفتر وتعنى هنا صحيفه العمل.

٣- (٣) . «أوزار» جمع «وزر» على وزن «حرز» الحمل الثقيل وتعنى هنا حمل المسؤوليات الثقال.

٤- (٤) «النشيج» الاختناق بالبكاء وترجيع الصوت فى الحنجره إثر البكاء.

٥- (٥) «تجاوبوا» من «التجاوب» أجاب بعضهم بعضاً وتشير هنا إلى جماعه يجلسون فى مكان ويكون معاً.

٦- (٦) «النحيب» شدّه البكاء.

٧- (٧) «يعجون» من ماده «عج» على وزن «حج» الصياح.

٨- (٨) . «دُجَى» جمع «دُجِيه» على وزن «لقمه» الظلمه وتستعمل هذه المفرده أحياناً بمعنى المفرد.

على خدمتهم كما ورد في القرآن: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» (١).

وقد عمهم الأيمن والسكينه بمضمون «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزْذَبُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ» (٢). وتتنظرهم بمضمون «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» (٣) مقامات لا توصف من الفضل والرحمة الإلهية.

حقاً حين يقرأ الإنسان هذه الكلمات العميقة المعنى كيف يبلغ أولياء الله في ظل العبودية مقاماً لا يرى سوى الله يستغرق في التفكير في عظم الاستعداد الذي يملكه ولو عرف قدره وفجر استعداده.

ثم خاض في جانب آخر من أحوال أهل الذكر في إرتباطهم بالله وعبادته في الخلوات فقال عليه السلام: «يَتَنَسَّمُونَ (٤) بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقِهِ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذَلِّهِ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى (٥) قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ».

إشاره إلى أنهم كلما جدوا في الطاعة والعبودية شعروا بالتقصير أزاء عظمه الله، ومن هنا يتجهون إليه على الدوام ويلتمسون السكينه عن طريق العفو، ومن جانب آخر فإنهم لا يعولون قط على أعمالهم، بل يتكلون على فضل الله فيثقل الهم قلوبهم ويكشف ذلك الهم عيونهم الباكية.

ثم قال عليه السلام: «لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدُّ قَارِعَةٍ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ (٦)، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ».

إشاره إلى أنهم لا يتعلقون بأعمالهم وكل أملهم بكرم الله.

يقرعون كل باب ويأتون بكل عمل يعتقدون بأنه سبب لمرضاه الله واستنزال

ص: ٢٧١

١- (١) سورة فصلت، الآية ٣٠.

٢- (٢) . سورة الفتح، الآية ٤.

٣- (٣) سورة القمر، الآيتان ٥٤ و ٥٥.

٤- (٤) . «يتنسمون» من «النسيم» فالعبارة «يتنسمون» تعني أنهم ينتظرون النسيم و «التنسيم» بمعنى التنفس.

٥- (٥) «الأسى» الحزن.

٦- (٦) «المنادح» جمع «مندوحه» الأرض الواسعه ثم اطلقت على كل نظام واسع فيه حريه.

إنهم يعيشون في الواقع بين الخوف والرجاء دائماً وهو أفضل حالات المؤمن، الخوف من التقصير والأمل بفضل الله.

وفي الختام تغير لحن كلام الإمام عليه السلام عن شرح حالات أهل الذكر ليتطرق إلى موعظه عامه فقال: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ».

إشاره إلى أنه ينبغي عليك أن تحاسب نفسك هنا قبل أن تحاسب في البرزخ والقيامة من جانب الملائكة فإن بدر منك خطأ تلافيته وإن كان لك عمل صالح حمدت الله عليه؛ وليس لك أن تدقق في أعمال الآخرين الصغيره والكبيره فإن لهم حسيباً غيرك.

فهناك في الواقع رسالتان في العبارة الأخيره؛ إحداهما، رساله الحديث المعروف «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»^(١).

والأخرى، رساله الآيه الشريفه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»^(٢).

تأمل: ذكر الله والذاكرون

كل ما ورد في هذه الخطبه الغراء والعظيمه المضمون كان شرحاً لعباره من آيه في القرآن الكريم وهي أن أولياء الله لا يغفلون قط عن ذكر الله لمتاع الدنيا، فنور الله يسطع في بيوتهم وهم كالنجوم التي تهدي الخلق في ظلمات البر والبحر.

بغض النظر عن أن للذكر ثلاث مراحل: الذكر القلبي، واللساني والذكر بالعمل، فهناك مصاديق متفاوتة لكل مرحله كالنور الذي يشمل نور الشمس ونور الشمعه.

ويكون أحياناً هذا الذكر محدوداً بحيث لا يضيئ أكثر من الوسط، وأخرى على

ص: ٢٧٢

١- (١) وسائل الشيعه، ج ١٦، ص ٩٩، ح ٢١٠٨٢.

٢- (٢) سوره المائده، الآيه ١٠٥.

درجه من العمق والسعه بحيث يضيئ العالم.

وأولى القرآن أهميته فائقه للذكر والذاكرين. فقد خاطب الله تعالى موسى عليه السلام:

«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»(١).

وقال أيضاً: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»(٢).

وقال بخصوص الخمر: إنه نهى عن الخمر كونه يصد عن ذكر الله: «وَيَصِدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»(٣).

كما يقول إن نفوذ الشيطان يبدأ حين يغفل الإنسان ذكر الله: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقِيَضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»(٤).

وأوجز تعالى كل عظمه القرآن في عبارته فقال: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»(٥).

وقال تعالى: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»(٦).

وأخيراً وصف ذكر الله أنه وسيله لاطمئنان القلوب: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»(٧).

ورغم أن للذكر معاني مختلفه في هذه الآيات؛ لكنها تشترك جميعاً في أمر هو أنه يسوق الإنسان إلى الله، يجرى من القلب على اللسان ويتسع من اللسان لجميع أعمال الإنسان. وكان جميع الأعضاء تذكّر الله بصوت بليغ في كل الأعمال.

كما وردت الأهميه الفائقة للذكر والذاكرين في الروايات:

منها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ حَدٌّ يَنْتَهَى إِلَيْهِ

ص: ٢٧٣

١- (١) سورة طه، الآية ١٤.

٢- (٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٣- (٣) سورة المائدة، الآية ٩١.

٤- (٤) سورة يوسف، الآية ١٠٤.

٥- (٥) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٦- (٦) سورة الأنبياء، الآية ٧.

٧- (٧) سورة الرعد، الآية ٢٨.

إِلَّا الذِّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهَى إِلَيْهِ» (١).

كما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي جَنَّتِهِ» (٢).

ويستفاد من بعض الروايات أن ذكر الله يدفع أنواع البلاء. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الصَّوَاعِقَ لَا تُصِيبُ ذَاكِرًا» (٣).

بل أبعد من ذلك أنه عليه السلام قال: «مَا مِنْ طَيْرٍ يُصَادُ إِلَّا بَتَرَكَ التَّشْبِيحِ وَمَا مِنْ مَالٍ يُصَابُ إِلَّا بَتَرَكَ الزَّكَاةِ» (٤).

زیده الكلام أن الآيات والروايات في ذكر الله وأهميته وآثاره على الحياه الماديه والمعنويه والدنيا والآخره كثيره، وما ورد سابقاً هو جانب من ذلك.

ونختتم هذا الكلام بروايه عن الإمام الصادق عليه السلام التي بينها في تتمه حديث، عدم محدوديه الذكر فقال: «كَانَ أَبِي كَثِيرَ الذِّكْرِ لَقَدْ كُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَآكُلُ مَعَهُ الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَلَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَمَا يَشْغُلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...» (٥).

ص: ٢٧٤

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٨، ح ١.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٥٠٠، ح ٥.

٣- (٣) المصدر السابق، ح ٢.

٤- (٤) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٥، كتاب الزكاه، باب تحريم منع الزكاه، ح ٢٠.

٥- (٥) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٩، ح ٥.

قاله عِنْدَ تِلَاوَتِهِ : «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» (١) (٢)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه الوارده فى تفسير الآيه الشريفه: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» من عدة أقسام:

القسم الأول: تساءل الإمام ووبّخ صحبه ومخاطبيه من أجل إيقاظهم وبث الوعى بين صفوفهم فإلى متى هم نائمون ولم لا يفيقون من هذا السبات؟ لم لا يرحمون أنفسهم وينقذونها ممّا تغط به فى مستنقع الذنوب والمعاصى ويطلبون جروحهم وآلام قلوبهم التى أفرزتها الآثام.

ودعا فى القسم الثانى هذا الإنسان الهارب لمحاكمه نفسه. فيذكرها بنعم الله فلو

ص: ٢٧٥

١- (١) سورة الانفطار، الآيه ٦.

٢- (٢) سند الخطبه: ذكر فى «مصادر نهج البلاغه» مصدرين يستفاد من القرائن أنهم استقوا هذه الخطبه من مصدر غير «نهج البلاغه»: الأول «شرح نهج البلاغه» لابن أبى الحديد الذى ذكر بعضها باختلاف مع ما ورد فى «نهج البلاغه»، والآخر «غررالحكم» الذى أورد جانباً منها باختلاف مع ما ورد فى «نهج البلاغه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٥٥).

تفرغ لمحاكتها لأدان نفسه قطعاً.

وتحدث فى القسم الثالث عن تقلب أوضاع الدنيا والاعتبار بحياه الماضين ومماتهم. وحثّ فى آخر قسم ببضع عبارات موجزه فناء الدنيا وقيام القيامة وحضور محكمه العدل الإلهى وغياب الأعذار هناك.

ثم جعل كلّ هذه التذكيرات والتحذيرات وسيله لخرق حجاب الغرور الذى أشار إليه فى الآيه المذكوره.

ص: ٢٧٤

أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّهً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرٍّ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَهُ بِنَفْسِهِ.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسِيَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَتَّقُهُ؟ أَمَا تَزْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَزْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلِيَّ بِالْأَلَمِ يُمَضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَدَكَ عَلَى مُصَابِحِكَ، وَعَزَّأَكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمِهِ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مِدَارِجِ سَطَوَاتِهِ! فَتَيْدَاوِ مِنْ دَاءِ الْفُتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمِهِ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِتَقْظِهِ، وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِدْرِهِ آنِسًا.

الشرح والتفسير: الرحمة بالنفس؟

قال الإمام عليه السلام في مستهل الخطبه على ضوء الآيه المذكوره «أَدْحَضُ (١) مَسْؤُولٍ حُجَّهً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرٍّ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ (٢) جَهَالَهُ بِنَفْسِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه النقطه وهى أَنَّ الله يصرِّح في هذه الآيه:

لقد أفاض الله عليك كلَّ هذا الكرم بالنعم الماديه والمعنويه من رأسك إلى أخمص قدمك ومازلت مغروراً وعاصياً ومتمرداً؟! فليس لديك أدنى حجه وليس لديك من

ص: ٢٧٧

١- (١). «أدحض» من «الإدحاض» ابطل وغلب ومن ماده «دحض» الغلبه.

٢- (٢) «أبرح» من ماده «برح» على وزن «حرف» الشده كما وردت بمعنى الزوال والمعنى الأول هو المراد فى العبارة.

عذر وعملك يدل على أنك لم تعرف نفسك.

ومن هنا يتضح خطأ من ذهب إلى أنّ صفه الكريم في الآيه لثقلين المخاطب بأن يقول في الجواب: «غزني كرمك»، بل يريد أن يقول بالعكس رغم كلّ هذا الكرم واللفظ مع كلّ هذا العصيان المخجل الذي يفتقر إلى العذر والحجّه، لذلك ورد في الحديث النبوي أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لما تلا الآيه قال: «غزّه جهله»^(١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام ليسلط بهذه العبارات سوط ملامته وتوبيخه على جسد أرواحهم الهامده عليهم فيقولون ويعودوا عن غيرهم فقال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَاكِهِ نَفْسِكَ؟».

إشاره إلى أنّ غريزه حبّ الذات في الإنسان أقوى الغرائز؛ فالإنسان بصورة طبيعیه يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر وإذا رأينا شخصاً يطعن صدره وعضده لذهلنا وتساءلنا مع أنفسنا: هل أصيب بالجنون، أو يرغب شخص عاقل بهلاك نفسه؟ فإن لم تكن للإنسان أدنى رغبه بهلاك نفسه فلم يتقبل الغرور والذنب والمعصيه التي تؤدي إلى هلاكه!

ثم قال عليه السلام: «أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ^(٢)، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقِظَةٌ؟ أَمَا تَرَحَّمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرَحَّمُ مِنْ غَيْرِكَ؟».

ثم أوضح هذه الحقيقه بذكر مثال فقال: «فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ^(٣) مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُتَبَلِّئِي بِأَلَمِ يُمِضُ^(٤) جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَرَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَدَكَ^(٥) عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ!».

إشاره إلى ما نراه من تناقض في فعل الآخرين وازدواج في أحكامهم فهم يبدون

ص: ٢٧٨

١- (١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيه ٦ من سوره الانفطار.

٢- (٢) . «البلول» التحسن من المرض كما وردت بمعنى الغنى والنشاط.

٣- (٣) . «الضاحي» الشخص المعرض لضوء الشمس، من ماده «ضحو» على وزن «محو» التعرض لأشعه الشمس ويقال «ضحى» حين تتسع أشعه الشمس على الأرض.

٤- (٤) . «يمض» من ماده «مض» على وزن «حض» يؤلم.

٥- (٥) «الجلد» من ماده «جلد» على وزن «بلد» القوه أو التحمل.

أشد ردود الأفعال إزاء انزعاج الآخرين وسقم المرضى وأحياناً تسيل الدموع من أعينهم فى حين مرضهم أشد ومصيبتهم أعظم ولا يدون أى رد فعل.

أراد الإمام عليه السلام بهذا البيان المنطقى البليغ أن يوقظ هؤلاء الغافلين الجهّال والساذجين ويلفت انتباههم إلى ما ينتظرهم من مصير خطير لعلهم يتوبون وينيبون إلى الله.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ (١) نِقْمِهِ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ (٢) بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ (٣)! فَتَدَاوٍ مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى (٤) الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِتَقْطِئِهِ».

هنالك أمران ضروريان للخلاص من الخطر: اليقظة والحذر من جهة والإرادة والعزم الراسخ من جهة أخرى وقد أشار الإمام إلى هذين الأمرين بهذه العبارة الموجزة فحذّر الجهال بأن يفيقوا من سبات الغفلة ويعقدوا العزم مادامت الفرصه سانحه على خلاص أنفسهم من مخالب المعاصى التى تؤجج نيران الغضب الربانى.

التعبير بـ «بَيَاتِ نِقْمِهِ» كون ضحايا البلاء النازل ليلاً أكثر؛ من قبيل الزلازل والسيول والعواصف التى تحدث ليلاً ويغط الناس فى النوم ولا يملكون من وسيله للدفاع عن أنفسهم.

قال تعالى فى القرآن المجيد: «أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفًا وَهُمْ يُلْعَبُونَ» (٥).

وقال فى ختام هذه الفقرة: «وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِدِكْرِهِ آنِسًا».

ص: ٢٧٩

١- (١). «بيات» إن وردت هذه المفردة مصدرًا عنت البقاء والمبيت ليلاً فى مكان وإن كان لها معنى الاسم عنت الليل وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

٢- (٢) «التورط» من ماده «ورط» على وزن «شرط» الإلقاء فى المستنقع و «قد تورطت بمعاصيه» يعنى القيت بنفسى فى غضب الله بسبب المعاصى.

٣- (٣). «سطوات» جمع «سطوه» القهر والغلبه والسلطه على الشىء.

٤- (٤) «الكرى» النوم والنعاس.

٥- (٥) سورة الأعراف، الآيتان ٩٧ و ٩٨.

وَتَمَثَّلُ فِي حِيَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٌّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعَكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهَيِّجْكَ عَنْكَ سِتْرُهُ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصِيرُفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفَقِينَ فِي الْقَمُوءِ، مُتَّوَازِينَ فِي الْقُمُودِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حِيَاطِمْ عَلَى نَفْسِكَ بِدَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ.

الشرح والتفسير: رحمه الله ومعصيه العبد؟!!

دعا الإمام عليه السلام الناس في هذا الجانب من الخطبة إلى الحكم على أنفسهم وعدد أدله إدانته، ومن ذلك أنه يحث الخطي دائماً في طريق العصيان من جهه ومن جهه أخرى يمطره الله بوابل فضله ورحمته فقال: «وَتَمَثَّلُ (١) فِي حِيَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ (٢) بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٌّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ».

حقاً إنه لمن المؤسف والمخجل أن يكون مولى الإنسان كريماً يغذيه بأنواع النعم لكنه يتولى عنه دائماً؛ الأمر الذي لا يقبله أى وجدان.

ص: ٢٨١

١- (١). «تمثل» كما اشير إليه في الخطبة السابقه من «المثول» على وزن «حلول» بمعنى التجسيد.

٢- (٢) «يتغمّد» فى الأصل من «الغمد» على وزن «هند» بمعنى غطاء السيف و «تغمّد» الوضع فى الغطاء. ثم استعملت بمعنى الشمول وأريد بها فى العبارة أن فضل الله عمّكم.

وهذا ما نقرأه في دعاء الافتتاح في شهر رمضان المبارك: «يا رَبِّ، أَنْكَ تَدْعُونِي فَأَوْلَىٰ عَنكَ، وَتَحَبُّبُ الْيَّ فَاَتَبَغُّصُ الْيَّكَ، وَتَتَوَدُّدُ الْيَّ فَلَإِ أَقْيَلُ مِنْكَ، كَمَا أَنَّ لِي التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعِيكَ ذَلِكَ مِنْ الرَّحْمَةِ لِي وَالْإِحْسَانِ الْيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ».

ثم قال: «فَتَعَالَىٰ مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفٍ (١) سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَيْعِهِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ!».

إشاره إلى أنه ليس من العجب أن يعتمد الأفراد الأقوياء أسلوب العنف. والعجب أن يسلك الفرد الضعيف والذليل العاجز هذا الطريق؛ إلا أن الله بكل تلك القدره العظيمه هو منتهى الحب والرفاهه بينما يبدى هذا الإنسان بكل هذا الضعف والعجز كل هذه الجراه على المعصيه فى حين لا يمسه عنه فضله ورحمته وهذا عجب حقاً!

ثم قال عليه السلام: «فَلَمْ يَمْنَعِكَ فَضْلُهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ (٢) فِي نِعْمِهِ يُحَدِّثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئِهِ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلَّيْتَهُ يَصْرِفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!».

إشاره إلى أن الإنسان لا يخلو من ثلاث حالات: إما مشمول بنعمه لا بد أن يؤدي شكرها، أو ارتكب معصيه سترها الله وعليه أن يمتن لذلك الستر ويستغفر أو دفع عنه بلاءً وينبغى له أن يعرف قيمه هذه النعمه، هذا بينما من يسير فى طريق العصيان لا يكثر لأوامر الله ونواهيه، فما عساه أن فكر بأن الله الرحيم والغايه فى الكرم كيف سيجازيهم إن أطاعوه، وهذه هى مسأله «وجوب شكر المنعم» التى يمكنها أن تكون دافعاً لمعرفة الله كما يقول علماء العقائد.

آنذاك نظر الإمام إلى هذه المسأله من زاويه أخرى فخاص فى بيان آخر لإيقاظ

ص: ٢٨٢

١- (١) «كنف» من ماده «كنف» على وزن «حرف» بمعنى محفوظ.

٢- (٢). «مطرف عين» من ماده «طرف» على وزن «حرف» إغماض العين وفتحها و«مطرف» مصدر ميمى بالمعنى المذكور.

مخاطبيه فقال عليه السلام: «وَأَيْمُ اللَّهِ (١) لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفَقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتُ أَوَّلَ حَيَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ».

ذهب بعض شراح «نهج البلاغه» إلى أنّ العبارة السابقة بصيغته صغرى وكبرى من الشكل الأول من القياسات المنطقيه؛ ولكن الظاهر أنّ سياق العبارة ناظر لقياس الأولويه؛ أى أنّ فردين متشاكلين لا يخشيان بعضهما عاده، مع ذلك إن كان أحدهما يحسن دائماً والآخر يسيئ فإنّ وجدان الفرد الثانى يدينه ويتهمه بسوء الخلق. فإن كانت هذه المسأله بين أحد غايه فى العظمه وآخر غايه فى الصغر بحيث ليست هنالك من حاجه وخوف وخشيه فى لطفه ورحمته من جهه ومن جهه أخرى كله حاجه وخشيه من العقاب على المعاصى، قطعاً على ذلك الفرد الصغير فى ظل تلك الظروف أن يلوم نفسه لِمَ الفعل المنجمل إزاء كلّ هذا الكرم.

ص: ٢٨٣

١- (١). «أيم» فى الأصل «أيمن» حسب بعض أرباب اللغه جمع «يمين» بمعنى القسم سقطت نونه ومعنى العبارة أقسم بالله.

وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفْتُكَ الْعِظَاتِ، وَأَذَنْتُكَ عَلَى سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بِمَا تَعُدُّكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَضِيدُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغْرَكَ. وَلَرَبِّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكْذَّبٌ، وَلَيْتَ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرَّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلَغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلِّ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَ الشَّحِيحِ بِكَ! وَلَيْعَمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَا هُمْ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ

لما كان أغلب المتهافتين على الدنيا يحملون الدنيا مسؤوليه معاصيهم لإبراء أنفسهم ويعدون زخارف الدنيا ونعمها المادية سبب ااثمهم فإن الإمام ردّ عليهم في هذا الجانب من الخطبه فقال: «وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ».

ثم خاض في بيان دليل ذلك الكلام فقال: «وَلَقَدْ كَاشَفْتُكَ الْعِظَاتِ (١)، وَأَذَنْتُكَ (٢) عَلَى سَوَاءٍ».

إشاره إلى أنّ الدنيا ليست غرّاره فحسب، بل تقع فيها أحداث موقظه، والإمام

ص: ٢٨٥

١- (١). «عِظَاتٍ» جمع «عِظَةٍ» بمعنى الموعظه والنصيحه وهى هنا كناية عن حوادث الدنيا المريره التى تؤدى إلى اليقظه.

٢- (٢) «أَذَنْتُ» من «الإيذان» بمعنى الإعلان المقرون بالتهديد وأحياناً تعنى إعلان الحرب ثم وردت بمعنى الإعلان المطلق وإطلاق الأذان كونه يعلن الدخول فى الصلاه.

خاض في العبارات الآتية في شرحها قائلاً: «وَلِهِيَ بِمَا تَعْدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تُعْزَرَكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَيْرِهَا مُكْذَبٌ».

إشاره إلى أنّ الدنيا عندما تصيبك بأنواع البلاء والمصائب والأحداث الأليمه وتغير القدره، وهى صادقه ولا يصح وصفها بالخداع كما صدق من أخبرك من أولياء الله والصالحين عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وإن لم يكن كلامهم موافقاً لهوى نفسك؛ فلم تقبل لسان حال الدنيا ولا لسان حال أولياء الله واتهمت الجميع بالكذب، وعليه فهذا أنت من غرّ نفسه.

كما يحتمل أن يكون تفسير العبارة الأخيره، أننا ناصح هو الحوادث الأليمه وأخبار الصدق علامات غدر الدنيا التي يراها الإنسان بعينه ويسمعها بأذنه؛ ولكنها حيث لا تتفق وأهوائه فإنه يكذبها جميعاً ويقول هى مجرد حادثه صدفه فزالت ولن تتكرر.

ثم وضح أكثر هذه الحقيقه وجعلها معلومه للجميع فقال: «وَلَيْنَ تَعَرَّفَتْهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ (١)، وَالرُّبُوعِ (٢) الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلِّهِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ (٣) بِكَ!».

ثم قال فى آخر عبارته: «وَلِنَعْمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعِيدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَاءٌ هُمْ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ».

إشاره إلى أنّ الأفراد المؤمنين واليقظين يسعهم أن يجعلوا من هذه الدنيا المليئه بالشر والمفعمه بالغرور والخداع وسيله لسعادتهم الأبدية وسلماً لبلوغ المقامات

ص: ٢٨٤

١- (١). «خاويه» اسم فاعل من ماده «خوى» بمعنى خالى ويعنى أحياناً المتهدم.

٢- (٢) «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والسكن كما وردت بمعنى المنطقه أو الجماعه من الناس والمعنى الأول هو المراد هنا.

٣- (٣) «شحيح» من ماده «شخ» على وزن «مخ» البخل مع الحرص الذى يصيح عاده لذلك يطلق «شحيح» أحياناً على الفرد الحريص على صديقه وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

الرفيعه، بحيث تكون نظرتهم إلى الدنيا بخلاف نظره المتعلقين بها فهي نظره إلى الممر أو السلم؛ فأولئك الذين يهربون من زخارفها وينتفعون بطبيعتها للقرب من الله، ومن هنا يتضح الفارق بين الدنيا الممدوحه والمذمومه كما سيرد في مبحث التاملات.

تأمل: الدنيا الممدوحه والمذمومه

وصف الإمام عليه السلام الدنيا في العبارات السابقه بالواعظ الحريص والمخبر الصادق والوفى والتي أفصحت عن تقلبها من خلال تقلباتها السريعه وأحداثها وآفاتنا المختلفه وحذر الجميع من التعلق بها وإنما عليهم التزود منها.

والأكثر صراحه من ذلك ما ورد في قصار كلماته بشأن الدنيا حيث قال:

«مَسِيدٌ جَدُّ أَحِبَّاءِ اللَّهِ» «وَمَتَّجِرٌ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ»، «وَمَهْبُطٌ وَحْيِ اللَّهِ»، «وَمُصَيَّمٌ مَلَائِكَةِ اللَّهِ»، «دَارٌ عَافِيَةٌ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا... وَدَارٌ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا»(١).

هذا في الوقت الذي ذمَّت الدنيا بشدّه في خطب متعدده من «نهج البلاغه» والعديد من الروايات: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»(٢)، «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا وَالسَّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا»(٣).

ثم حذر في عبارته أخرى من الدنيا فقال: «تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»(٤).

وطلاق الدنيا ثلاثاً من جانب الإمام عليه السلام لمساوئها وقبائحها، معروف اشير له في قصار الكلمات ضمن عبارات موقظه(٥).

ص: ٢٨٧

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٣١.

٢- (٢) . المصدر السابق، الخطبه ٢٢٤.

٣- (٣) المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمه ١١٩.

٤- (٤) المصدر السابق، الكلمه ٤١٥.

٥- (٥) المصدر السابق، الكلمه ٧٧.

وأبعد من ذلك آيات القرآن المجيد التي ذمّت الدنيا بشدّه ومنها ما ورد في سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضِّهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ» (١).

وإن رتبنا هذه الآيات والروايات مع بعضها لورد هذا السؤال: إن كانت الدنيا بكلّ هذا الحسن، فلم كانت سيئته لهذا الحدّ، وإن كانت سيئته فلم هذا الحسن؟

يكمن الجواب في عبارته: أنّ الاختلاف نتيجه لاختلاف الرؤى.

والذين يكتفون بالنظر الظاهري وأصحاب الدنيا من ذوى النظره الضيقه والسطحيه لا يرون سوى زخارف الدنيا وزينتها وملذاتها فيتعلقون بها، والدنيا خطيره للغاية على هذه الفئه، ولما كانت هذه الفئه تشكل الأ-كثريه، كانت هنالك الكثير من الآيات والروايات التي تدم الدنيا ولذلك يهتف القرآن: «فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَنُكُمْ بِاللَّهِ الْعَرْوَةُ» (٢) الجدير بالذكر أنّ الدنيا الغرور في هذه الآيه عدت في مصاف الشيطان المكار (لأنّ المراد من الغرور في هذه الآيه هو الشيطان).

أمّا أهل البصائر والمؤمنون الصلحاء والعقلاء الذين ينظرون ببصرهم الحاد إلى باطن الدنيا ويرون بأفقههم البعيد بدايتها ونهايتها وتتجسد لهم عاقبه الأسلاف وتاريخهم ويضعون مصير الفراعنه والعمالقه والأباطره نصب أعينهم يسمعون بأذان أرواحهم رسائل الوعظ الدينوى المشفق ويعتبرون بتلك الدروس؛ فيستبدلون الدنيا بجامعهٍ لكسب المعارف الربانيه ومتاجر للتزود وحمل المتاع ومعبد رائع للعروج إلى ساحه القرب الربوبى.

وزيده الكلام فإنّ الدنيا حسب قول أميرالمؤمنين على عليه السلام في إحدى الخطب:

«مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصْرَتَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ» (٣).

ص: ٢٨٨

١- (١) سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥.

٢- (٢) . سورة فاطر، الآيه ٥.

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ٨٢.

القسم الرابع

إشارة

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبَادَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقَسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرَقَ بَصِيرٍ فِي السَّمَوَاتِ، وَلَا هَمْسٌ قَدِمَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّه يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضُهُ، وَعَلَاتِقِ عُدْرٍ مُنْقَطِعُهُ!

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُدْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لِمَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَيِّفِكَ؛ وَشِمَّ بَرَقَ النَّجَاهُ؛ وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة

أشار الإمام عليه السلام في آخر جانب من هذه الخطبة بالالتفات إلى الإشارة في العبارة السابقة إلى عالم الآخرة إلى محكمه العدل الرباني في عالم الآخرة فذكر بعض الأمور الدقيقة وقال: «إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ (١) ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا (٢) الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ (٣) أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبَادَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ (٤) فِي عَدْلِهِ

ص: ٢٨٩

١- (١) . «راجفه» من ماده «رجف» على وزن «وقف» بمعنى الاضطراب والهزه الشديده ولما كانت الأخبار التي تثير الفتنة مدعاه لاضطراب المجتمع لذلك يقال لها أراجيف. وتشير هذه المفردة في القرآن وهذه الخطبه إلى زلزاله الساعه.

٢- (٢) «جلائل» جمع «جليله» كل صفة عظيمه وشديده.

٣- (٣) . «منسك» بمعنى العباده وتعنى الدين والمعبد وهذا هو المراد بها في العبارة.

٤- (٤) «لم يُجْزَ» طبق ماورد في المتن من ماده «جزاء» بمعنى الثواب؛ ولكن وردت في بعض النسخ «لم يَجْرِ» من ماده «جريان»؛ يعنى لا- يجرى أدنى خلاف في عدالته وفي بعض النسخ الأخرى «لم يَجُزْ» من ماده «جور» إشارة إلى عدم جور الله في جزاء الأعمال وفي نسخ «لم يَجُزْ» من ماده «جواز»؛ يعنى لا يجوز أدنى خلاف في مقام عداله الله.

وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَزَقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ (١) قَدِمَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ».

وكلام الإمام يؤكد على أمرين: الأول أن كل طائفه تلحق ذلك اليوم بإمامها ومعبودها ومطاعها وما كان في هذه الدنيا سيتجسم هناك قطعاً حتى ورد عن الإمام الرضا أنه قال: «فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجْرًا لَحَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢) ومن قبل صرح القرآن قائلاً: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» (٣).

والآخر: أن حساب الله ذلك اليوم على درجه من الدقه والعدل المطلق بحيث لا يغادر ذره من ذنب أو خطوه من باطل على الأرض فالويل للآثمين والظلمه والمدننين!

طرح هنا بعض شراح «نهج البلاغه» سؤالاً: إن لحق ذلك اليوم كل عابد بمعبوده ومطيع بمن أطاع، فلا بد أن تلحق النصارى بالمسيح، والغلاه بأمرالمؤمنين وعبد الملائكه بهم، وفي ذلك سرورهم طبعاً؟

أجاب القرآن المجيد عن هذا السؤال فقال: «وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

وقال إثر ذلك: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا» (٤).

نعم! لعلمهم يلحقون لولا أن تبرأ أئمتهم منهم؛ وعليه واستناداً لهذه البراءه فسوف

ص: ٢٩٠

١- (١) «همس» بمعنى الصوت الخفى.

٢- (٢) . وسائل الشيعه، ج ١٠، ص ٣٩٣، ح ٥ من باب ٦٦ من أبواب المزار وورد هذا المضمون باختلاف طفيف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فى كتاب «روضه الواعظين».

٣- (٣) سوره الصافات، الآيات ٢٢ و ٢٣.

٤- (٤) سوره الفرقان، الآيات ١٧-١٩.

لن يلتقوا بهم قط.

ثم حذر أولئك الذين يبرّتون أنفسهم فى هذه الدنيا بالأدله الواهيه والأعذار التافهه أنّ الأمر ليس كذلك فى الآخره فقال: «فَكَمْ حُجَّه يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَهُ (١) ، وَعَلَاتِقِ (٢) عُدْرٍ مُنْقَطِعَهُ!».

إشاره إلى أنه يتضح ويظهر كلّ شىء فى ذلك اليوم وليس هنالك من قيمه للأعذار الواهيه فى ظل تلك الأجواء.

قال القرآن المجيد بشأن المكذبين بآيات الله: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ» (٣).

ثم أشار فى ختام الخطبه - بعنوان استنتاج عملى واضح - إلى سبيل الخلاص ضمن خمس عبارات موجزه وعميقه المعنى فقال: «فَتَحَرَّ (٤) مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُدْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ».

وقال فى السبيل الثانى: «وَأَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ».

المراد من «مَا يَبْقَى لَكَ» النعم الأبدية يوم القيامة أى الأعمال الصالحه، والمراد من «مَا لَا تَبْقَى لَهُ» نعم الدنيا التى يتركها الإنسان ويمضى.

وقال فى الثالث: «وَتَيْسَّرْ لِسْفَرِكَ».

والذى قال فيه الله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٥).

وقال فى الرابع: «وَشِمِّمْ (٦) بَرَقَ النَّجَاهِ».

ص: ٢٩١

١- (١). «داحضه» من «الدحض» على وزن «محض» بمعنى خاطئه ويقال «حجه داحضه» للدليل الضعيف الذى لا أساس له.

٢- (٢) «علاتق» جمع «علاقه» (بفتح العين) الروابط والتعلق ومعنى العبارة المذكوره أنّ الروابط مقطوعه يوم القيامة، وكذلك جمع «علاقه» (بكسر العين) الحبل والشماعه وأمثال ذلك فىكون معنى العبارة أنّ حبال الأعذار مقطعه يوم القيامة.

٣- (٣) سوره المرسلات، الآيه ٣٦.

٤- (٤). «تحرّ» من «التحرى» البحث عن الأمر الأفضل.

٥- (٥) سوره البقره، الآيه ١٩٧.

٦- (٦) «شم» من ماده «شيم» على وزن «دِيم» التطلع إلى الشىء.

وقال أخيراً: «وَأَزَحَلْ مَطَايَا (١) التَّشْمِيرِ (٢)».

وخلاصه الكلام فإن الإمام أبان سبيل النجاه من مخالب أخطار الدنيا والآخرة في هذا السفر المنتظر وذكر المواعظ بشأن زاد السفر ومتاعه والالتفات إلى علائم الدليل ومن ثم إعداد أعذار التقصير وأسباب الزلل والخطأ، فمثل هذا المسافر لا يضل الهدف ولا- يتوقف حين يبلغ: «بلى يا زهري ليس ما ظننت ولكنك الموت وله كئت اسيتعد وإنما الاستعداد للموت تجنب الحرام ويذل الندى والخير» (٣).

ص: ٢٩٢

-
- ١- (١) «مطايا» جمع «مطيه» الدابة.
 - ٢- (٢) «تشمير» من مادة «شمر» على وزن «تمر» تعنى فى الأصل رفع الكم والاستعداد لعمل ثم اطلق على مطلق الاستعداد والسعى.
 - ٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٢٧٩، ح ٥ من الباب ١٤، أبواب الصدقات.

يَتَّبِعُ مَنْ الظُّلْمِ (١)

نظره إلى الخطبه

قال بعض الشراح أن الإمام علياً عليه السلام قال هذا الكلام لما اعترض عليه بعض أصحابه قائلين: إن معاوية جمع الناس حوله بما يبذل لهم من بيت المال فلو فعلت لرضى الناس ولتوكلوك، فغضب الإمام وصرح بأننى... هذا الكلام الذى يتألف فى الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: الذى استهله ببحث كلى جامع وقارع فى البراءه من الظلم والجور وقال لست مستعداً لأدنى ظلم وجور وإغصاب الله وإسخاطه.

وخاض فى القسم الثانى فى بيان أحد المصاديق الواضحه لذلك المطلب وبين فقر عقيل وما كان يطلب بغير حق من بيت المال وكيف أجابه بالحديده المحماه.

ص: ٢٩٣

١- (١) سند الخطبه: رواها المرحوم الشيخ الصدوق فى كتاب «الأمالى»، كما رواها بعد السيد الرضى، سبط ابن الجوزى فى كتاب «التذكره» عن ابن عباس عن أمير المؤمنين على عليه السلام، والزمخشري فى «ربيع الأبرار»، وابن شهر آشوب فى «المناقب»، ويستفاد من كلام الصدوق فى «الأمالى» أن ما أورده المرحوم السيد الرضى فى هذه الخطبه بعض ما ورد فى خطبه طويله. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٥٩).

وذكر في القسم الثالث مصداقاً حياً آخر عن براءته من الظلم والجور فتطرق إلى قصه الأشعث بن قيس المنافق والحلوى الملقوفه.

واختتم الكلام بعبارات بليغه وفريده في إعلان براءته من الظلم والجور وهضم حقوق الآخرين.

ص: ٢٩٤

وَاللَّهُ لَئِنْ آبَيْتَ عَلَىٰ حَسَبِكَ السَّعِيدَانَ مُسَهَّدًا، أَوْ أُجِرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَيَّدًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَغْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لَشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلَمَ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولَهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولَهَا؟!!

الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم

كما اشير فإن بعض أصحاب الإمام عليه السلام قالوا للإمام: إنك عمد العدالة وتساوى بين الصغير والكبير إلّا أن جماعه نعموا عدالتك بينما يغدق عليهم معاويه الأموال والهدايا حتى التحق به جماعه كثيره فهلا قرّبتهم بالأموال. فأجابهم الإمام عليه السلام بكلام بعضه هذه الخطبه موضوع البحث (1).

يستفاد من هذا الكلام مدى نقمه الإمام عليه السلام من هذا الانحراف الفكرى الذى أصاب جماعه من خاصته، لذلك سعى لإزاله هذه الثقافه الجاهليه الفاشله من أفكارهم التى يتبناها اليوم بعض الساسه المحترفين بايضاحات قاطعه وذكر الشواهد وأمثال ذلك ويستبدلها بثقافه القرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله التى تنشده بسط العدل والقسط تجاه الجميع فقال: «وَاللَّهُ لَئِنْ آبَيْتَ عَلَىٰ حَسَبِكَ (2) السَّعِيدَانَ (3) مُسَهَّدًا (4) ،

ص: ٢٩٥

١- (١) تمام نهج البلاغه، ص ٦٧٩، الطبعة الثانيه.

٢- (٢) . «حسك»؛ يعنى الشوك. كما يطلق على شوك الصحراء أو داخل بدن السمكه.

٣- (٣) «سعدان» نبات رعاه الإبل له شوك تشبه به حلمه الثدى.

٤- (٤) «مسهد» من «السهاد» على وزن «رقاد» بمعنى السهر و «مسهد» من لا ينام الليل.

أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَّ فُتْدًا(١) ، أَحِبُّ إِلَيَّ مَنِ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِّنَ الْحُطَامِ(٢)».

أسوأ العذاب بالنسبة للإنسان أن ينام على أشواك السعدان (الأشواك الثلاثية أطرافه على الأرض وطره الحاد إلى الأعلى) ويقيدون يده ورجله في النهار ويجر في السوق والشارع.

وقد أقسم الإمام عليه السلام بالله بكلّ حزم فقال: تحمل هذا العذاب أهون عليّ من أن ألقى الله وأنا ظالم لبعض العباد وغاصب لشيء من حطام هذه الدنيا الزائلة فذلك العذاب ابدى وعذاب هذه الدنيا عابر مهما كان، فكيف تتوقعون أن أسلك طريق معاويه الذي لا يقيم وزناً لحساب الآخرة. فأترك الشريعة وألجأ إلى الشرك والجاهلية.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَيَّ الْبَلَى قُفُولُهَا(٣) ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى(٤) حُلُولُهَا؟!».

إشاره إلى أنّ أى عقل لا يقبل بهذا المنطق فى أن يضحي الإنسان بالسعادة الأبدية من أجل السعادة العاجله وأولئك الذين لهم هذه الممارسات كمعاويه وبطانته على خطأ عظيم.

وهكذا يريق الإمام عليه السلام الماء الطاهر فى يد من اقترح عليه الظلم واعتقد بأن الغايه تبرر الوسيله فقد يئس أولئك الذين يظنون أنّهم قادرون على تغيير نهجه العادل الشاق للغايه.

ص: ٢٩٦

١- (١) . «مصفد» من ماده «صفد» على وزن «صيد» المقيد و «صفاد» على وزن «عناد» يقال للحبل والقيد.

٢- (٢) «حطام» من ماده «حطم» على وزن «حتم» بمعنى الكسر ويقال لمتاع الدنيا «حطام».

٣- (٣) . «قفول» مصدر بمعنى الرجوع والعودة ومفهوم العبارة كما ورد سابقاً طبق هذا المعنى، ولكن احتمال البعض أنّ «قفول» جمع «قفل» ومعنى العبارة كيف أظلم شخصاً تتآكل بسرعه أفعال ووشائج بدنه.

٤- (٤) «الثرى» التراب.

لا ينبغي أن ننسى أن عهد خلافة الإمام الظاهريه وبمنتهى الأسف، إنما ابتدأت حين اعتاد المسلمون بكرم عثمان على طريقه حاتم الطائي من بيت المال والتميز البغيض والذي أدى بالتالي إلى الخروج عليه وسار معاويه على نهجه، غير أن الإمام عليه السلام كان يسعى لإعاده الأمة إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ورغم عدم تحقيق هذا المشروع، النتيجة التامة؛ لكنه انطوى على فائده مهمه حفظت رساله الإسلاميه الأصيله وفضحت المنحرفين.

ص: ٢٩٧

وَاللّٰهُ لَقَدْ رَأٰتُ عَقِيْلًا- وَقَدْ اَمْلَقَ حَتّٰى اسْتَمَاحَنِىْ مِنْ بُرْكَمٍ صَاعًا، وَرَأَيْتُ صَيِّبًا نُهُ شُعْثَ الشُّعُوْرِ، غُبْرَ الْاَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَانَمَا سُوْدَتْ وُجُوْهُهُمْ بِالْعِظْمِ، وَعَاوَدَنِىْ مُؤَكَّدًا، وَكَزَرَ عَلٰى الْقَوْلِ مُرَدَّدًا، فَاَصْبَغْتِ اِلَيْهِ سَمْعِىْ، فَظَنُّ اَنْنٰى اَبِيْعُهُ دِيْنِىْ، وَاتَّبَعْتُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيْقَتِىْ، فَاَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيْدَهُ، ثُمَّ اَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيُعْتَبَرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيْحٌ ذِىْ دَنْفٍ مِنَ الْمَهْوَا، وَكَادَ اَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسِرِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكَلْتُكَ التَّوَاكُلُ، يَا عَقِيْلُ! اَتَيْتُنُّ مِنْ حَدِيْدِهِ اَحْمَاهَا اِنْسَانُهَا لِلْعَبِيْهِ، وَتَجْرُنِىْ اِلٰى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَارُهَا لِغَضَبِهِ! اَتَيْتُنُّ مِنَ الْاَذٰى وَلَا اَتِيْنُّ مِنْ لَظِيْ؟!

الشرح والتفسير: قصة الحديد المحماه

كان للإمام عليه السلام فى القسم السابق بحث كلى بشأن اجتناب الظلم والجور التى تشير إلى ذروه السلامه من الظلم والجور، وقد ركز هنا على مصداقين واضحين كشاهدى صدق على ما ذكر. فبين أولاً قصه عقيل والحديده المحماه فشرح نموذجاً من عدله الذى ليس له مثل ربما فى تاريخ العالم فقال: «وَاللّٰهُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيْلًا وَقَدْ اَمْلَقَ (١) حَتّٰى اسْتَمَاحَنِىْ (٢) مِنْ بُرْكَمٍ (٣) صَاعًا (٤)».

ص: ٢٩٩

١- (١) «أملق» من «الإملاق» بمعنى الفقر ومادته الأصلية «ملق» على وزن «شفق» النعومه ويقال الفرد المتملق كونه يتخذ حاله الذله والنعومه واستعملت بحق الفقير لهذه الحاله.

٢- (٢) «استماحنى» من «الاستماحه» الاستعطاء.

٣- (٣) «البر» القمح.

٤- (٤) «صاع» أحد الأوزان وهو أربعة امداد وكل مد أقل من نصف كيلو، سبعمائه وخمسون غراماً تقريباً.

ظاهراً، مراد عقيل «صاع» كحصه يومية منظمه لتؤمن بصوره كامله هذه الماده الغذائيه وإلا لو كان صاعاً ليوم فإنه لا يحل مشكلته وليس له قيمه أن يأتي عقيل من ذلك البعد لأخيه.

كما تجدر الاشاره إلى أنّ عقيلاً طلب طلباً آخر بأداء دين ثقيل عليه لكن الإمام اقتصر على الإشاره إلى الطلب الأول. ثم قال: «وَرَأَيْتُ صَبِيَّاهُ شُعَثَ (١) الشُّعُورِ، غُبْرَ (٢) الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُودَّتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعَظْمِ (٣)».

وأضاف عليه السلام: «وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَصْبَغْتُ (٤) إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي».

شرح الإمام عليه السلام هنا جميع العوامل التي يراها اهل الدنيا تقتضى التمييز بالنسبه لأخيه.

فمن جانب لم يطلب كثيراً.

ومن جانب آخر كان أولاده فقراء ومعدمين.

وأخيراً كان يكثر من تكرار طلبه.

ولكن مع كل ذلك كان على الإمام أن يميز بين عقيل والآخريين من المحتاجين ويعطى لأخيه من بيت المال العائد لعامة المسلمين ويضفى عليه ميزه خاصه.

قطعاً هذا العمل لا ينسجم مع العدالة الإسلاميه وسمو روح الإمام عليه السلام، لذلك وبغيه كفّ عقيل عن التكرار ليقنع بحقه من بيت المال عامله بما يثبت له عملياً عاقبه الظلم فقال: «فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَهُ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا».

ص: ٣٠٠

١- (١). «شُعَثَ» جمع «أشعث» المجعد الشعر.

٢- (٢) «غُبْرَ» جمع «أغبر» من علاه الغبار.

٣- (٣) «عظلم» نبت يصبغ به ما يراد إسوداده.

٤- (٤). «أصغيت» من «الإصغاء» السمع.

عقيل ظاهراً كان مكفوفاً آنذاك ومدّ يده علّه يحصل على درهم أو دينار ولم يكن يعلم ما الذى ينتظره فلما شعر بالحراره تقترب من يده: «فَضَحَّ ضَحِيحٌ ذِي دَنْفٍ (١) مِنْ أَلْمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسَمِهَا (٢)».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّمْتُكَ التَّوَاكِلَ (٣)، يَا عَقِيلُ! أَتَيْتُنْ مِنْ حَدِيدِهِ أَحْمَاها إِنْسَانُهَا (٤) لِلْعَبِيهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَا سَجْرَهَا (٥) جَبَّارُهَا لِعُضْبِهِ! أَتَيْتُنْ (٦) مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتُنُّ مِنْ لَظِي؟! (٧)».

«ثواكل» جمع «ثاكله» الأم التى مات ولدها وإن اطلق على كل ام فى عزاء.

التعبير باللعب إشاره إلى أنّ نار الدنيا مهما كانت محرقة إلّا أنّها ليست أكثر من لعبه إزاء نار الآخره فالنار الحقيقه هناك، لذلك عبّر الإمام عليه السلام عن الأولى ب «أذى» والثانيه «لظى».

يستفاد ضمناً من تعبيرات الإمام عليه السلام خلافاً لما يظنه بعض الجهّال، فإنّ الإمام عليه السلام لم يضع قط حديده محماه فى يد عقيل، بل قربها من يده وحيث كان أعمى خاف وصرخ.

انتشرت هذه القصّه فى جميع الأوساط حتى وصلت إلى معاويه حسب بعض الروايات فأيقظت العديد من الغافلين وأفادت نهايه الكرم العثمانى من بيت المال على القرابه والأفراد المقربين. فإذا كانت هذه معامله الإمام لأخيه إزاء طلب صغير على خلاف العداله فما بال الآخرين، فما عليهم سوى عدم التفكير بأى امتياز.

وتطلق هذه المفرده أحياناً على جهنم كما ورد فى الآيه ١٥ من سوره المعارج:

«كَأَنَّهَا لَظِي».

بعباره اخرى أنّ ذلك لم يكن درساً لعقيل فحسب، بل لعامه الناس فى العالم

ص: ٣٠١

١- (١) «دنف» السقم الشديد.

٢- (٢) «ميسم» اسم آله من ماده «وسم» الحراره الشديده؛ ولكن يبدو أنّها وردت هنا بصيغه المصدر بمعنى الحراره.

٣- (٣) . «ثواكل» جمع «ثاكله» الأم فى عزاء ابنها وتستعمل أحياناً المرأه المعزاه.

٤- (٤) . «إنسانها» هنا بمعنى: صاحبها.

٥- (٥) «سجرتها» من «السجور» تعنى فى الاصل اشعال نار التنور ثم اطلقت على كل اشعال.

٦- (٦) «تتن» من ماده «انن» الأنين والتألم.

٧- (٧) «لظى» شعله النار الخالصه التى تكون شديده الحراره.

الإسلامى فأفاد مساواه الجميع أمام العدالة، وليس لأحد طلب المزيد وإن كان أقرب المقرّبين إلى رئيس الدولة. الطريف ما ورد فى ذيل بعض الروايات أنّ عقيلاً قال للإمام عليه السلام إذا كان الأمر كذلك فسأذهب إلى من يكثر من البذل والعطاء. ومراده (معاويه) فردّ عليه عليه السلام: «راشداً مهدياً» (١).

ولترك الكلام لعقيل يتحدّث عن قصه الحديده المَحماه: ثم تلا الآية: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» (٢).

فقال معاويه: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَهُ» (٣).

وقد روى المرحوم العلامة المجلسى فى «بحار الأنوار» قصّه مكمله لما سبق (٤).

على كلّ حال تشير القرائن إلى أنّ هدف الإمام عليه السلام لم يكن مجرد بيان قضيه شخصيه وتحذير عقيل، بل كان الهدف انتشار هذه القضيه فى كلّ مكان وكان كذلك وأن يفكر أصحاب الامتيازات أنّ تكليفهم أصبح واضحاً بعد أن تصرف الإمام مع عقيل بهذه الطريقه فلا- يفكرون قط فى تلك الامتيازات، وبعباره أخرى كان الهدف وضع حد لثقافه عهد عثمان فى بيت المال وإعاده ثقافه العهد النبوى.

تأملان

١. نظره إلى شخصيه عقيل

هو عقيل بن أبى طالب وأخو أمير المؤمنين على عليه السلام لأمه وأبيه وكان بنو أبى طالب أربعة وهو أسن من الإمام بعشرين سنه ويكنى أباً يزيد.

وكان أبو طالب يحبّه كثيراً فلذلك قال له النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا أبا يزيد إننى أحبّك حُبِّين؛ حُبّاً لقرابتك منى وحُبّاً لما كنتُ أعلمُ من حُبِّ عمى إياك».

ص: ٣٠٢

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم مغنيه، ج ٣، ص ٣١٦.

٢- (٢) سوره غافر، الآية ٧١.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه ابن ابى الحديد، ج ١١، ص ٢٥٣.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١١٣ و ١١٤ (روى المرحوم العلامة المجلسى هذا الحديث عن ابن شهر آشوب).

وورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «إِنَّ وَلَدَهُ لَمَقْتُولٌ فِي مَحَبَّتِهِ وَلَدِكَ فَتَدْمَعُ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُؤْمِنِينَ وَتُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ عَلَى صَدْرِهِ».

شهد عقيل كعمه العباس بن عبدالمطلب معركة بدر الكبرى مع المشركين مجبراً فأسر وعاد إلى مكة بفديه وأسلم بعد صلح الحديبيه وهاجر ووصل إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (١).

٢. التسويه بين المسلمين في بيت المال

لا شك في أن لبيت المال مصادر مختلفه؛ وأحد تلك المصادر، الزكاه، ونعلم أن المساواه ليست شرطاً في الزكاه، بل تصرف الزكاه على أساس الحاجه كما لا ضروره لأن ننتظر محتاجاً آخر بحضور محتاج معين، بل لنا أن نعطي المحتاج الحاضر بما فيه الكفايه.

المصدر الآخر: الخمس الذي كان يؤخذ في صدر الإسلام غالباً من غنائم الحرب، والخمس بيد الحاكم الإسلامي ليصل المحتاجين حسبما ورد في الفقه والروايات ولا يشترط فيه المساواه أيضاً.

الثالث: الغنائم الحريه التي توزع على المقاتلين بالسويه؛ لكن للمشاه سهم وللفرسان سهمان حيث كانوا آنذاك هم الذين يشتركون الفرس، طبعاً كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أحياناً يستجيز أصحابه في دفع شيء من الغنائم إلى أفراد معينين لجلبهم إلى الإسلام.

المصدر الرابع والخامس والسادس، المداخل الخيره وخمس غير الغنائم والأنفال التي لا يشترط في توزيعها المساواه أيضاً، ولا مجال لشرحها هنا.

المصدر السابع الذي كان أهم من الكل آنذاك والذي يشكل عمده بيت المال

ص: ٣٠٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٠؛ شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٢٣.

وهو دخل أراضى الخراج؛ أى مبالغ الاستتجار أو خراج الأراضى للمناطق المفتوحة والتي توضع فى خزانه الدوله الإسلاميه، فتلك الأراضى ملك لعامه المسلمين وليس الجيل القائم آنذاك، بل جميع الأجيال، وبالطبع فإن دخلها يعود إلى الجميع. بالضبط كالمملك المشاع الذى يتساوى فيه الجميع، ومن الطبيعى أن ليس للدوله الإسلاميه أن تميز بين المسلمين فى هذا الدخل. وإن لم يلتزم اغلب الخلفاء بهذا الحكم وبل يتصرفون فى تلك الاموال حسب ما يشاؤون.

وماورد فى قصه عقيل فى هذه الخطبه يتعلق بهذا الأمر الذى يشكل أهم قسم فى بيت المال ولعل عقيلاً أعتقد أن تلك الأموال بيد الحاكم الإسلامى يتصرف بها كما يشاء ولاسيما أنه شاهد ما كان يفعله الخليفه الثالث بتلك الأموال.

ص: ٣٠٤

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفِهِ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونِهِ شَنْتِهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيِّهِ أَوْقَيْنِهَا، فَقُلْتُ: أَصَدِّقْهُ، أَمْ زَكَاهُ، أَمْ صَدَقَهُ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبْ لَكَ الْهُبُولُ! أَعَزَّ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُخَدَعَنِي؟ أَمْحَتِطُ أَنْتَ أَمْ ذُو جَنِّهِ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقْبَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلِهِ أَسْأَلُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مِمَّا فَعَلْتَهُ، وَإِنْ دُنِيَ أَيْدِي لَأَهْوُونَ مِنْ وَرَقِهِ فِي فَمِ جَرَادِهِ تَقْضِي مُمَاهَا. مِمَّا لِعَالِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَمَذَّةٍ لَا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس

بيّن الإمام عليه السلام في القسم السابق كما رأينا القصة التاريخية لأخيه عقيل والحديده المحماه لبياس أصحاب الامتيازات الطامعين في بيت المال، القصة التي تتجلى فيها ثقافه العدالة الإسلاميه وتقديم الضابطه على الرابطة، ثم أشار هنا إلى مصداق آخر من هذا القبيل فذكر قضيه المنافق الأشعث بن قيس وقال: «وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ» (١) طَرَقَنَا بِمَلْفُوفِهِ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونِهِ شَنْتِهَا (٢)، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيِّهِ أَوْقَيْنِهَا».

ص: ٣٠٥

١- (١). «طارق» من «الطروق» و «طرق» بمعنى الدق ويقال الطارق لمن يذهب ليلاً إلى آخر حيث الباب مغلق عادة ولا بد أن يدقّه ليدخل.

٢- (٢) «شنت» من «الشنان» على وزن «غثيان» البغض والكراهيه و «شنت» كرهت.

المعروف أنّ ذلك الطارق كان الأشعث بن قيس رأس النفاق في الكوفة شبيه عبدالله بن أبي رأس النفاق على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المدينة.

أمّا قول الإمام عليه السلام: «مَلْفُوفَةٌ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٌ شَنْبُوتُهَا، كَأَنَّهَا عَجِنَتْ بِرَيْقِ حَيْهٍ أَوْقَيْتُهَا» حيث كان هدف الأشعث أن يستعطف قلب الإمام لتحقيق غرض دنيوي. (يقال أحياناً إنه تنازع مع أحد المسلمين باطلاً على مياه وملكك، ورفع الأمر إلى علي عليه السلام، لعل هذا الرجل الأعمى البصيره أراد من خلال ذلك أن يستميل الإمام ويشتري رأيه؛ ولكن الإمام عليه السلام رأى بعينه الملكوتيه باطن تلك الحلوى الذي كان كسم الحيه، لأنها كانت بمثابة رشوه).

المفردة «مَلْفُوفَةٌ» رغم أنّها من ماده «لَفَّ» لتشير هنا إلى طرف القماش الذي يلف به؛ ولكن حيث قال الإمام عليه السلام كانت تلك الملفوفه في وعاء وعطف عليها مفرده معجونه فيحتمل أن تكون الملفوفه نوعاً من الحلوى التي كانت معروفه ومرغوبه في الكوفه(١).

احتمل بعض شراح نهج البلاغه أنّ المفردة «قىء» بمعنى سَم الحيه لاقبيتها، لأنها تطرحه من فمها كقيتها وهذا ما يقتضيه المقام والشائع لدينا في الاستعمال بشأن الطعام. «فَقُلْتُ: أَصِلَّهُ، أَمْ زَكَاهُ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ».

طبعاً الزكاه محرمه على جميع بنى هاشم والصدقه التي تشير إلى الإنفاق المستحب وهي ليست حرام حسب المشهور ولعل حرمتها كانت مختصه بأهل البيت عليهم السلام، واحتمل البعض أنّها إشارة إلى الكفارات والصدقات الواجبه غير الزكاه، هذا أيضاً حرام على بنى هاشم.

أمّا «صله» فربما تعني الرشوه التي يعبر عنها في مباحث رشوه القاضي ب «صله»

ص: ٣٠٦

١- (١) أشار الشيخ محمد عبده إلى هذا المعنى في شرحه لنهج البلاغه (ج ٢، ص ٢١٨) وقال: كانت الملفوفه نوعاً من الحلواء أهداها إليه الأشعث بن قيس.

القضاء» ومن هنا يقال لها «صله» التي يجعلها الراشى وسيله للوصول إلى هدفه غير المشروع.

وقيل «صله» تعنى «هديه» أو جائزه ومنه فى جائزه الشاعر، يقال «صله شاعر» وعليه فالعباره: «لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ» إشاره إلى نفى الزكاه والصدقه وإثبات كونها هديه.

كما احتمال أن تكون العبارة «لا ذا ولا ذاك» نفى للجميع؛ أى ليست رشوه ولا زكاه ولا صدقه، بل هديه.

ثم وجه الإمام عليه السلام أشد ضربات التوبيخ والتفريع للمناق الأشعث بن قيس، وقال: «فَقُلْتُ: هَبْلَتُكَ الْهَبُولُ!» (١) أَعْنُ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُخَدَعَنِي؟».

إشاره إلى أنك كأغلب الشياطين تلبس طلبتك المنكره لباس الشرعيه لتحقيق غرضك فتسمى الرشوه هديه وتظن أنك تغرّ بهذا الظاهر من ترى عينه أعماق الوجود. ثم قال: «أَمْخَبْتُ أَنْتَ أُمُّ ذُو جَنِّهِ، أَمْ تَهْجُرُ؟».

إشاره إلى أن عاقلاً لا يتصور أن أحداً يمكنه خداع شخص كعلى عليه السلام بهديه تفوح من باطنها رائحه الرشوه فإن جرب ذلك أحدهم فهو مجنون أو مختبئ فى عقله لمرض.

«مختبئ» من ماده «خبط» بمعنى فقدان التوازن ويستعمل تاره فى التوازن الظاهرى وأخرى فى التوازن الفكرى، والمعنى الثانى هو المراد هنا والعباره «ذُو جَنِّهِ» إمّا إشاره إلى وساوس الشيطان التى تعدّ من الجنون ويختل إثرها عقل الإنسان، أو إشاره إلى المعروف بين الناس حيث البعض ممن أصابه الجن.

المفردة «تَهْجُرُ» من ماده «هَجَرَ» هذيان القول، وعليه فالفرق واضح بين هذه المفردات الثلاث؛ فالمختبئ المختل العقل الذى يفقد توازنه العقلى، وذو جنه، الذى يعانى من نوع من الجنون لعامل باطنى، وتهجر تقال للمجنون ذاتاً ويصاب بالهذيان

ص: ٣٠٧

١- (١) «هبول» صفة مشبهه، المرأه لا يبقى لها ولد فهى كثيره البكاء.

طبعاً حين تكون هذه المفردات مع بعضها تفيد المعنى المذكور بينما إن أتت كلّ مفردة لوحدها أفادت معانٍ أُخرى.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه بمنتهى الأهميه بشأن عدالته لعلها لم تسمع من غيره طيله التاريخ ليفهمه مدى الخطأ الذي إرتكبه ولم يعرفه وهي تحذير إلى جميع الزعامات وحكام المجتمعات الإنسانيه فقال: «وَاللّٰهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ (١) بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلِهِ أَسْلُبَهَا جُلْبَ (٢) شَعِيرِهِ مَا فَعَلْتُهُ».

ثم تطرق عليه السلام إلى دليل ذلك فقال: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقِهِ فِي فَمٍ جَرَادِهِ تَقْضُمُهَا (٣)».

وأكد عليه السلام ذلك بالقول: «مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذِهِ لَا تَبْقَى!»..

حيث صرّح الإمام عليه السلام في هذه العبارات الصريحه والبليغه، لو أعطيت أعظم الرشاوى المتصوره في العالم بما فيها ما على الأرض والقصور والثروات والأموال، لأمارس أدنى ظلم وهو سلب غطاء حبه شعير (لا حبه شعير) من فم نمله والتي تبدو أصغر المخلوقات، لما فعلت.

ما أكثر الأفراد الذين تستميلهم المبالغ البسيطة والمتوسطه في الرشوه أما إذا كان امتيازاً هاماً يعادل جميع حياته فذلك ما يهزه من الأعماق.

وهل هنالك من يسعه الزعم أنه لن يمارس أدنى خلاف ولو أعطى أعظم امتياز

ص: ٣٠٨

١- (١) . الأقاليم السبعه، «أقاليم» جمع «إقليم» جزء من العالم أو البلد وقد قسم قدماء الجغرافيين العالم إلى سبعة أقاليم ولم تكن حدود تلك الأقاليم محدده لعدم وجود الخرائط الجغرافيه الدقيقه عن العالم. على كلّ حال الأقاليم هي: الإقليم الأول، الهند. الثاني، بعض البلدان العربيه والحبشه، الثالث، مصر والشام، الرابع، ايران. الخامس، الروم. السادس، الترك، السابع، الصين. (قاموس دهخدا، ماده إقليم). لعل هنالك تقسيماً آخر للجغرافيين وعلى كلّ حال مراد الإمام عليه السلام لو أعطيت كلّ مناطق الكره الأرضيه.

٢- (٢) «جلب» الغطاء الذي يحيط بحبه القمح أو الشعير كما يطلق «جلب» على ما يغطي به الجرح بعد أن يبرأ.

٣- (٣) «تقضمها» من ماده «قضم» على وزن «هضم» بمعنى العض والمضغ.

ولا يهتر لذلك؟ الإمام يقول أنا ذلك الشخص ويقسم عليه صراحه.

ويمكن توجيه الدليل الذى ذكره الإمام عليه السلام على هذا الأمر، فالامتيازات الماديه إنَّما تحظى بأهميه من الدنيا كبيره وعظيمه لديه أمّا من كان فى قمه معرفه الله وكل ما سواه لا- شىء بالنسبه له والدنيا عنده كورقه نبات فى فم جراده، فليس هنالك من داعٍ لأن يعصى الله ويرتكب الظلم.

فالإمام على عليه السلام كان ينظر إلى باطن الدنيا ببصيرته؛ حيث كان يرى كل تلك الملذات والنعم الماديه آيله إلى الفناء والزوال وليس هنالك ما يستحق التعلق به أو يفكر بالتعلق به.

ومن هنا إن أردنا أن نقطع دابر الرشوه والظلم والجور والتعدى على حقوق الآخرين لابد أن نجتهد من أجل رفع مستوى معرفه الإنسان بالله والدنيا.

يفهم ضمناً من هذه العبارات بالدلاله الالتزاميه أن الظلم والجور والحكم بغير الحق لمن أسوأ المعاصى لاينبغى إرتكابها حتى لو حصل على الدنيا برمتها.

ثم اختتم الإمام عليه السلام بعبارة موجزه وموظفه فى الواقع ناظره لكل مضمون الخطبه فقال: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَيِّئَاتِ (1) الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلْلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ».

إشاره إلى أن العقل إن كان يقظاً واقترن بلطف الله لما قارف الإنسان الكبيره وقلمما يرتكب الصغيره.

ونختتم هذا الكلام بنقل روايتين: قال الحافظ أبونعيم الاصفهاني أحد علماء العامه فى كتابه المشهور «حليه الأولياء»: «إنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«يَا عَلِيُّ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ زَيَّنَكَ بِزِينَةٍ لَمْ يُزَيِّنِ الْعِبَادَ بِزِينَةٍ أَحَبَّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنْهَا هِيَ زِينَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَالزُّهُدُ فِي الدُّنْيَا فَجَعَلَكَ لَا تَزُزُّ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً وَلَا تَزُزُّ مِنْكَ

ص: ٣٠٩

١- (١) «سبات» من ماده «سبت» على وزن «وقت» التعطيل لأجل الاستراحه؛ ويطلق «سبات» على التوقف عن العمل وهذا هو المراد بها فى العبارة وتسميه السبت لدى العرب كون هذه التسميه فى الأصل جاءت من اليهود لأنهم يعطلون أعمالهم فى يوم السبت.

وورد في روايه أخرى أنّ امرأه شجاعه من شيعه على عليه السلام تدعى «دارميّه الحجويّه» أُحضرت عند معاويه فسألها:

هل رأيت عليّاً؟

قالت: أى والله رأيتّه.

قال: كيف رأيتيه؟

قالت: «رَأَيْتُهُ لَمْ يَفْتِنَهُ الْمُلْكُ الَّذِي فَتَنَكَ وَلَمْ تَشْغَلْهُ النَّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ» (٢).

تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟

ذكرنا فى الجزء الأول عند تفسير الخطبه التاسعه عشره أنّ «الأشعث» كان من المنافقين ثمّ أسلم ظاهراً على عهد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ثم إرتدّ بعد وفاته وأسر فندم عند أبى بكر فعفا عنه، ووقف إلى جانب أعداء أمير المؤمنين على عليه السلام مثل عمرو بن العاص، لبث الفرقة والنفاق فى صفوف أصحاب الإمام ليكون مصدراً لكثير من المفاسد والاضطرابات، وكان صاحب نفوذ فى قبيلته فكان يستعين بهم لتحقيق مآربه، حتى قال بعض المحققين: إنّ أغلب مشاكل عصر خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام كانت من هذا المنافق اللدود.

للمزيد يراجع الجزء الأول صفحه ٦٤٤ فصاعداً.

ص: ٣١٠

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئى، ج ١٤، ص ٢٩٧، الطبعة القديمه.

٢- (٢) كتاب بلاغات النساء، ص ١٠٦ طبق نقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٤١.

يَلْتَجِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يُعِينَهُ (١)

نظره إلى الخطبه (الدعاء)

الهدف الأصلي للإمام عليه السلام في هذا الدعاء كما يتضح من العنوان، طلب الغنى وعدم الحاجه إلى غيره، فالحاجه إلى الآخرين مدعاه أحياناً لمدح الآخرين، بينما لا يستحقون ذلك المدح، أو ذم المانعين ولعلمهم لا يستحقون ذلك الدم، والأسوأ من ذلك مد اليد إلى شرار الخلق، فالدعاء في الواقع تعليم لجميع الناس ولاسيما الأتباع، وإلا فالإمام عليه السلام أسمى مقاماً من أن يتجه صوب الأشرار أو يمدحهم.

ص: ٣١١

١- (١) سند الخطبه (الدعاء): روى هذا الدعاء باضافات الراوندى في كتاب «الدعوات» وجاء بعد قوله: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرَعُهَا مِنْ كَرَائِمِي وَأَوَّلَ وَدِيْعَةٍ تَوْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نَعْمِكَ» وتشير هذه الإضافة إلى أَنَّ الراوندى اقتبس الدعاء من مصدر آخر غير «نهج البلاغه». كما ذكره باختلاف صاحب كتاب «الطراز» (السيد اليماني) وهذا يدل على أَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ مَصْدَرٍ آخَرَ. وَضَمَّنَهُ الْإِمَامُ السَّجَادُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعَاءِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ بِاخْتِلَافٍ طَفِيفٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ أَهْلِ الْبَيْتِ (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٦٠).

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ، فَاسْتَرْزِقْ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسِدِّتْ عَطْفَ شَرَارِ خَلْقِكَ، وَأَبْتَلِي بِحَمْدٍ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتِنَنَّ بِدَمٍّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَإِيَّاكَ أَعْطَاءٌ وَالْمَنْعُ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!

ذكر الإمام عليه السلام في هذا الدعاء القصير مطالب عميقة ضمن ثمان عبارات فهو دعاء ودرس في الأخلاق، فيبين في البدايه أصل الدعاء بعبارتين فقال: «اللَّهُمَّ صُنْ (١) وَجْهِي (٢) بِالْيَسَارِ (٣)، وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي (٤) بِالْإِقْتَارِ (٥)».

ليس المراد من «اليسار» الغنى بالمعنى السائد في العرف، بل المراد الغنى عن الآخرين المقترن بالكفاف والعفاف، وإلّا فالغنى بالمعنى المذكور يؤدي أحياناً إلى إراقه ماء الوجه، وهنالك تفسيران للعبارة «وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ» بالنظر إلى أنّ «ولا تبدل» من ماده «بذل» و «بذل» له معنيان: أحدهما العطاء والفقدان، والآخر القدم والضياع: التفسير الأول اللهم لا تتوفاني على الفقر، والآخر لا تبدل شخصيتي بالفقر.

ص: ٣١٣

١- (١) «صن» من «الصيانه».

٢- (٢) «وجه» تعني هنا الكرامه وإن كان معناها الأصلي هو الوجه.

٣- (٣) «اليسار» من «اليسر» السهوله والغنى وهو المعنى المراد في العبارة.

٤- (٤) «جاه» القدر والمقام والشرف.

٥- (٥) «اقتار» من «القتور» على وزن «فتور» المشقه في الإنفاق.

ثم خاض في أربع عبارات في آثار الفقر والحاجه إلى الآخرين فقال:

«فَأَسْتَرْزِقُ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعِطِفُ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي».

وقال عليه السلام في الختام: «وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات الموجزه في أربعه آثار سيئه للفقر التي تتم في مرحلتين فقال أولاً: أدنى ما يترتب على ذلك أن أمد يد الحاجه إلى المحتاجين إليك والأسوأ من ذلك أن تقضى الحاجه من قبل السيئين، وحقاً أليمه للغايه هي الحياه في ظلّ تلك الشرائط بالنسبه للأفراد المؤمنين ذوى الشخصيه.

في المرحله الثانيه: أى بعد الطلب فإن أجاب الطرف المقابل اضطر الإنسان إلى مدحه وإن تحفّظ عن الاجابه انطلق لسانى بدمه ولعل لديه حاجاته الكبيره، ولكن حيث «صاحِبُ الْحَاجَةِ لَا يَرَى إِلَّا حَاجَتَهُ»^(١)، فبمجرد أنه لم يستجب لى اتهمته بالبخل، والحال ما أحرانى أن أتجه إلى الله فهو ولى المنع والعطاء وهو القادر على كلّ شىء!

من البديهي أن روح الإمام عليه السلام الساميه لا تقبل هذه الأمور قط وإن أصابته الحاجه، فالإمام يريد بيان الآثار الطبيعيه للفقر والتي تبدو على أغلب الناس ليجدوا ويواجهوا الفقر ولا يمدوا أيديهم إلى الآخرين أبداً.

تأمل: الآثار السيئه للفقر

رغم ما ورد في عدّه روايات فى مدح الفقر، كحديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «الْفَقْرُ

ص: ٣١٤

١- (١). وردت هذه العبارة فى الروايات وتطلق بصيغه مثل معروف بتعبيرات مختلفه، مثل «صاحِبُ الْحَاجَةِ لَا يَرُومُ إِلَّا قَضَاءَهَا» أو «صاحِبُ الْحَاجَةِ أَرَعْنَ لَا يُرِيدُ إِلَّا قَضَاءَهَا» أو «صاحِبُ الْحَاجَةِ أَعْمَى وَلَوْ كَانَ بَصِيرًا». (كشف الخفاء، العجلونى، ج ٢، ص ١٨).

فَخَرَى وَبِهِ أَفْتَحِرُ». وروايه الإمام الصادق عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا فَقُلْ مَرْحَبًا بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا فَقُلْ: ذَنْبٌ عَجَّلَتْ عُقُوبَتُهُ»^(١). وسائر الروايات، ولكن من الواضح أَنَّ الفقر بمعنى العوز ولاسيما الذى يحصل بفعل الكسل والتقصير وضعف الإدارة فانه ليس مدعاه للفخر ولا شعار الصالحين، بل مدعاه للذل والهوان والتلوث بأنواع المعاصي.

المدعاه إلى الفخر، الفقر إلى الله، فالكل محتاج إلى الله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»^(٢) والذى يشبه ما ورد فى حديث أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا وَكَفَى بِي فَخْرًا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا»^(٣).

أو أنّ المراد بالفقر، الحياه البسيطة الخاليه من التكلف والتعقيد إزاء الثراء الذى يؤدى إلى السكر والغرور والتناول.

والعبارة «شعار الصالحين» عن الفقر، والتعبير ب «العقاب المعجل» عن الغنى، شهاده واضحه على هذا المعنى، لأنّ شعار الصالحين قطعاً ما يوجب الصلاح والفلاح؛ كالزهد وبساطه العيش وعقوبه المعصيه ترتبط بالأمر الملوث بالذنب.

كما يحتمل أن تكون بعض الروايات التى أثنت على الفقر تشير إلى الفقر المفروض الذى يطال الإنسان إثر القيام بالوظيفه، مثلاً، فى بدايه الدعوه النبويه اضطر العديد من المسلمين إلى الهجره من مكه إلى المدينه ولم يتمكنوا من حمل ممتلكاتهم معهم فعانوا هناك من فقر شديد أو المسلمون الذين حاصرهم خصوم الدعوه اقتصادياً فأصبحوا فقراء، الفقر الذى أصابهم بسبب الإيمان بالله وطاعه أوامره وكان النبى صلى الله عليه و آله يواسيهم ويبيّن لهم أنّ الفقر مدعاه للفخر وشعار الصالحين.

ص: ٣١٥

١- (١). الكافى، ج ٢، ص ٢٦٣، ح ١٢ من باب فضل فقراء المسلمين.

٢- (٢). سوره فاطر، الآيه ١٥.

٣- (٣) الخصال، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

كما عانى خواص أهل البيت عليهم السلام فى العصور اللاحقه بمضمون المثل المعروف «الْبَلَاءُ لِلْوَلَاءِ» من هذا الفقر المفروض واستمر ذلك حتى عصرنا الحاضر، وهذا الفقر ليس بعيداً عن العيب فحسب، بل هو فخر، والعيب أن يتخلى الإنسان عن الوظيفه من أجل الدنيا والاستسلام للعدو.

وإلى ذلك أشار الحديث الشريف «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَعُدَّ لِلْفَقْرِ جَلْبَاباً» (١).

وعليه فالفقر الحاصل من الكسل والهروب من العمل أو سوء الإدارة ليس مطلوباً للإنسان قط.

ويشير كلام الإمام عليه السلام فى هذا الدعاء إلى أن سلسله من الرذائل الأخلاقيه التى يفرزها الفقر بمعنى العوز والحاجه، فالتواضع للأشرار ومدح وذم من لا يستحق، لمن تلك الرذائل الأخلاقيه التى تنشأ من الفقر بمعنى العوز.

الجملة «لا- تَبْدُلْ جَاهِي بِالْأُتَارِ» دليل على أن الفقر الفردى يزيل ماء وجه الإنسان، والفقر الاجتماعى يزيل ماء وجه المجتمع وهذا ما لا ينسجم أبداً والعزه الناشئه من الإيمان: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (٢).

قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «يَا بَنِي الْفَقِيرِ حَقِيرٌ لَا يَسْمَعُ كَلَامَهُ وَلَا يُعْرِفُ مَقَامَهُ لَوْ كَانَ الْفَقِيرُ صَادِقاً يُسْمَوْنَهُ كَاذِباً وَلَوْ كَانَ زَاهِداً يُسْمَوْنَهُ جَاهِلاً».

ثم أضاف عليه السلام: «يَا بَنِي مَنْ ابْتُلِيَ بِالْفَقْرِ ابْتُلِيَ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالضَّعْفِ فِي يَقِينِهِ وَالتُّقْصَانِ فِي عَقْلِهِ وَالرَّفَقَةِ فِي دِينِهِ وَقَلَّةِ الْحَيَاءِ فِي وَجْهِهِ، فَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفَقْرِ» (٣).

وإننا نرى اليوم بأمر أعيننا أن الفقر مصدر ما لا يحصى من المفاسد كالابتلاء بالمخدرات والفحشاء والخيانة والسرقة وخدمه الأجانب وما شابه ذلك، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «غِنَى يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُكَ

ص: ٣١٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦.

٢- (٢) سورة المنافقون، الآية ٨.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٤٧، ح ٥٨، من باب فضل الفقر والفقراء.

عَلَى الْإِثْمِ»(١).

ولذلك قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «الْفَقْرُ سَوَادُ الْوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ»(٢).

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»(٣).

ومن الطبيعي أن تكون تلك العيوب التي اشير إليها أعظم خطوره إن عمّ الفقر المجتمع، وإنما نرى اليوم المجتمعات الإسلاميه الفقيره كيف هوت في مخالبا الأجانبا وأعداء الإسلام بما يدعو الإنسان إلى مزيد من الأسي والأسف.

ونختتم هذا البحث بدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام ضمن أحد أدعيته العميقه المعاني إذ تضرع: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَعِيشَةِ مَعِيشَةً أَقْوَى بِهَا عَلَى طَاعَتِكَ وَأَنْبَلُ بِهَا جَمِيعَ حَاجَاتِي وَأَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُتْرَفَنِي فِيهَا فَأَطْغَى أَوْ تَفْتَرَهَا عَلَيَّ فَأَشْقَى»(٤).

ص: ٣١٧

١- (١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح ٧.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠.

٣- (٣) المصدر السابق.

٤- (٤) المصدر السابق، ج ٨٧، ص ١٢.

فى التَّنْفِيرِ مِنَ الدُّنْيَا (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه فى الواقع من ثلاثه أقسام وكل قسم فى مطلب مكمل لمطلب آخر: خاض الإمام عليه السلام فى القسم الأول فى التعريف بالدنيا أنها دار متقلبه مليئه بالأحداث الأليمه دائمه التغير وأهلها عرضه لسهام البلاء.

وحذر فى القسم الثانى من أن قبلكم كثير ممن عمّر الدنيا وكانوا أكثر منكم إمكانات وأقوى لكنهم رحلوا جميعاً وحلّوا مساكن من التراب والطين والحجر بدل تلك القصور، هى قبورهم.

ص: ٣١٩

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه المّتقى الهنّدى من فقهاء العامّه فى كتاب «كنز العمال» (ج ١٦، ص ٢٠٠، ح ٤٤٢٢٤) وقال: روى الدينورى وابن عساكر عن عبدالله بن صالح العجلى عن أبيه أنّ على بن أبى طالب عليه السلام خطبنا يوماً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ثم قال: «عباد الله لا- تَعَزَّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ...» ورواها بإضافات سبط ابن الجوزى فى «تذكرة الخواص» وقال: تعرف هذه الخطبه (لفصاحتها وبلاغتها) ب «الخطبه البالغه». ثم قال: إنّ أبانعيم نقل بعضها فى كتاب الحليه. وأضاف عليها الخطيب الخوارزمى فى كتاب «المناقب». قال صاحب «مصادر نهج البلاغه» بعد الإشاره إلى هذه المطالب: ولا نرى حاجه لذكر رواه الخطبه من علماء الإماميه بعد هذه الروايه الواسعه من كتب العامّه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٦٧).

وقال فى القسم الثالث: إنكم سائرون على طريقهم وملاقون مصيرهم. وسيحل اليوم الذى تنتهى فيه حياتكم وتضم القبور أجسادكم وستبعثون من تلك القبور وتظهر لكم أعمالكم التى أسلفتم وعليكم تبعثها.

ص: ٣٢٠

دَارُ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزَالُهَا.

أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَزْمِيهِمْ بِسَيِّئَاتِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا

تناول الإمام عليه السلام كما قيل في هذا الجانب من الخطبه تقلب الدنيا وغدرها فقال:

«دَارُ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزَالُهَا(٢)».

والبلاء الذى يصيب الحياه فى هذه الدنيا كثير ومتنوع من قبيل الأمراض البدنيّه والنفسية والأحداث الاجتماعيه الأليمه والعواصف والزلازل والسيول والغارات والحروب وما يؤدى إلى جرح الإنسان أو موته وفقدان الأعزّه وأمثال ذلك.

والعبارة: «دَارُ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ» إشاره بليغه لكل ما ذكر، غدر الدنيا وربّما يشير إلى أهلها الغدره غالباً فإن أقبلت الدنيا على أحد أحيوه وإن ولّت ولّوا كأنّهم لم يعرفوه. أو إشاره إلى غدر النعم الدنيويه بينما ترى الإنسان سالمًا معافى ويظن أن وضعه سيستمر كذلك وإذا بحادث بسيط يقضى على سلامته، أو تراه جمع أموالاً وثره طائله فتفاجأ بحدث أفلسه. وتقلّب الدنيا المبين فى العبارة «لَا تَدُومُ

ص: ٣٢١

١- (١). «غدر» له عدّه معانٍ متقاربه المكر والخداع وعدم الوفاء.

٢- (٢) «نزال» جمع «نازل» الضيف أو من يدخل مكاناً.

أَحْوَالُهَا» نتيجة لتلك الحوادث المتنوعه والبلايا التي تصيب الإنسان من كل جانب، وعدم أمن سكنتها في العبارة «وَلَا يَسِيلَمُ نَزَّالَهَا» بسبب تلك الحوادث المريره وتقلبات الدنيا.

ثم أكد عليه السلام ذلك بعبارة موقظه فقال: «أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ (١) مُتَّصِرَةٌ (٢)، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، الْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ».

وتاريخ البشريه برمته شاهد حتى على هذا الكلام العميق المعنى وأبعد من ذلك آيات القرآن التي تكشف الستار عن قصص الماضين، والصورة ذات العبره التي رسمها القران أواخر سوره القصص عن حياه الثرى المعروف من بنى إسرائيل قارون الذى ظهر يوماً بين بنى إسرائيل بزينته وخدمه وحشمه ويستعرض قوّته وثراءه أمام الجميع حتى انبرى البعض منهم ممن غرّته زخارف الدنيا ليقولوا: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ» ولم يطلع الغد حتى ابتلعتة الأرض بالزلزله والخسف بكل ما يملك فأخذت أصحاب الدنيا الرهبه ليقولوا «لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا».

ولا تبدو هذه الحوادث قليله في عصرنا، بل اتسعت للغايه وانتشرت لنرى كل يوم تلك المشاهد باعيننا.

ثم شبّه الإمام عليه السلام فى ختام هذا المقطع حوادث الدنيا وسكنتها تشبيهاً رائعاً فقال: «وَأَيْنَمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَعْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ (٣)، تَزْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا (٤)».

نعم فالناس فى هذا العالم أهداف فاقده للدفاع أمام سهام البلاء المصوبه نحوها من اليمين والشمال والأعلى والأسفل؛ السهام التي قلّما تخطئ وتصيب كبد الهدف فتقضى عليه، وهل من أمن فى الميدان الذى أحاط به الرماه ويستهدفون الإنسان

ص: ٣٢٢

١- (١). «تارات» جمع «تاره» على وزن «غاره» بمعنى الزمان وتأتى عادة بمعنى مرّه.

٢- (٢) «متصرّفه» من «التصرف» التغير.

٣- (٣) «مستهدفه» من ماده «هدف» التي يصبوب نحوها السهم.

٤- (٤) «حمام» من ماده «حم» على وزن «غم» التقدير ومن هنا يراد به الموت الذى قدره الله ويعنى الطير بالكسر.

كلّ حين؟! أليست الحياه مدمومه قبيحه في هذا الوسط؟ لعل ذلك الميدان مليئاً بالجواهر والألبسه الفاخره والأطعمه المتنوعه، لكن هل يسع هذه الأمور إسعاد الإنسان في ذلك الوسط؟! كلا. هنالك قصه معروفه من شأنها تجسيد غدر الدنيا.

تأمل: دار محفوفه بالبلاء

هذا العالم موضع المشاكل والمصائب والآلام والمحن. وإنما نعلم إجمالاً بهذا الموضوع، لكننا غالباً نتأمل في شرحه وتفصيله. والآفات التي تهدد سلامه الإنسان أكثر من أن تحصى. تتألف بنيه الإنسان من أعضاء مختلفه لكل منها عدّه شرائط للقيام بوظيفته، وأدنى تغير في تلك الشرائط بالنسبه للقلب والكليتين والعروق والأعصاب والعضلات والعظام يخلق أزمه. يعتقد بعض الأطباء بأنّ كبد الإنسان يدفع ثلاثمائه نوع من السموم ولو اختل قليلاً لما وسعه دفع بعضها وهذه أولى الأزمات، وهكذا العين والأذن والأنف واللسان وأمثالها ولو تجاوزنا الآفات الباطنيه فإنّ الآفات الظاهريه كثيره للغاية ومتنوعه بحيث إنّ موت الإنسان كامن في عوامل حياته؛ فالمطر مصدر الحياه لو زاد عن حدّه لكون سيولاً عظيماً تأتي على كل شيء، والرياح المهمه للحياه لو ازدادت سرعتها لأصبحت عاصفه تجتث الأشجار وتقذف بسقوف المنازل بعيداً، والشمس الذي تفيض بأشعتها الحياه لو تركزت هذه الأشعه لأصيب الإنسان بضربه الشمس وهدده خطر الموت، والأرض التي يسكنها الإنسان ومنها جميع البركات لو طغت وحدثت الزلازل لأحالت مدناً عمرت بالبناء لسنوات إلى ركام من التراب خلال لحظه. وآفات النباتات وطغيان البحار وهجوم الأمراض المعديه من الأرض والهواء والماء والطعام كلّ منها من شأنه تهديد حياه الإنسان، وإذا صدرت الأوامر لأسراب

الجراد بالهجوم وتقدمت بجيشها الجرار من كل مكان لأبادت أوراق الأشجار والسيقان والمحاصيل دون أن يسع أحد مواجهتها ولو بأقوى الوسائل المتطورة.

هذا ما يتعلق بالحوادث الطبيعيه أما الآفات الاجتماعيه فليست بأقل منها خطراً، فهناك الحروب الدمويه كالبراكين التي تحدث كل يوم فى منطقته من العالم والتي تهدد على الدوام حياه الإنسان، التنافس المحموم للاستيلاء على المناصب السياسيه والقضايا الاقتصاديه تمرغ كل يوم أنف جماعه فى التراب أو تقضى على حياتها الاختلافات الأسريه التي تؤدى إلى الطلاق وتصدع كيان الأسره وعقوق الأبناء وخيانه الشركاء وأصحاب السوء وضربات المنافقين كل منها عامل يهدد حياه الإنسان واستقراره.

وعليه فلا بد أن نقبل بكل كياننا على كلام «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ».

ص: ٣٢٤

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعْمَرَ دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَضَى بَحْتِ أَضِيَّوَاتِهِمْ هَامِدَةً، وَرِيَا حُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ يَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَأَثَارُهُمْ عَائِيَةً. فَاسْتَبَدَّلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالنِّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورِ وَالْإِحْيَارِ الْمُسَيَّنَّةِ، وَالْقُبُورِ اللَّاطِئَةِ الْمُلْحِدَةِ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فَنَاوَهَا، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاوَهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلِّهِ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُشَاغِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ.

وَكَيفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبَلَى، وَأَكَلَتْهُمْ الْجِنَادِلُ وَالثَّرَى.

الشرح والتفسير: جيران متباعدون

أخذ الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة يد مخاطبيه ليحملهم إلى أعماق تاريخ الماضين ليريههم مصيرهم بعد ذلك العمر الطويل وتلك القوّة والاعتدار ويضع أمسهم مع يومهم فيلهم مخاطبيه وجميع عباد الله من كلّ ملّة ونحله أعظم وأعمق درس وعبره فقال: «وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ».

ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المعنى فقال: «مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعْمَرَ دِيَارًا».

دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً (١)، وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً (٢).

وقد قدّم القرآن في مختلف السور نماذج واضحة لهؤلاء الأقسام، ومن ذلك قوم عاد وثمود كنموذج واضح فقال في سوره والفجر «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ» (٣).

فقد ذكر عليه السلام ثلاث خصائص تفيد رجحان الأقسام السابقة عليهم؛ الأولى طول العمر (بحيث قيل إن بعضهم كان يعمر أربعمائيه سنه) (٤) وعمارته المدن حتى قال فيهم القرآن: «وَكَأَنَّهُمْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» (٥). وكانت لهم أراضٍ عامره وبساتين نصره ونعمه وافره وكانوا بارعين في الزراعة.

وأخرى كانت آثارهم أبقى، إشاره إلى أن مساكنهم وقصورهم وسائر أعمالهم العمرانيه كانت على درجه من الإحكام بحيث بقيت لسنين عديده، لكن كيف كانت عاقبتهم، سكنت الأصوات والضجيج وسيطر عليها الصمت وتعفنت أجسادهم تحت التراب وبليت عظامهم وطويت آثارهم.

والعبارة «وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً» بالنظر إلى أن رياح جمع ريح والريح هنا بمعنى الروح والقوه فمفهوم ركودها أنهم قعدوا تماماً عن العمل، وفسره البعض بمعنى سكون ريح الغرور. كما يحتمل أن يكون المراد بها الريح التي تطال رايات الملوك والمقتدرين.

ص: ٣٢٤

١- (١). «هامده» من «الهمود» تعنى فى الأصل انطفاء النار وانخفاض الحرارة ثم اطلقت على انطفاء الصوت وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

٢- (٢) «عافيه» من ماده «عفو» زوال آثار الشئ كأن تهب الريح وتزيل ذرات الرمل وتمحوها عن النظر ومنه العفو الذى يعنى إزالة آثار الذنب.

٣- (٣) سوره الفجر، الآيات ٦-١٣.

٤- (٤). شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئى، ج ١٤، ص ٢٣٠.

٥- (٥). سوره الحجر، الآيه ٨٢.

ثم أشار عليه السلام إلى قضيه مهمه بعد مغادرتهم لتلك القصور الفارحه والحياه المترفه وأين حلوا فقال: «فَأَسْتَبَدَّلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ (١)، وَالنَّمَارِقِ (٢) الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ (٣)، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ (٤) الْمَلْحَدَةَ (٥)».

حقاً يا له من أمر عظيم أن ينتقل الإنسان من ذروه القدره وهو يعيش النعمه واللذّه إلى النقطه المقابله تماماً، فلا بيت ولا شمعه ولا- سراج ولا- فراش ولا- نعمه وبطر. طبعاً هذا الأمر المؤلم بالنسبه لأولئك الذين اعتادوا الحياه المرفهه والمريحه، أما أولئك الذين عاشوا حياه الزهد والبساطه فلا يعانون من هذا الانتقال، لاسيما أنّ القبر بالنسبه لهم روضه من رياض الجنّه.

ثم خاض في بيان وضع قبورهم وسكنتها فقال: «الَّتِي قَدَّ بِنِي عَلَى الْحَرَابِ فَنَاوَهَا (٦)، وَشَيْدَ بِالتُّرَابِ بِنَاوَهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرَبٌ، وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلِّهِ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ».

نعم، إن كانت قصورهم بنيت بمواد قيمه باهضه جمعت بجهد جهيد من مختلف المناطق فإنّ قبورهم بنيت بمواد لا قيمه لها فهى حفنه تراب، وسكنه هذه القبور فى حالتين متناقضتين، القرب والبعد، قريبون من حيث المكان وبعيدون من حيث الإرتباط، أو أنّهم منهمكون بأنفسهم إلى درجه عدم الإرتباط بالآخرين، أو لا يؤذنون لهم بالإرتباط، ويبدو أنّ ذلك ليس مهماً لهم، لكنهم فى الواقع متضجرون

ص: ٣٢٧

١- (١). «مشيده» من ماده «شيد» على وزن «صيد» جعل الشىء مرتفعاً و «شيد» على وزن «بيد» الجص وماشابه ذلك الذى يطلى به البناء للزينه وعليه «اصول مشيده» (بتشديد الياء) البناء المرتفع والمحكم و «مشيد» (على وزن شديد) أيضاً البناء المحكم وورد فى القرآن المجيد، فى سوره الحج، الآيه ٤٥: «وَبِنْرِ مُعَظَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ».

٢- (٢) «نمارق» جمع «نمرقه» على وزن «سنبله» الوساده الصغيره التى يستند عليها.

٣- (٣) «مسند» من «السند» على وزن «قعود» الاستناد و «مسند» فى العبارة الشىء الذى يتكى عليه.

٤- (٤) «لاطئه» ملتصقه بالأرض من «اللطوء» على وزن «فروع» لصيقه بالأرض.

٥- (٥) «ملحده» من ماده «لحد» على وزن «مهد» دفن الميت وهو جعل الشق وسط القبر أو جانبه.

٦- (٦). «فناء» الفضاء المفتوح امام البيت وهكذا كانت بيوت الكبار.

لأنه وإن لم يكن هناك شيء من الأمور الدنيوية، لكنهم وجلون من أعمالهم بحيث لا يكثرثون لغيرهم (طبعاً يحدث كل هذا في الحياة البرزخية).

ثم قال عليه السلام في مواصلة ذلك: «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُو الدَّارِ».

العباره «لَا- يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ» لعل العباره لا يستأنسون بالأوطان إشاره إلى أنهم وإن ناموا سنين متماديه في قبورهم؛ لكن لا رغبه لهم بها ولا- يأنسون بها، كما احتمال أن يكون المراد ترك إرتباطهم بأوطانهم في عالم الدنيا فهم لا يفكرون في الرجوع إليه، إلّا أنّ المعنى الأوّل بقريته العباره (ولا يتواصلون...) أصوب.

وأشار عليه السلام في الختام إلى هذه النقطه، لم لا- يسعهم الإرتباط مع بعضهم: «وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَرَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ (١) أَلْبَى، وَأَكَلْتَهُمُ الْجَنَادِلُ (٢) وَالثَّرَى (٣)!»..

إشاره إلى أنهم كانوا متلاصقين في قبورهم، لكنهم فقدوا كل قدرتهم وتحولوا إلى قبضه تراب، وهل من تراور ولقاء من العظام الباليه والأجساد الخاويه؟

غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ الْبُيُوتِ تَحُوطُهَا لَا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبٌ (٤)

تأمل: عاقبه الإنسان بعد الموت

ما ورد في الجمل المذكوره قرينه من الجمل التي جاءت بعدها والتي ترتبط بجسم الإنسان بعد الموت، لأنّ الأجساد تتحول إلى التراب وليس في مقدورها الترابط والتواصل بل تعيش الغربه تماماً.

ص: ٣٢٨

١- (١) «كلكل» بمعنى الصدر.

٢- (٢) «جنادل» جمع «جندله» على وزن «مزرعه» الصخور.

٣- (٣) «ثرى» التراب.

٤- (٤) البيت للإمام الحسين عليه السلام، لما وضع أخاه الحسن عليه السلام في لحدّه، انظر: مناقب آل أبي طالب عليه السلام، ج ٣، ص ٢٠٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٦٠، ح ٢٩.

ولا شك أنّ الأرواح لها شأن آخر، فإنّ أرواح المسيئين فى عذاب شديد كما أشار القرآن الكريم إلى نماذج منها مثل عاقبه آل فرعون حيث قال:

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (١).

وأما أرواح الأخيار فى الجنّة البرزخية وكما قال القرآن الكريم بشأن الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (٢).

بل هذا ما يستفاد من بعض الروايات أنّ أرواح الأخيار فى تلاقى وتزاور، بل هم فى حلقات الأُنس والمؤانسه.

فقد روى المرحوم الكلينى فى الجزء الثالث من كتاب «الكافى» فى باب أرواح المؤمنين عن حبيّه العرنى قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر، فوقف بوادى السلام كأنه مخاطب لأقوام، فقامت بقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت، حتى نالنى مثل ما نالنى أولاً، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائى فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام، فراحه ساعه! ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال لى: «يا حبيّه، إن هو إلّا مُحادثُهُ مؤمن أو مؤانسته». قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وإنهم كذلك؟ قال: «نعم، ولو كُشِفَ لَكَ لَرَأَيْتَهُمْ حَلَقًا حَلَقًا مُحَبِّتِينَ يَتَحَادَّثُونَ». فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: «أرواح، وما من مؤمن يموتُ فى بُقْعِهِ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، إِلَّا قِيلَ لِرُوحِهِ: الْإِحْقَى بِوَادِي السَّلَامِ، وَإِنَّهَا لَتُبْقِعُهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ» (٣).

وعلى هذا الأساس فإنّ الإمام على عليه السلام صرّح فى هذه العبارات إلى عدم انحصار الموت بالحياه الجسمانيّه للإنسان ولا بعالم الأرواح فقط، وذلك أنّ أغلب الناس

ص: ٣٢٩

١- (١) سورة غافر، الآية ٤٦.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

٣- (٣) الكافى، ج ٣، ص ٢٤٣، باب فى أرواح المؤمنين، ح ١.

فى هذه الحياه يقتصرون على الجانب المادى والملذات الجسمانيه فقط، بل يحذرهم بأن هذه الأجساد إلى أين يكون مصيرها؟
فعلیکم أن تستيقظوا من سباتکم ولا تنغمسوا فى الملذات الجسمانيه والمعاصى والذنوب فقط.

ص: ٣٣٠

وَكَاَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنْكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجِعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدِعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعِثْتِ الْقُبُورُ: «هَذَا لِكَيْ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الشرح والتفسير: المصير المحتوم

طبق الإمام عليه السلام على مخاطبيه هنا ما أورده بشأن مصير الأسلاف كى لا يظنوا أن الوفاة ومغادره القصور والشروات وإمكانات الحياه واللحاق بالموسدين تحت التراب الذين لم يحملوا معهم شيئاً ولا يتصلوا ببعضهم مقتصر على أولئك الأسلاف فقال: «وَكَاَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنْكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجِعُ (١)، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدِعُ».

نعم فهذا قانون لا استثناء فيه مع أن لكل عام ما يخصه، إلا أن هذه الأمور لا تخصص (أى أن تلك القاعدة لها استثناء أنها لا تعرف الاستثناء فى بعض الموارد).

ثم أشار عليه السلام إلى قضيه مهمه وهى أن مشكله الإنسان لا تنتهى بالموت، والمشكله حضوره محكمه القيامه ومسؤوليته عن صغار أعماله وكبارها فقال:

«فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ (٢) بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعِثْتِ (٣) الْقُبُورُ: «هَذَا لِكَيْ تَبْلُو (٤) كُلُّ نَفْسٍ مَا

ص: ٣٣١

١- (١) «مضجع» الفراش والنام وتعى هنا القبر ومن ماده «ضجع» على وزن «ضرب» النوم على الجانب.

٢- (٢). «تناهت» من «التناهى» الوصول إلى الغايه.

٣- (٣) «بعثت» من «البعثه» على وزن «مرتبه» تعنى فى الأصل القلب رأساً على عقب والاستخراج ولما كانت القبور تقلب يوم القيامه عند إحياء الأموات ويظهر ما بداخلها فقد استعمل فى القيامه.

٤- (٤) «تبلو» من ماده «بلاء» الامتحان وكون الامتحان سبب العلم فاستعملت بهذا المعنى.

أَسْلَفْتُ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

نعم هنالك بعض الأمور المهمّة في ذلك اليوم؛ فالجميع حاضرون بين يدي العدل الإلهي ويرون أعمالهم أمام أعينهم ولا تنفع جميع الأعذار الواهية والكذب لتبرير أسباب المعصية والانحراف وليس لأحد من سبيل للهروب من نتيجة أعماله.

حقاً لو تأمل الإنسان هاتين القضيتين سيرى أنّ الحياة آيلة للزوال وسيترك كل شيء ويلتحق بالنائمين تحت التراب ثم يعقب ذلك الحساب وجزاء الأعمال، الحساب الذي لا مفرّ منه؛ لو فكر في هذين الأمرين لراقب أعماله قطعاً في هذه الدنيا ولما بدر منه كلّ هذا الفساد والعصيان.

ص: ٣٣٢

يَلْجَأُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ لِيَهْدِيَهُ إِلَى الرَّشَادِ (١)

نظرة إلى الخطبه (الدعاء)

يتألف هذا الدعاء العميق المعنى ذو المضامين الرفيعة من قسمين:

القسم الأول في حبّ الله لعباده والمتوكلين عليه والعلم ببواطنهم.

ويستعيد عليه السلام في القسم الثاني بالله ليرشده في الحوادث المضلّة ويهديه لما فيه الخير ويعامله برحمته لا بعدله.

ص: ٣٣٣

١- (١) سند الخطبه (الدعاء): الكتاب الوحيد الذي ورد فيه هذا الدعاء ويشير إلى اقتباسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه» باضافات يتضح منها أنه استقاها من مصدر آخر جمعها في (الصحيحه العلويه الأولى) للعالم الفاضل السماهجي، كما وردت في مصباح الشيخ الطوسي أنّ الإمام السجاد عليه السلام كان يدعو به بعد الركعه الثالثه عشره والرابعه عشره يوم الجمعة (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٠) السماهجي هو الشيخ عبدالله بن صالح بن علي أحمد البحراني من سماهج قريه في إحدى جزائر نواحي البحرين من علماء القرن الثاني عشر الهجري، كان أمراً بالمعروف ونهاياً عن المنكر وله مؤلفات منها الصحيحه العلويه الأولى، توفي سنه ١١٣٥ (مصادر نهج البلاغه، ج ١، ص ٨١).

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْإِنْسَانِ لِأَوْلِيائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسِرَّارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنَّ أَوْحَشَتَهُمُ الْعُزْبَةُ أَنْسِيَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صُيِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

الشرح والتفسير: انس العباد

تضرع الإمام عليه السلام إلى الله في مستهل هذا الدعاء المهذب للروح والمربى للإنسان قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ (١) الْإِنْسَانَ لِأَوْلِيائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ».

إشاره إلى أن من تحلى بهاتين الصفتين سيشمل بهذه النعمة العظيمة بالأنس بالله وقضائه لمشاكله بأن يكون في عداد أولياء الله أو المتوكلين عليه، وهكذا يعطى الإمام عليه السلام درساً في تهذيب الإنسان ضمن مناجاته لربه. ولما كان حل المشاكل منوط بالعلم بهم قال مواصلاً دعاءه: «تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسِرَّارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ (٢)».

نعم، الله عالم بأسرارهم وبواطنهم، فهو أقرب إلينا من جبل الوريد: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا

ص: ٣٣٥

١- (١) «أنس» صيغه افعل التفضيل من مادة «أنس» تعنى هنا أشد الأنس وحقيقه الأنس، الهدوء عند الشىء وقال البعض يقال الإنسان: لأنسه بالروح الاجتماعيه.

٢- (٢) «ملهُوفه» المشتاق أو المضطر ومن مادة «لهف» على وزن «كهف» والمعنى الأول أنسب.

الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١).

ولعل الفارق بين السرائر والضمائر أنّ السرائر تقال للحالات الخلقية والضمائر للنيات التي تساور قلب الإنسان ويتحرك إثرها. كما تستعمل هاتان المفردتان بنفس المعنى. وبصائر البشريّة بالإضافة لإكمالها مفهوم هذا الدعاء تكمن في المراقبه التامه للظاهر والباطن والتيه والعمل، فالله عالم بكلّ هذه الأمور، أسرارهم الخفيه مكشوفه لله ونياتهم ظاهره له.

والعبارة: «قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ» نتيجة لإيمانهم بالله ومعرفتهم به وتوكلهم عليه.

فكلما ازداد الإيمان والعلم به ازداد شوقه لمبدأ الرحمة والحبّ والكرم.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه هي أنّ أولياء الله والمتوكلين عليه لا- يركعون قط للمصائب ولا يفقدون ثقتهم بالله فقال: «إِنْ أَوْحَشَتْهُمْ الْعُرْبُ أَنْسِيَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْزَمَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ».

وفى الواقع أنّ كلّ هذه الصفات والحالات ناشئه من الإيمان بالتوحيد الأفعالى ويشير إلى أنّ هذا الغصن من التوحيد إن نما فى روح الإنسان أفضى إلى ثمار جمّه، فلا يشعر بالوحده إزاء المشاكل ولا يشعر بالغربه فى وحدته.

ص: ٣٣٦

١- (١) سورة ق، الآية ١٦.

اللَّهُمَّ إِنَّ فَهَيْتُ عَيْنِ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصِيحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

الشرح والتفسير: الله كهف الوري

عقب بيان مقدمات الدعاء وإعداد القلب والروح للتضرع إلى الله الذي ورد سابقاً، خاض الإمام عليه السلام هنا في أصل الدعاء فذكر أصلاً كلياً أوجز فيه طلباته دون التركيز على كل واحده فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّ فَهَيْتُ (١) عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، خُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ».

فهذا الدعاء ينطوي على منتهى الأدب أمام الله وتلاخط فيه ضمناً شموليته لجميع الطلبات ويشير إلى هذه الحقيقه وهي أننا مهما علمنا بمصالحنا ومطالبنا مع ذلك تغيب عنا كثيراً من الأمور أو نخطئ في تشخيصها؛ إلا أن الله أعلم بمفاسدنا ومصالحنا، فنسأله إرشادنا لمصالحنا وما نسأله الله ما فيه خيرنا ومصالحنا ولا يستبعد ذلك قط من لطف الله.

وأود أن أذكر هنا حديثاً رائعاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام أن الحسن البصري

ص: ٣٣٧

١- (١). «فهَيْتُ» من «الفهاهه» على وزن «كرامه» العجز والنسيان.

قال: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ وَ إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ مَعَ سِتْرِهِ رَحْمَةِ اللَّهِ» (١).

ثم ابتهل عليه السلام فى الختام: «اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذَابِكَ».

وكأنه عليه السلام عدّ العدل والعفو فى هذه العبارة مطيه، والعدل مطيه مقلقه بينما العفو مطيه سمحه فسأل الله أن يحمله على تلك المطيه السهله لنفوز بالقرب هائنين ومرتاحين من العقاب الأليم فى ظل لطفك، وهذا مضمون العبارة التى تورد كدعاء فى الصلاه وغيرها: «إِلَهْنَا عَامِلْنَا بِفَضْلِكَ وَلَا تُعَامِلْنَا بِعَذَابِكَ يَا كَرِيمٌ».

قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ نَاسٍ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

فقال الأصحاب: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟».

فقال صلى الله عليه وآله: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ» (٢).

تأمل: أدعية المعصومين عليهم السلام المهدبه

تختزن أدعية النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه العصمه عليهم السلام جانباً مهماً من التعاليم الدينيه، ولقراءه هذه الأدعية أثر عظيم فى ترسيخ عرى الإيمان وتهذيب النفوس وتربيته الفضائل بالاضافه إلى سوق الإنسان إلى القرب من الله وإبعاده عن الشيطان ووساوسه وتلطيف الروح. ولما كانت تلك الأدعية نابعه من الروح الساميه للمعصوم فهى جميعاً فى مستوى رفيع واحد وإذا تلاها الإنسان عالماً بمضامينها ساقته لذروه المعرفه والكرامه فإذا جمعت هذه الأدعية - وقد تصدى لذلك أخيراً بعض

ص: ٣٣٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٣، ح ١٧.

٢- (٢) المصدر السابق، ج ٧، ص ١١.

المحققين (١)- كانت خزانه نفيسه من المعارف الدينيه والدروس الخلقية ومرآه السير والسلوك إلى الله. وقد وردت على هامش خطب نهج البلاغه والرسائل.

وقصار الكلمات ما يقارب ثلاثين دعاءً تؤيد بأجمعها ما ذهبنا إليه. فبعض الأدعيه كدعاء الصباح وكميل وعرفه للإمام الحسين عليه السلام وأدعيه الصحيفه السجاديّه وسائر الأدعيه كالندبه وغيره التي وصلت عن المعصوم عليه السلام كلّ واحد منها شاهد آخر على هذه الدعوى، وليت اتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام سبقوا سائر المذاهب الإسلاميه بهذا الخصوص وألزموا الشبان بحفظ مقاطع من هذه الأدعيه (مع فهم معانيها) ليُصانوا من هجوم أمواج المعصيه التي تنامت في عصرنا.

ص: ٣٣٩

١- (١). جمعت وطبعت هذه المجموعه من قبل بعض المحققين في مؤسسه أبحاث الروضه الرضويه في خمسه أجزاء.

يُرِيدُ بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ (١)

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام الموجز تعريف بشخصيه أدت وظائفها في عصرها ورحلت طاهره وجهدت في حفظ سنّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وطاعه الله. هنالك خلاف بين الشراح في هذه الشخصيه. فالشراح من أبناء العاقه كابن أبي الحديد ومحمد عبده زعموا أنّها إشاره إلى الخليفه الثاني وزعموا أنّ علياً عليه السلام قال هذا الكلام بعد وفاه عمر، في حين لا ينسجم هذا الكلام مع سائر خطب «نهج البلاغه». فقد شكّا عليه السلام كثيراً في الخطبه الشقشقيه من خلفه الثاني وبث شدّه شكواه من غضب الخلافه في الخطب وبعض الرسائل، فكيف يمكن تجاهل كلّ ذلك واعتبار هذا الكلام المبهم والمجمل في الخليفه الثاني؟

والطريف أنّ الطبري (٢) الذي يراه في عمر إنّما رواه عن المغيره بن شعبه وهو من

ص: ٣٤١

١- (١) سند الخطبه: لم ينقل جانب من هذه الخطبه قبل السيد الرضى عن على عليه السلام سوى الطبري ضمن قصه عن المغيره بن شعبه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧١).

٢- (٢). تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٨٥، حوادث السنّه ٣٣ من الهجره.

خصوم على عليه السلام.

العجيب ما قاله ابن أبي الحديد أنّه رأى فى نسخه من «نهج البلاغه» بخط الرضى أنّه كتب «عمر» تحت كلمه فلان ويدل هذا على أنّ الرضى له مثل هذا الاعتقاد(١)، والحال لا يستبعد أبداً أنّ تلك النسخه إن كانت أصلية تقلبت لسنوات بيد هذا وذاك فكتب بعضهم تلك الكلمه.

والأعجب من ذلك أنّ ابن أبي الحديد روى حديثاً عن ابن عباس (ج ١٢، ص ٢٠) ذكرناه سابقاً أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أراد أن يكتب بصراحه اسم على وصيه فى مرضه الذى توفى فيه فمنعته.

فهل ينسجم هذا الكلام مع تفسير ابن أبي الحديد للخطبه التى تبحث؟

ولنفرض أنّ كلام على عليه السلام كان فى عمر، فلا- يبعد هذا الاحتمال أنّه لم يكن جدياً وكان تقيه، سيما طبق الروايه المذكوره أنّ المغيره طرح هذا السؤال بعد وفاه عمر، بالنظر إلى أنّ المغيره كان طالحاً ولعله أراد بتّ الشر فى صفوف المسلمين.

فأورد الإمام عليه السلام هذا الكلام على أساس المصلحه الإسلاميه، وإلّا فرأيه الصريح ما ورد فى الشقشقيه وسائر خطب «نهج البلاغه».

وقوله: فلان، بدل عمر من شأنه تأييد هذا المعنى، فهذا الإبهام علامه على التقيه، يوقن للشراح الإماميه أنّ هذا الكلام ليس فى الخليفه الثانى ويعتقدون بأنه إشاره إلى مالك الأشتر والبعض الآخر يرى أنّه فى سلمان الفارسى يبدو أنّ الاحتمال الأول أنسب وينسجم مع موقع مالك ودوره من بين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وإمرته للجيش وفكره الرفيع وعزمه الراسخ.

ص: ٣٤٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٢، ص ٣.

لِلَّهِ بِلَاءٌ فَلَانٍ فَلَقَدْ قَوْمَ الْأَوْدِ، وَدَاوَى الْعَمَدِ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَفَ الْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِي الثُّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَقِينُ الْمُهْتَدِي.

الشرح والتفسير: مالك الأشر

لقد اختلف شراح الفريقين كما قيل في تفسير هذه الخطبة والشخص المعنى بهذا الكلام. فقد ذهب أغلب الشراح من أبناء العامة (سوى صبحي الصالح) إلى أنّ المراد به الخليفة الأول أو الثاني في حين لا ينسجم هذا المدح البليغ مع ذلك الدم الشديد الذي أورده الإمام عليه السلام في مختلف خطب «نهج البلاغه» ولا سيما الخطبة الشقشقيه، ولكلماته حين دفن الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام (الخطبه ٢٠٢) في ذمهما واستهجان أعمالهما.

ومن هنا أجمع الشراح الشيعة على أنّ الخطبة إشاره إلى أحد خواص أصحابه ولا سيما مالك الأشر، خاصه وردت في بعض العبارات المرويه عنه عليه السلام مثل ذلك المدح البليغ لمالك التي تشير إلى جدارته بهذا الكلام، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد في شرحه أنّه عليه السلام قال:

«رَجِمَ اللَّهُ مَالِكًا فَلَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كُنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١).

ص: ٣٤٣

على كل حال، قال: «لله بلاءٌ فلانٍ فلقد قَوْمٌ (١) الأود (٢)، ودَاوَى العمد (٣)، وأقام السنّه، وخلف (٤) الفتنه!».

البلاء هنا الامتحان ويشير هنا إلى ثواب هذا الامتحان ويعنى أنّ الله امتحنه كثيراً وقد دعا الإمام عليه السلام ليوفيه أحسن الثواب على ذلك البلاء.

وردت في كثير من النسخ (بلاد) بدل (بلاء) جمع بلد، أى لله البلد التي ترعرع فيها حتى هذا الشخص وهو كلام شائع الاستعمال لدى العرب فيقال: «لله دُرُّ فلان» و «لله نادى فلان».

فقد بين عليه السلام في العبارة أربعاً من صفاته، الأولى أنّه قوم الأود ولهذه العبارة معنى واسع يشمل المسائل العقائديه والأخلاقية والاجتماعية، والكلام في العبارة الثانية عن معالجه المرضى يشير قطعاً إلى الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، وإقامه السنّه بمعنى العوده إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتولى عن البدع الكثيره التي ظهرت بعده صلى الله عليه وآله والعبارة «خلف الفتنه» إشاره إلى أنّه ظهرت بعده العديد من الفتن والاختلافات بين المسلمين ومن توفيقاته أنّه لم يتعرض لتلك الفتن.

ثم خاض في صفات مهمه أخرى فقال: «ذهب نقيّ التوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها».

هذه الصفات الأربع تأكيد لما ورد في الصفات الأربع السابقة. وبالطبع فإنّ من يقوم الأود ويداوى العمد وقيم السنّه سيكون: «نقيّ التوب، قليل العيب ويغادر الدنيا مليئاً بالخيرات».

ص: ٣٤٤

١- (١). «قَوْم» من «القيام» الصواب.

٢- (٢) «أود» العوج من «الأود» على وزن «قول» الإنحاء والإعوجاج.

٣- (٣) «عمد» المرض وفي الأصل من ماده الجرح الذي يحصل في ظهر الدابه من الركوب.

٤- (٤) «خلف» تقال هذه العبارة حين يموت الإنسان قبل الحادته من ماده «خلف».

ثم اختتم عليه السلام الكلام بثلاث صفات أخرى فقال: «أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَجِّبَةٍ (١)، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَتِقِنُ الْمُهْتَدِي».

هذا الكلام إشارة إلى الحوادث التي وقعت الواحد بعد الأخرى بعد مالِك الأَشْرَرِ رحمه الله والتي كانت من آثار موقعه صفيين والنهروان والتي يثيرها المنافقون وأعداء الإسلام، فلم يمر يوم دون ظهور فتنه ولا اسبوع وشهر دون قتال.

ص: ٣٤٥

١- (١). «متشعبة» مختلفه ولها شعب.

فى وَصَفِ يَبْعَتِهِ بِالْخِلَافِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

مضمون الخطبه واضح. أكد الإمام على عليه السلام: إني لم اطلبكم للبيعه وأنتم من انبريتم لها وتلهفتم عليها واندفتم حتى أسقطتم ردائي وقطعتم نعلي وعمّ الفرح والسرور المجتمع برمته بهذه البيعه.

ترى لِمَ أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه؟ الجواب يكمن فى سائر عبارات الخطبه كون هذه الخطبه جانب من رساله طويله رواها الكليني فى كتاب الرسائل حيث إنّ الإمام عليه السلام لما عاد من النهروان كتب كتاباً وأمر بأن يقرأ على الناس، حيث تحرك المنافقون وقصدت فئه، الإمام وقالت: ما تقول فى أبى بكر وعمر وعثمان؟

فأجاب الإمام عليه السلام: رغم هذه الظروف وقتالنا لأهل الشام فإنه سؤال حسن

ص: ٣٤٧

١- (١) سند الخطبه: قال المرحوم العلامة التستري فى شرحه لنهج البلاغه إنّ الأصل فى هذه الخطبه ما ذكره المرحوم الكليني فى رسائله ثم نقل هذه الخطبه مع إضافات وقال: ذكرها باختلاف طفيف ابن قتيبه فى «الإمامه والسياسه» وابراهيم الثقفى فى «الغارات» وابن رستم الطبرى فى كتابه «المسترشد» (شرح نهج البلاغه للتستري، ج ٩، ص ٥١٧).

وسأكتب جواباً شافياً وكافياً وليطلع عليه المسلمون.

ثم كتب ذلك الكتاب التاريخي في ما يقارب من عشرين صفحه وأمر بقراءته في صلاه الجمعة. فلما بلغ قضيه مقتل عثمان وبيعته التي تضمنت ذلك الهجوم الفريد شرح ذلك بعبارات موجزه عميقه المعنى في هذه الخطبه، كما شرح ما حدث من وقائع عقب ذلك حتى يسلب المتذرعين الحججه، وهنالك كلمات رائعه للإمام بشأن اندفاع الناس لبيعته ورد بعضه في الخطبه الشفشقيه (الخطبه ٣) والخطبه ١٣٧.

ص: ٣٤٨

وَبَسَّطْتُمْ يَدَي فَكَفَفْتُمَهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُمَهَا، ثُمَّ تَدَاكَّكُمْ عَلَي تَدَاكُّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَي حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّغْلُ، وَسَقَطَ الرَّذَاءُ، وَوُطِيءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِيَعْتِهِمْ إِتْيَا أَنِ ابْتِهَاجَ بِهَا الصَّغِيرِ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ.

الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعه الإمام عليه السلام

ركز الإمام عليه السلام في كل هذا الكلام على قضية مهمه هي أنني لست طالباً قط للحكومه وأنتم الذين أصررتم علي، فأشار هنا إلى موضوعين: الأول اندفاع الناس المتلهفه لبيعتي، والثاني سرورهم الفائق وفرحهم الكبير بذلك العمل.

فقال في القسم الأول: «وَبَسَّطْتُمْ يَدَي فَكَفَفْتُمَهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُمَهَا، ثُمَّ تَدَاكَّكُمْ (١) عَلَي تَدَاكُّ الْإِبِلِ الْهِيمِ (٢) عَلَي حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّغْلُ، وَسَقَطَ الرَّذَاءُ، وَوُطِيءَ الضَّعِيفُ».

حقاً ليس هناك من شبه بين بيعه الناس لعلي عليه السلام ومبايعه الخلفاء السابقين، فبيعتته تشبه بيعه المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في فتح مكة فقد سئمت الأمه حكومه

ص: ٣٤٩

١- (١). «تداككتم» من ماده «دك» تعنى فى الأصل الأرض المنبسطة وحيث لا بد أن تدق بإحكام فهى تعنى الدق وإذا وردت فى باب الأفعال عنت الإزدحام الشديد الذى يسبب التدافع.

٢- (٢) «هيم» جمع «هائم» الشخص أو الحيوان الشديد العطش وتطلق على العاشق الذى لا سبيل له للهروب.

عثمان وعانت الأمرين على عهده من غياب العدالة، ومن هنا كانت متعطشه للعدل وحيث رأتها في ينبوع على عليه السلام سارعت إليه بتلك اللهفه والشوق.

ذكر المرحوم مغنيه في شرحه «في ظلال نهج البلاغه» قضيه من شأنها ايضاح سبب هجوم الأُمَّه لمبايعه على عليه السلام فقال: قرأت اليوم وأنا أشرح هذه الخطبه نسخه من صحيفه أخبار اليوم المصريه في ١٩٧٢/١٠/٢١ مقاله بقلم الأستاذ سامى محمود عنوانها «شرح في خلافه المسلمين» يقول فيها: لما ولي عثمان الخلافه أسرف فيها وطغت بنى أميه لتفسد هنا وهناك: «الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ» (١).

فسلطهم على المسلمين حتى غرقت الأُمَّه في الفتنة وقامت على عثمان فقتلته.

أمّا على عليه السلام وولده سبطى رسول الله صلى الله عليه و آله كان لهم أسلوب واضح وصحيح فلم يفكروا لحظه في الدنيا وزخارفها، فهجرتهم كانت منذ البدايه لله ورسوله (٢).

وعليه فلا عجب أن تندفع الأُمَّه لبيعه الإمام على عليه السلام.

وقال في المرحله الثانيه: «وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِنَيْعَتِهِمْ إِيَّائِي أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ (٣) إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ (٤) نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ (٥) إِلَيْهَا الْكَعَابُ (٦)».

عاده ما يلتحق كبار السن للمشاركة في الأحداث العاديه أو غير العاديه، أمّا في الأحداث الفريده النادره التي تشهد حضوراً عظيماً فهناك حضور حتى للعجزه والمعدورين الذين لا يشتركون في أى تجمع. والإمام رسم بما عهد عنه من فصاحه فريده حضور الأُمَّه في ذلك المشهد العظيم وتلك البيعه التاريخيه بأسمى صورته

ص: ٣٥٠

١- (١) سورة الفجر، الآيتان ١١ و ١٢.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم مغنيه، ج ٣، ص ٣٣٢.

٣- (٣) «هدج» من ماده «هدج» على وزن «نهج» مشى الضعيف والمضطرب وتستعمل عاده في الكهول العجزه.

٤- (٤) «تحامل» من ماده «تحامل» (مصدر باب تفاعل) القيام بعمل بالمشقّه والتكلف.

٥- (٥) «حسرت» من ماده «حسر» على وزن «حصر» تعنى هنا كشف النقاب عن الوجه؛ إلّا أنّ المعنى الأصلي التحفّى وأحياناً التعب.

٦- (٦) «كعاب» و «كاعب» الناহده وتشير إلى الفتيات.

وأشار إلى موجه الفرح والسرور العارمه التي اجتاحت جميع أفراد الأئمة بحيث خرج لها حتى الضعفاء والعجزه وشهدوا ذلك الحدث العظيم.

تأمل: البيعه الفريده المطلقه

رغم أنّ نصب الأئمة المعصومين عليهم السلام زعماء الأئمة خاضع لانتخاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن جانب الله كما أنّ اصطفاء النبي لهذا المقام من جانب الله، لكن للبيعه: أى إعلان الوفاء والطاعة دور مهم فى مسيرتهم، ومن هنا أخذ النبي صلى الله عليه وآله البيعه من الأئمة كراراً (بيعه العقبة الأولى والثانية والحديبية وبيعه المهاجرات فى المدينة).

وعلى هذا الأساس سعى الخلفاء لأخذ البيعه من الناس؛ إلا أنّ البيعه لم تكن كبيعه الإمام عليه السلام. فبيعه الخليفة الأول فى الواقع حصلت فى السقيفه وشهدها عدد محدود جداً وأصبحت الأئمة أمام أمر واقع فبايعت.

والخليفة الثانى نصب من جانب الخليفة الأول فجعل الأئمة أمام فعل حاصل.

وحصلت بيعه الخليفة الثالث فى الشورى المؤلفه من ستة أفراد التى شكلها عمر ولبنتها الأصلية التى صوتت لعثمان ثلاثه أفراد (عبدالرحمن بن عوف، وطلحه، وسعد بن أبى وقاص) ورأت الأئمة أنّها أمام أمر واقع.

أمّا أميرالمؤمنين على عليه السلام - بغض النظر عن كونه منصب من جانب الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله - فقد انتخب من قبل الأكثرية الساحقه ودون مقدمات فبويع بيعه غايه فى النشاط ومفعمه بالفرح والسرور الذى يبينه عليه السلام بدقه فى هذه الخطبه، وعليه قد قلنا بضروره انتخاب الأئمة والتعويل على آرائها وأسمينا ذلك بالديمقراطيه الإسلاميه فالحاكم الوحيد الذى حصل على هذه الآراء هو أميرالمؤمنين على عليه السلام دون من سواه.

في مقاصد أُخرى (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه في الواقع من أربعة أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم الأوّل عن أهمّيه الورع والتقوى وآثارهما.

وتناول في القسم الثاني بعد الفراغ من الوصيه بإتيان العمل الصالح ضروره ذكر الموت ونهايه الحياه وفقدان الفرص.

وأكد ثانيه في القسم الثالث على بذل الجهد والسعي للتزود للدار الآخره فأشار إلى خداع الدنيا مخاطباً المسلمين: احذروا أن تفتنكم الدنيا واعتبروا بما آلت إليه حياه أسلافكم وقارنوا بمصيرهم مصيركم.

ص: ٣٥٣

١- (١) سند الخطبه: ذكر بعضها مع بعض التغييرات عدد من العلماء بعد السيد الرضّي بما يفيد أنّها أخذت من مصدر آخر غير «نهج البلاغه»: ١. ابن الأثير في عدّه موارد من كتاب «النهايه» ومنها في ماده «خلس» و «عبل» و «حدم» و «دجى». ٢. أورد الآمدى جوانب كثيره من هذه الخطبه في كتاب «غررالحكم» مع اختلافات. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦).

كما أورد في القسم الرابع والأخير الذي يبدو منفصلاً عن الخطبه حسب ظاهر كلام السيد الرضى، كلمات موجزه عميقه المعنى في صفات الزهاد وخصائص معيشتهم وشرح حقيقه الزهد.

ص: ٣٥٤

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سِدَادٍ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ، وَعِثْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجِحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

الشرح والتفسير: سر السعادة والفلاح

بيّن الإمام عليه السلام في هذه الخطبه كسائر أغلب الخطب، أهميه التقوى وآثارها ليوجزها في سبع عبارات قصيره عظيمه المعنى، فقال في الأولى: «فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سِدَادٍ(١)».

فبالنظر إلى أنّ التقوى هي خشية الله الباطنيه التي تصد الإنسان عن الفحشاء والمنكر وتسوقه للمعروف والإحسان فإنه يمكن القول: التقوى مفتاح أبواب السعادة؛ فكما توضع النفايس في الخزائن وتقفل أبوابها ولا يمكن فتحها سوى بمفاتيحها فإن مفتاح التقوى من شأنه فتح خزائن السعادة بوجه الإنسان واستئزال رحمه الله المطلقه.

وقال عليه السلام في العبارة الثانيه: «وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ». وهي إشاره في الواقع لذيل الآيه الشريفه: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»(٢). وقال في الثالثه: «وَعِثْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ(٣)».

وسعه مفهوم هذه العبارة يشمل التحرر من عبوديه الشيطان واهواء النفس

ص: ٣٥٥

١- (١) «سداد» من ماده «سد» على وزن «حد» العمل الصحيح والكلام الصائب.

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٩٧.

٣- (٣) «ملكه» تعنى هنا المعاصى التي تؤثر على الإنسان.

والظلمه. وقال عليه السلام فى العبارة الرابعه: «وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَاكَةٍ» فهلكه الإنسان فى اتباع هوى النفس، فإذا كبّح الإنسان هوى النفس بالتقوى نجا من الهلكه.

وقال عليه السلام فى الخامسه: «بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ» فالتقوى هى الصراط المستقيم البعيد عن كل إفراط وتفریط وتقصير وعدوان، ومن الطبيعى أن يختزل الصراط المستقيم ليوصل الإنسان بأقل مدّه إلى الهدف.

وقال عليه السلام فى السادسه: «وَيَنْجُو الْهَارِبُ» فالعذاب الإلهى يطال عبده الأهواء، والمتقون بعيدون عن الأهواء، وكما ورد فى الآيتين ٧١-٧٢ من سوره مريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» وقال عليه السلام فى العبارة السابعه والأخيره التى تعتبر عصاره العبارات السابقه «وَتَنَالُ الرِّغَائِبُ (١)»، لم عدّ الله الأتقى أكرم إنسان عنده. «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (٢) ولم كانت التقوى مفتاح الجنّه «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (٣)، ولم لا ينفك الأنبياء وأئمه أهل البيت عليهم السلام وأولياء الله عن التأكيد على أنّ أهم شىء هو التقوى ولم كانت ضروره فى الوصيه بالتقوى فى كلّ صلاه جمعه وفى كلا الخطبتين؟

ص: ٣٥٦

١- (١). «رغائب» جمع «رغيبه» الطلب المهم من ماده رغبه.

٢- (٢). سوره الحجرات، الآيه ١٣.

٣- (٣). سوره مريم، الآيه ٦٣.

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالِدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمَرًا نَاكِسًا، أَوْ مَرَضًا حَابِسًا، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا. فَإِنَّ الْمَوْتَ هِيَ إِدْمٌ لِمَذَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طَيِّبَاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرٌ مَحْبُوبٌ، وَقَرُونٌ غَيْرٌ مَغْلُوبٌ، وَوَاتِرٌ غَيْرٌ مَطْلُوبٌ. قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَبَائِلَهُ، وَتَكَنَّفْتُمْ غَوَائِلَهُ، وَأَقْصَيْدْتُمْ مَعَابِلَهُ. وَعَظَمْتُمْ فِيكُمْ سَيِّطَوْتَهُ وَتَتَابَعْتُمْ عَلَيْكُمْ عِدْوَتَهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ. فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلْمِهِ وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمْرَاتِهِ، وَعَوَاشِي سَيِّكَرَاتِهِ، وَأَلِيمٌ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُ أَطْبَاقِهِ، وَجُشُوبُهُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ، وَعَفَى آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَاثَكُمْ، يَفْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعِ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعِ.

الشرح والتفسير: المعبر الذي لا مفر منه

أوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بضرورة استغلال الفرص المتاحة قبل حلول الأجل وأكد ذلك فقال: «فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالِدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ (١)، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ» (٢).

ص: ٣٥٧

١- (١) «هادية» من مادة «هدوء» السكوت.

٢- (٢) من عجائب الدهر أنّ المحقق الفاضل صاحب «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغه» المعروف بشرح الخوئي، المرحوم الحاج الميرزا حبيب الله هاشمي الخوئي، مرض وتوفي لما بلغ هذه الخطبه، والعبارة «والعمل يرفع» ويدل هذا التزامن على قبول عمله عند الله ورفع له فواصل المحقق الجليل الشعراني الشرح من الجزء الرابع إلى الرابع عشر ثم واصل تلميذه حسن زاده الأملی شرح الجزء الخامس عشر حتى التاسع عشر وشرح الجزءين الآخرين العشرين والحادي والعشرين بقلم المرحوم الحاج محمد باقر الكمرئي حتى انتهى الشرح.

حيث أشار عليه السلام في هذه العبارات الموجزه إلى أمر مهم: لديكم خمس فرص ما دمتم في الدنيا: أعمالكم الصالحة ترفع إلى الله ويسعكم أن تغسلوا المعاصي بماء التوبه. ودعاؤكم يسمع عند الله وأنتم وادعون فيمكنكم الإتيان بما تشاؤون من العمل الصالح وأخيراً الملائكه مستنفرون ليكتبوا صالح أعمالكم في صحيفه أعمالكم، لكن إن مرت هذه الفرصه وكنتم على أعتاب الموت ستسلبون هذه الفرص وليس لكم من زاد سوى الحزن والحسره.

ثم قال عليه السلام موضعاً كلامه ومكمله: «وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْرًا نَاكِسًا (١) ، أَوْ مَرَضًا حَابِسًا، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا (٢)».

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام شجّع جميع مخاطبيه للسبق في هذه الأمور الثلاثه؛ مدّه الكهوله التي تفقد فيها جميع الأعضاء قوتها وقدرتها والتي أسماها القرآن الكريم «أرذل العمر» والأمراض التي تطول أحياناً وتسلب الإنسان نشاطه وحيويته فلا يقدر على الإتيان بالعبادات بصوره تامه ولا خدمه المؤمنين وقضاء حوائجهم، والموت الذي شبّهه عليه السلام بالسارق الذي يسرق كلّ شيء من الإنسان خلسه.

ثم وضع حقيقه الموت من خلال ذكره لستّ من خصائصه، الموت الذي لا- مهرب منه ولا- مفر لأحد من ملاقاته فقال: «فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لِدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طَيِّبَاتِكُمْ (٣). زَائِرٌ غَيْرٌ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ (٤) غَيْرٌ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ (٥) غَيْرٌ مَطْلُوبٍ».

ص: ٣٥٨

١- (١). «ناكس» من ماده «نكس» على وزن «حدس» قلب الشيء.

٢- (٢) «خالس» الخاطف من ماده «خلس» على وزن «فلس» خطف الشيء بالحيله والاختلاس بهذا المعنى.

٣- (٣) «طَيِّبَات» جمع «طيه» الجانِب والجهه والهدف. من ماده «طى» على وزن «حى» الجمع والترتيب وتستعمل أحياناً بمعنى العبور وطي الطريق.

٤- (٤) «قرن» الكفو في الشجاعه.

٥- (٥) «واتر» الجانى من ماده «وتر» على وزن «سفر» رامى السهم.

فقد حذّر عليه السلام من أنّ الزائر الذى يقدم على الجميع والرامى المصوب نحو الجميع والأشوس الذى يعجز عن مواجهته الجميع. فإن قدم حطم كلّ شىء فطوى بساط العيش وصادر اللذات والمتع وحمل معه الإنسان، والأهم من كلّ ذلك أنّه لا يعرف من معنى للزمان والمكان. حقّاً أنّ هذه العبارات البليغه العميقه المعنى موقظه ومحركه توقظ الغافلين وتفيق الثملين.

وكما خاض عليه السلام فى سته خصائص أخرى للموت ليكمل كلامه السابق فقال:

«قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَبَائِلَهُ، وَتَكَنَّفْتُمْ (١) عَوَائِلَهُ (٢)، وَأَفْصَدْتُمْ مَعَابِلَهُ (٣). وَعَظَّمْتُمْ فِيكُمْ سَيِّطَوْتَهُ وَتَتَابَعْتُمْ عَلَيْكُمْ عَدَوْتَهُ (٤)، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوْتَهُ (٥)».

شبه الإمام عليه السلام الموت فى هذه العبارات الرائعه بصياد رمى شباكه نحو جميع الناس وأخرى برام لا تطيش سهامه أو سيف قاطع بسيفه.

نعم، إن شك الإنسان فى كلّ شىء فلن يشك فى الموت ونهايه الحياه. يركع له صناديد أبطال العالم ويقع فى شباكه أذكى الأذكياء وكفى به أنّه لم يستثن حتى الأنبياء والأولياء وكما قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (٦).

وأشار عليه السلام إلى سبعة أمور أخرى بشأن حملات الموت على الإنسان والعجز عن مواجهته فقال: «فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي (٧) ظَلَلَهُ (٨) وَاحْتَدَامُ (٩) عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ (١٠)»

ص: ٣٥٩

١- (١). «تكنّف» من ماده «تكنّف» الإحاطه بالشىء.

٢- (٢) «غوائل» جمع «غائله» الشرّ والداهيه.

٣- (٣) «معابل» جمع «معبل» على وزن «مدخل» النصل الحاد.

٤- (٤) «عدوه» العدوان.

٥- (٥) «نبوه» الخطأ فى الضربه بالسيف والسهم ونحوه.

٦- (٦) سورة آل عمران، الآيه ١٨٥.

٧- (٧). «دواجى» جمع «داجيه» الظلمه من ماده «دجوّ» على وزن «غلوّ».

٨- (٨) «ظلل» جمع «ظله» على وزن «قله» السحابه.

٩- (٩) «الإحتدام» الاشتداد من ماده «حدم» على وزن «حتم».

١٠- (١٠) «حنادس» جمع «حنس» على وزن «قبرص» الظلمه الشديده.

غَمْرَاتِهِ (١)، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمٌ إِزْهَاقِهِ (٢)، وَدُجُوٌّ (٣) أَطْبَاقِهِ (٤)، وَجُشُوبُهُ (٥) مَذَاقِهِ».

حيث يبين عليه السلام بهذه الحملات السبع وبمختلف العبارات وبأدق وصف، اللحظات الرهيبة آخر العمر، لحظات مهوله وموحشه للغاية، لحظات مظلمه وداميه وصف عليه السلام ظلمتها بأربع مفردات مختلفه (دواجي، حنادس، غواشي ودجو) تكشف مدى بلاغه الإمام عليه السلام وتنوع الألفاظ يضاعف فصاحه كلماته وبلاغتها.

ثم حذر عليه السلام مخاطبيه من نزول الموت المفاجئ وضروره اليقظه في أنّ هذا الموت لا يقبل دائماً بعد مقدمات طويله وأمراض، بل ما أكثر أن يحلّ ويفنى كلّ شيء بلحظه فقال: «فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسِيكَتْ نَجِيكُمْ (٦)، وَفَرَّقَ نَدِيكُمْ (٧)، وَعَفَى (٨) آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُزَرَائِكُمْ، يَفْتَسِمُونَ تُرَائِكُمْ».

وموت الفجأه الذي كان وما زال يفاجئ الناس، أعظم عبره من غيره، حيث لا يعرف صغيراً أو كبيراً ويطال الإنسان كيفما كان، وقد ذكر المرحوم العلماءه التستري في شرحه لنهج البلاغه عدداً من الأنبياء ومنهم موسى وداود وسليمان الذين ماتوا موت الفجأه، نعم، ظاهر القرآن بشأن سليمان يشهد أنّ ملك الموت توفاه واقفاً مستنداً على عصاه «فَلَمَّا قَضَىٰ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ» (٩).

ص: ٣٦٠

١- (١) «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربه» الشدائد و «غمرات الموت» شدائد وصعاب الموت والاحتضار التي تصيب الإنسان فالغمرة تقال للماء الكثير الذي يأخذ الشيء.

٢- (٢) «ارهاق» من ماده «رهب» على وزن «شفق» تغطيه الشيءء بالتهر والغلبه ويطلق على الأعمال الشاقه، جدير ذكره وردت في بعض النسخ بدل «ارهاق»، «ازهاق» من ماده «زهوق» الاضمحلال والهلكه و «ازهاق الروح» فصل الروح عن البدن.

٣- (٣) «الدجو» الظلمه كما ورد أعلاه.

٤- (٤) «اطباق» جمع «طبق» وضع شيء على آخر كأن للظلمه طبقات تتراكم على بعضها.

٥- (٥) «الجشوبه» الخشونه؛ سواء في الطعام أو الكلام وما شابه ذلك.

٦- (٦) . «النجي» المناجي والذي يهمس في الأذن من ماده «نجوى».

٧- (٧) «الندى» الجماعه الذين يجتمعون للمشوره أو الأحاديث المتعارفه.

٨- (٨) «عفى» أزال الأثر من ماده «عفى» له عدّه معانٍ بحكم باب التفعيل منها المحو.

٩- (٩) شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ١١، ص ٢٧٥.

حتى شوهده البعض وقد توفي وهو يتحدّث، فذكر المبتدأ ولم يبلغ الخبر.

فقد بين عليه السلام في هذه العبارات آثار الموت في وسط المتبقين حيث لا ينقطع كلامه الظاهري فحسب، بل يخمد حتى الهمس؛ فيتفرق عنه الحاضرون فجأه وسرعان ما تزول آثار الإنسان ويفرغ بيته وينطفئ ضياؤه وإن كان هنالك من ضجيج فبين الورثة الذين عادة ما يتنازعون على الميراث وكأنهم لا يدرون أنهم سيلتحقون بالموتى عن قريب.

ثم قسم عليه السلام الورثة في ختام هذه فقره إلى ثلاث؛ فنه من خواص الإنسان؛ إلّا أنّ مودتهم تزول آنذاك: «بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ».

والثانية، القرابه المحزونه والملتاغه التي لا يسعها دفع الموت «وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ». والثالثة، العدو الشامت الذي لا يجزعه موت «وَأَخْرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ».

وأشار الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من كلامه إلى موت الفجأه؛ السكته القلبيه أو الدماغيه والحوادث الأليمه المتنوعه التي تفنى الإنسان في لحظه، الموت الذي لا يابه بمكانه الأشخاص ولا بعمرهم فيطال كما مضى حتى الأنبياء، ويالها من عبره يختزنها هذا الموت الذي يحدث كثيراً ويزداد يوماً بعد آخر، ففي لحظه آنيه ينتهى كلّ شيء ويتفرق الجمع ويغتنم الصديق ويفرح العدو - ويالهم من غافلين أولئك الذين يتجاهلون هذه الحوادث وينهمكون بالذنوب والمعاصي ويقارفون أنواع الآثام بغيه الحصول على المال. نعم إنّ هؤلاء المغفلين ينسون طبيعه ظروف حياتهم.

ورد في كتاب «الإمامه والسياسه» لابن قتيبه: فلما كانت سنه إحدى وخمسين، مرض الحسن بن عليّ مرضه الذي مات فيه، فكتب عامل المدينه الى معاويه يخبر بشكايه الحسن، فكتب إليه معاويه: إن استطعت ألاً تمضى يوم يمرّ بي إلّا يأتيني فيه خبره فافعل، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفي (الإمام الحسن عليه السلام)، فكتب إليه بذلك، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس وكان بالشام يومئذٍ، فدخل على معاويه، فلما جلس قال معاويه:

يا ابن عباس هللك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم، هللك «إِنَّا لِلَّهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١) ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سدَّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك ولئن أُصِبتنا لقد أُصِبتنا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فجبّر الله مصيبتَه، وخلف علينا من بعده أحسن الخلفه، ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاويه فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم (٢).

وجاء في «تاريخ الطبري»: عندما وصل خبر وفاه علي عليه السلام إلى معاويه فرح فرحاً شديداً، وكذلك لما انتهى الخبر إلى عائشه قتل علي عليه السلام وقالت:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا التَّوَيُّكَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ

فقال زينب بنت أبي سلمه: ألعليّ تقولين هذا، فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني (٣).

نعم، فمثل هؤلاء الأشخاص الغفله ينسون ما هم عليه من العيش الدوني والانحراف وحبّ الدنيا والقدره.

ص: ٣٤٢

١- (١) . سورة البقره، الآيه ١٥٦.

٢- (٢) الإمامه والسياسه، ابن قتيبه، ص ١٧٥.

٣- (٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١١٥.

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّرْوُدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ.

وَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا عَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دَرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غَرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا. وَأَصِيبُ بَحْتٍ مَسَاكِينُهُمْ أَجِيدَاتٌ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثٌ. لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَنَاهُمْ، وَلَا يَحْفَلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ غَرَارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مُنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رِخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزَكُّ بِلَاؤُهَا.

الشرح والتفسير: الدنيا الغرارة!

متابعه لبحث الإمام عليه السلام في شدائد الموت وفناء الحياه في المقطع السابق خاطب الجميع فأوصاهم بالتزود من الدنيا ما دامت الفرصه قائمه وعدم الاغترار بزخارفها ولذاتها والاعتبار بالماضيين فقال: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ (١) وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّرْوُدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ».

قال بعض الشراح في الفارق بين الجد والاجتهاد أن الجد يشير إلى مرحله العزم على الإتيان بالفعل والاجتهاد مرحلته العمليه، والتأهب إشاره إلى التيه على الاستعداد والاستعداد جانبها العملي (٢).

ص: ٣٤٣

١- (١). «التأهب» الاستعداد للشيء من «الأهبه» وله أحياناً معنى المصدر والاسم الجامد.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي، ج ١٤، ص ٤١٩.

لكن لم يذكر لذلك أى دليل من اللغة أو القرائن المتصله والمنفصله ولا يبعد أن يكون الجد حين يقترن بالاجتهاد إشاره إلى أنه ينبعث من الإنسان نفسه ولعل الفارق بين التأهب والاستعداد كذلك، طبعاً لا يستبعد احتمال التأكيد.

ثم قال: «وَلَا تُعْرِثُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا عَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ».

نعم، يمكننا مشاهدته مصير حياتنا بصوره شفافه فى مرآه حياه الآخريين وهذه حقيقه أكدها الإمام عليه السلام فى عدّه خطب من «نهج البلاغه» فتأخذ بأيدينا لتضعنا فى تاريخ الماضين؛ التاريخ التكويني لا التدويني الذي يتجلى فى أطلال قصورهم الخربه والآثار الباقية من معيشتهم المترفه.

ولحسن الحظ فإنّ المتاحف التى تضم الكثير من آثار الماضين يمكنها أن ترشدنا؛ فعرش الملك الفلاني وتاجه هنا والمهند المرصع وجواهر الأمر الكبير هناك وفى زاويه الأجساد المحنطه للفراعنه، مع أنّ طلاب الدنيا شوهوا هذا الموضوع المهم وأحاله إلى صورته أخرى من الاستغراق فى الدنيا؛ فأصبحت المتاحف وسيله تدر الأرباح على أصحابها.

وقال الهيثم بن عدى، عن رجاله: بينا حذيفه بن اليمان وسلمان الفارسي يتذاكران أعاجيب الزمان، وتغير الأيام، وهما فى عرصه أيوان كسرى، وكان أعرابي من غامد يرمى شويهات له نهاراً، فإذا كان الليل صيرهنّ إلى داخل العرصه، وفى العرصه سرير رخام كان كسرى ربّما جلس عليه، فصعدت غنيمات الغامدى على سرير كسرى، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدى على سرير كسرى(١).

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا

ص: ٣٦٤

ثم تناول عليه السلام حال الماضين بوضع عبارات موجزه فقال: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا (١) دِرَّتَهَا (٢) ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا (٣) ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا (٤) جِدَّتَهَا (٥) . وَأَصْرِيحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَانًا (٦) ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا . لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَحْفَلُونَ (٧) مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ» .

العبارات: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا...» والعبارات... إشاره إلى الأشخاص الذين تمتعوا بجميع ملذات الدنيا. وكان لبناً في ثدى الدنيا فحلبوه وشربوه إلى آخره واستغلوا كل متع الدنيا ولكنهم كأن لم يلبثوا فيها فكانوا طبق العباره «وَأَصْرِيحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَانًا» .

ولهذه العباره القيمه معينان؛ الأول: انتقلوا من قصورهم إلى القبور، والآخر: إن قصورهم تهدمت عليهم بفعل بعض الحوادث المهوله كالزلزله فأصحت قبورهم.

وبيّن عليه السلام بالدقه فى العبارات الخمس الأخيره التى تبدأ ب (أصبحت) أنهم اغتربوا عن الدنيا بحيث لم يعودوا يعرفون من يزورهم ويبكيهم من قرابتهم ومعارفهم ولا يسمعون صراخهم.

طبعاً هذا بخصوص أصحاب الدنيا الذين نسوا الله ولم تكن حصيله أعمارهم سوى التهافت على الدنيا، أما المؤمنون الصالحون حسب ما ورد فى الروايه فيعرفون من يقف على قبورهم ويأنسون بهم ويغتمون لانصرافهم.

قال أحد أصحاب الكاظم عليه السلام إسحاق بن عمار: سألته عن المؤمن يعرف من يزوره فى قبره؟ فقال: «نَعَمْ وَلَا يَزَالُ مُسْتَأْنَسًا بِهِ مَا دَامَ عِنْدَ قَبْرِهِ فَإِذَا قَامَ وَأَنْصَرَفَ

ص: ٣٦٥

١- (١) . «اختلبوا» من «حلب» على وزن «طرب» و «حلب» على وزن «حرب» بمعنى استخراج الحليب.

٢- (٢) . «درّه» اللبن أو الحليب الكثير.

٣- (٣) «غزّه» الغفله والسهوله.

٤- (٤) «أخلقوا» من ماده «اخلاق» القدم من ماده «خلق» على وزن «ورق» التآكل.

٥- (٥) «جده» جديد ولهذه المفرده معنى الاسم.

٦- (٦) . «أجدات» جمع «جدث» على وزن «هوس» القبر.

٧- (٧) «لا يحفلون» لا يبالون من ماده «حفل» على وزن «حرب» الاهتمام.

مِنْ قَبْرِهِ دَخَلَهُ مِنْ إِنْصِرَافِهِ عَنْ قَبْرِهِ وَحَشَهُ» (١). ثم استنتج عليه السلام عقب ذلك «فَاخْذَرُوا الدُّنْيَا».

ثم أورد ثمان صفات للدنيا (أو عشره على قول) كأدله دامغه على الحذر من الدنيا فقال: «فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبَسَةٌ نَزُوعٌ» (٢)، لَا يَدُومُ رَحَاؤُهَا، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزُكُّدُ (٣) بِلَاؤُهَا».

والمفردات «عَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ» وإن كانت متقاربة من حيث المعنى لكنها في الواقع تختلف في الدقة؛ غداره من ماده غدر نقض العهد، وغراره من غرور، الخدوع من خدعه الحيله وتعلم أنها متفاوتة وإن كانت غالباً من قبيل اللازم والملزوم، نعم، فالدنيا لا تفي لأحد وزخارفها تغرّ العديد من الناس ومختلف مناظرها ومشاهدها خدعه، العبارة «مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ» تعود لصفه؛ أي لا تكاد تعطى الإنسان شيئاً حتى تسترده، فلا يمضى عهد الشباب حتى تحل الكهولة ولا يذوق السلامه حتى تطاله الأمراض.

وذهب بعض الشراح إلى أنّ هاتين الصفتين منفصلتان وقال: الدنيا تعطى الأشياء التافهه وتمنع الأشياء القيمه، فلا قيمه لعطائها ولا يطاق منعها.

كما هنالك تفسيران للعبارة «مُلْبَسَةٌ نَزُوعٌ»: الأول: إنه وصف مفهومه أنّ الدنيا تكسو الإنسان لباساً جميلاً من القدره والعظمه وتنزعه بعد مدّه قليله من قبل الآخرين، أو المراد أنها تلبس ثياباً تافهه وتنزع ثياباً قيمه والتفسير الأول يبدو أصح في كلتا العبارتين.

وهنالک اختلاف واضح بين المفردات (رَخَاء) و (وعناء) و (بلاء) فالرخاء، الهدوء الذى قلما يحصل فى الدنيا، والعناء، المتاعب والمصاعب التى تطال دائماً أهلها،

ص: ٣٦٦

١- (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٢٨ باب زياره القبور، ح ٤.

٢- (٢). «نزوع» من ماده «نزع» على وزن «نذر» الفصل.

٣- (٣) «لايركد» من ماده «ركود» السكون وانعدام الحركة.

والبلاء، الحوادث الأليمه سواء الحوادث الطبيعيه كالزلازل والسيول والعواصف أم البلايا التي يصنعها الإنسان كالحروب، وزبده الكلام: الدنيا دار لا تدوم.

ص: ٣٦٧

مِنْهَا فِي صِفَةِ الزُّهَادِ: كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْدُرُونَ، تَقَلَّبَ أَيْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرُونَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون

قال الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من هذه الخطبه الذي يشير تعبير السيد الرضى أنه مستقل عما سبق لأنه يقول (منها في صفة الزهاد). «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها».

هذه هي الصفة الأولى من الصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام للزهاد في هذه العبارة. من الواضح أن لا تناقض قط في العبارة، فالمراد أن جسمهم في الدنيا لكن روحهم وقلوبهم معلق بالآخرة.

وقد جرب ذلك كل شخص في حياته أن قلبه حين ينشغل بقضيه مهمه يكون فكره متعلق بموضوع آخر وإن كان وسط أى جماعه، وتؤدي هذه الصفة إلى اختلاف أعمال الزهاد مع أصحاب الدنيا، فهؤلاء يجدون في التزود من الدنيا وأولئك في التزود لها، ودليل ذلك واضح أن الزهاد لا يرون الدنيا سوى ممر والحياه الواقعيه حسب القرآن هي الدار الآخرة «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»(١).

ص: ٣٦٩

ثم أشار عليه السلام إلى الصفه الثانيه «عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ».

ومن ثم قال عليه السلام: «وَبَادِرُوا(١) فِيهَا مَا يَخْذَرُونَ». فهؤلاء يرون ببصيرتهم سبل النجاه ويقفون على عناصر السعاده والفلاح، ومن هنا يلهثون وراءها دائماً، ويعرفون من جانب آخر عوامل البؤس والشقاء، لذلك يسعون للهروب منها وعدم التلوث بها.

وقال فى الصفه الرابعه: «تَقَلَّبَ أَيْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي(٢) أَهْلِ الْمَآخِرَةِ». نعم فهم يعيشون مع الجميع ظاهرياً؛ إلّا أنّ معاشريهم الحقيقيين أهل الآخره، كونهم يعلمون أنّ معاشرتهم لأصحاب الدنيا تميت قلوبهم، فلا شىء فى مجالسهم سوى الدنيا ولذاتها، فهم فى الواقع أموات بصوره أحياء.

ثم قال فى الصفه الخامسه والأخيره: «وَيَرُونَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ».

يستفاد من الصفات الخمس المذكوره أنّ معنى الزهد وحيقته ليس فى كون الإنسان فقيراً ومعدماً أو يتخلى عن الحياه الاجتماعيه والتوقع فى زاويه للعباده؛ بل حقيقه الزهد أن يرى الأولويه للدار الآخره فى كل شىء وحيثما كان ولا يكون أسير زخارف الدنيا والأهواء والشهوات، وجاء فى خطبه أخرى للإمام عليه السلام.

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قَصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ(٣)».

وقد بحثنا بما فيه الكفايه حقيقه الزهد فى تلك الخطبه.

ص: ٣٧٠

١- (١). «بادروا» من «المبادره» الاسراع فى العمل أحياناً وأخرى السبق (تتعدى الأولى بدون «الى» وتتعدى الثانيه ب «إلى»).
٢- (٢). «ظهرانى» يعنى وسط شخصين أو أشخاص والأصل «ظَهْرَيْنِ» تشبيه «ظَهْر» وكان للإنسان داعم من أمامه وخلفه إن كان وسط جماعه ثم أضيف له الألف والنون للتأكيد ونون التشبيه حذفت عند الاضافه لتصبح «بين ظهرانى» وعليه «بين ظهرانى» أن يكون الإنسان بين أفراد يحمونه. (راجع ماده ظهر فى لسان العرب).

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ٨١.

حَطَبَهَا بِذِي قَارِ (١) وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، ذَكَرَهَا الْوَاقِدِيُّ (٢) فِي كِتَابِ «الْجَمَلِ»: (٣)

نظرة إلى الخطبة

يفيد مستهل الخطبة أن ما ورد ذكره من جانب من خطبه مفصله أوردها الإمام عليه السلام في ذي قار ولا يبدو مستبعداً أن تكون هذه الخطبة متممة للخطبة ١٠٤ والتي تبدو امتداداً للخطبة ٣٣ والتي قيلت في ذي قار.

على كل حال أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى أمرين مهمين؛ الأول: إِنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبْلَغَ مَا أَمَرَ بِهِ وَأَتَى بِوُضُئِهِ بِأَكْمَلِ وَجْهِ.

والآخر: إِنَّ إِحْدَى الْمَهَامِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَوْحِيدَ الصَّفُوفِ وَتَكْوِينَ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَوْحَدِ وَحَصْدِ الْعِدَاوَاتِ مِنَ الصَّدُورِ.

ص: ٣٧١

١- (١). «ذِي قَارٍ» مَنْطِقُهُ قَرَبُ الْبَصْرَةِ وَقَعَتْ فِيهَا الْحَرْبُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

٢- (٢) مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْوَاقِدِيُّ مِنْ مَفْسَرِيٍّ وَمُؤَرِّخِي الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الثَّانِي وَالْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٠٧ هِجْرِيَّةً.

٣- (٣) سَنَدُ الْخُطْبَةِ: رَغْمَ أَنَّ الْمَرْحُومَ السَّيِّدَ الرَّضِيَّ نَقَلَ هَذِهِ الْخُطْبَةَ مِنْ كِتَابِ «الْجَمَلِ» لِلْوَاقِدِيِّ إِلَّا أَنَّ صَاحِبَ «مَصَادِرِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ» ذَكَرَ أَنَّهُ رَوَاهَا ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْمَالِكِيُّ فِي «الْعَقْدِ الْفَرِيدِ» وَالْمَرْحُومَ الْمَفِيدُ فِي «الْإِرْشَادِ». وَرَوَاهَا ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ بِصُورِهِ مَفْصَلَةً فِي شَرْحِهِ لِنَهْجِ الْبَلَاغَةِ (مَصَادِرِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، ج ٣، ص ١٧٦).

فَصَدَّعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفُتْقَ، وَ أَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعِيدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالصَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

الشرح والتفسير: النبي صلى الله عليه وآله حصد العدا من الصدور

قال الإمام عليه السلام بعد بيانه لمقدمات في خطبته بذي قار: «فَصَدَّعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ».

بالنظر إلى أنّ (صدع) من ماله (صدع) على وزن (صبر) تعني لغّة الشق أو الشق في الأجسام المحكمه أو شق الشيء فيظهر باطنه، فإنّ هذه المفردة تعني الظهور والوضوح وقد استعملت هنا كون إبراز حقيقه التوحيد في ذلك الوسط الجاهلي المليئ بالشرك بمشابه شق تلك الحجب الضخمه للكفر والانحراف، والواقع انها اقتباس من الآية ٩٤ من سورة الحجر «فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ».

ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة «وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ» أنّ في «بلغ» مفهوم التأكيد والتكرار. وعليه فمفهوم العبارة أنّ النبي أظهر الحق وأكد عليه.

ثم خاض عليه السلام في إحدى أهم وأمثل خدمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفُتْقَ، وَأَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ (١) بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعِيدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ (٢)»

ص: ٣٧٣

١- (١). «الشمل» الجمع وله أحياناً معنى اسم المصدر ويعنى الاجتماع.

٢- (٢) «الواغرة» الحاره والساخنه من ماله «وغر» على وزن «فقر» شدّه الحاره وهى تستعمل بمعنى البغض والعداء الشديد.

فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ (١) الْقَادِحِهِ (٢) فِي الْقُلُوبِ».

فقد ذكر الإمام عليه السلام في وحده الكلمه التي بثها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بين صفوف الأُمَّه رغم كل تلك الاختلافات ثلاثه تعابير:

الأول: التعبير بـ «لم» على وزن (غم) بمعنى الجمع أو الجمع المقرون بالإصلاح ويصبح مفهومه أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله ردم تلك الهوه في ظل التعاليم الإسلاميه بحيث لم يعد هنالك من أثر للماضى.

الثانى: التعبير بـ «رتق» الذى يعنى ترقيع القطع الممزقه ولعله تأكيد على العبارة السابقه أو إشاره إلى الموارد التي كانت متصله سابقاً وانفصلت، ثم وصلها.

الثالث: التعبير بـ «تأليف» الذى يعنى الجمع المقترن بالأنس والإنسجام الذى ذكر بخصوص ذوى الأرحام، فكثيراً ما كان الأب والابن أو الأخ يتنازعون على بعض المصالح البسيطه فى الجاهليه، وقد ألف بينهم رسول الله صلى الله عليه وآله على هدى الإيمان ومبادئ الإسلام.

النتيجه: إنّ الألفاظ الثلاثه يمكن أن تكون تأكيداً لبعضها البعض الآخر ويمكن أن يكون كل تعبير فى نوع من الاختلاف فى المجتمع. كما يحتمل أن تكون العبارة (تأليف الشمل) مرتبط باختلافات الأسره والقرباه، ورتق إشاره لزوال الاختلافات القبليه و (لم) إشاره لرفع الاختلافات عن المجتمع وتوحيد صفوفه.

على كل حال لم يكن يصدق أحد أن يتحول يوماً ذلك المجتمع الصغير فى العصر الجاهلى رغم كل تلك الاختلافات العجيبه والرهيبه إلى مجتمع موحد كبير الذى قضم بوحدته ظهر الأعداء وكان بحق معجزه ربانيه كما قال القران: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ» (٣).

ص: ٣٧٤

١- (١) «الضغائن» جمع «ضغينه» العداوه الشديده وتعنى فى الأصل التغطيه المقرونه بالانحراف.

٢- (٢) «القادحه» المشتعله من ماده «قدح» على وزن «مدح» إشعال النار.

٣- (٣) سورة الأنفال، الآيتان ٦٢ و ٦٣.

كَلَّمَ بِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَمْعَةَ (١)، وَهُوَ مِنْ شِيعَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فِي خِلَافَتِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ مَالاً، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢).

نظره إلى الخطبة

كما ورد في عنوان هذا الكلام فإنَّ عبد الله بن زمعه طلب مالا من الإمام عليه السلام وكان من شيعته فلم يجبه، حيث كان المال من الغنائم الحربية ولا حق فيه سوى للمقاتلين ولم يكن له حق لأنه لم يشترك في القتال.

ص: ٣٧٥

-
- ١- (١). عبد الله بن زمعه بن الأسود من أعدى أعداء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. عبد الله ابن اخت ام سلمه وصهرها وقد قتل الإمام عليه السلام أباه وعمه وأخاه في بدر (راجع دائره المعارف الشيعيه للمرحوم الأعلمي: ج ١٢ ص ٣٠٥ وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ١٠؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ١٩٢).
- ٢- (٢) سند الخطبه: المصدر الوحيد الذي عثر عليه صاحب كتاب المصادر في هذه الخطبه غير نهج البلاغه، غررالحكم للآمدى في حرف الألف باختلاف يفيد أنه أخذها من مصدر آخر. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٨).

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتُهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاهُ أَيْدِيَهُمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين

رغم أنّ المراد بهذا الكلام شخص معين؛ أي عبد الله بن زمعه الذي اعتنق الإسلام وكان من شيعه على عليه السلام بخلاف أبيه وجدّه اللذين لم يعتنقا الإسلام وكانا من الأعداء، إلّا أنّ مضمون الكلام موضوع يصدق على جميع المسلمين، وهو أنّ أى مال من بيت مال المسلمين لا بدّ أن يصرف فى الموارد التى عينها الشارع ولا ينبغى تقديم الروابط على الضوابط بهذا الشأن.

وتشير قرائن الكلام إلى أنّ عبد الله طلب سهماً من الأموال التى كانت بين يدي الإمام وتعتبر من غنائم الحرب، إلّا أنّ الإمام عليه السلام قال له: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ».

لابدّ من الالتفات رغم أنّ مفردة (الفيء) إن كانت مقابل الغنيمه فلها معنيان مختلفان؛ فالفيء يطلق على الأموال التى تقع فى أيدي جند الإسلام دون قتال وتعلق حسب الموازين الشرعيّه ببيت المال؛ أمّا الغنيمه فهى الأموال التى يجنيها المقاتلون بواسطه القتال، لكن إن استعملت الفيء بمفردها اطلقت أحياناً على الغنيمه، وعليه فقوله عليه السلام: «هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ»، لا ينافى مفهوم الفيء.

ثم قال عليه السلام: «فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَزَبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاهُ» (١) أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ».

وقوله عليه السلام ليس لى من سهم فى هذه الأموال ربّما يرتبط بالمعارك المحدوده التى يخوضها بعض قوّاد الإمام وليس الإمام عليه السلام، صحيح أنّ خمس الغنائم الحريه لبيت المال، وصحيح أنّ عبد الله بن زمعه كان من بنى المطلب (المطلب أخو هاشم) وليس بنى هاشم، ويرى البعض أنّ بنى المطلب يستحقون الخمس (٢).

لكن ربّما لم يكن فقيراً ليعطيه شيئاً من الخمس، على كلّ حال يشير هذا الكلام إلى أنّ الإمام عليه السلام كان فى غاية الدقه فى الأموال ولا يسمح بإعطاء حق مسلم لآخر وإن كان من صحبه الأوفياء، بخلاف عهد عثمان الذى يعتقد المؤرخون بأنّ بيت المال لم يكن خاضعاً لحساب وكتاب، وما أجدر أن يكون كلام الإمام عليه السلام جدول عمل لجميع زعماء الأئمة الإسلاميه والالتزام بالحق والعدل فى بيت المال حتى بالنسبه لحاشيتهم ومقربيههم.

كما يستفاد من الكلام أنّ عبد الله بن زمعه لم يكن تام المعرفة بالإمام ليطلب منه ذلك ولم يكن يعلم أنّ الإمام عليه السلام عامل أخاه عقيل كذلك وإلّا لما طلب منه.

ص: ٣٧٨

١- (١). «جناه» الثمار التى تقطف من الشجره وهى مفرد من ماده «جنا» على وزن «جفا».

٢- (٢) انظر: جواهرالكلام، ج ١٦، ص ١٠٦؛ المعبر المحقق الحلى، ج ٢، ص ٦٣١، كتاب الخمس.

بَعْدَ أَنْ أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى الْكَلَامِ فَحَصَرَ، وَهُوَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَوَصَفِ فَسَادِ الزَّمَانِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه من قسمين:

الأول: بشأن أهميه التكلم وحرمان البعض من هذه النعمه. ومن ثم أشار إلى تماميه هذه النعمه العظيمه في أهل البيت عليهم السلام.

وشرح في القسم الثاني الوضع على عهده والذي انحدر فيه الناس إلى الفساد إثر توليهم عن تعاليم الإسلام فذل أصحاب الحق وكل أصحاب الصدق وساءت أخلاق الشبان وأثم الكهول وغدا عالمهم منافق والصديق خائن.

ص: ٣٧٩

١- (١) سند الخطبه: لما بلغ ابن أبي الحديد هذه الخطبه في شرحه لنهج البلاغه قال: اعلم أن هذا الكلام بينه أمير المؤمنين عليه السلام في حادثه اقتضت ذلك حيث أمر ابن اخته جعده بن هبيرة المخزومي أن يخطب بالناس، فصعد المنبر لكن (لجلاله الإمام وعظم الجماعه) لم يستطع الكلام ونزل. فصعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وأورد هذه الخطبه الطويله التي ذكر السيد الرضى هنا بعضها (ويتضح من هذا الكلام أنه أخذها من مصدر آخر). ورواها باختلاف المرحوم الكليني في «روضه الكافي» والآمدى في «غررالحكم» كما رواها الزمخشري في الجزء الأول من كتابه «ربيع الأبرار» (مصادر نهج البلاغه: ج ٣، ص ١٧٩).

ومن هنا حثهم على العوده إلى طريق الحق واليقظه قبل أن يصيبهم العذاب الإلهى.

ص: ٣٨٠

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ،
وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ. وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَشَبُّهُتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهْدَلَتْ غُصُونُهُ.

الشرح والتفسير: نحن امراء الكلام

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى أمرين:

الأول: يتلعم البعض حين الخطابه وينطلق بها البعض الآخر فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ (١) مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ».

قطعه اللحم هذه المسماه باللسان من عجائب خلق الله، فبحركات سريعة للغاية ودقيقه ومنظمه يصنع الحروف الثمانيه والعشرين أو الاثنتين والثلاثين فيصنفها خلف بعضها ليبتن بمجموعها جميع هو اجسه ورغباته الماديه والمعنويه، فيفصح بها عن المحاسن والمساوى والجميل والقيبح، والطريف أن لكل قوم لغتهم فهناك أكثر من ألف لغه في العالم، وقد منحت هذه النعمه للإنسان وحده ليجيد الكلام فهى على درجه من الأهميه بحيث ذكرها الله في طليعه سوره الرحمن التى شرحت نعم الله:

«الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (٢) طبعاً لا ينبغي أن ننسى أن

ص: ٣٨١

١- (١) «بضعه» (بفتح الباء) و «بضعه» (بكسر الباء) القطعه من كل شيء ويقال أحياناً حين يكون الشخص شديد القرب من آخر: «هو بضعه منى».

٢- (٢) . سوره الرحمن، الآيات ١-٤.

المهم إمره الروح بالنسبه للسان، فإن كانت هذه الإمره جاهزه انطلق اللسان بالفصاحه والبلاغه بسهولة وإن غابت هذه الجاهزيه تلثم اللسان، والامتناع والاتساع الذى نسب فى العبارة لسان المراد منه فى الواقع امتناع واتساع روح الإنسان.

فالحق لقد بين الإمام عليه السلام سبب نجاح أو فشل الإنسان فى الخطابه من خلال هذا الكلام ضمن إشارته لأهميه اللسان والنطق.

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ (١) عُرُوقُهُ (٢)، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ (٣) غُصُونُهُ».

فقد شبّه الكلام فى هذه العبارة الرائعه بالشجره الضخمه ذات الأغصان والجذور وأضاف أنّ هذه الشجره المورقه متجذره فى أرض وجودنا واطللتنا أغصانها ومن هنا سمي أهل بيت الوحي «أمراء الكلام».

وكلنا نعلم أنّ ذلك ليس مجرد ادعاء، بل حقيقه يعترف بها العدو والصديق فقد كان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أفصح العرب، وكيف لا- يكون كذلك وعلى لسانه جرى كلام الله الذى بلغت فصاحته الاعجاز، وفصاحه أميرالمؤمنين عليه السلام أشهر من نار على علم وخطب «نهج البلاغه» ممّا تتناقله الألسن، حتى كان الأساتذه يوصون تلامذتهم فى الماضى إن أرادوا الفصاحه والبلاغه فى حديثهم بحفظ خطب «نهج البلاغه».

كما كانت خطب سيده النساء العالمين فاطمه الزهراء عليها السلام من أفصح الخطب وأبلغها، وقد فعلت خطب ربيبي هذا البيت الرسالى زينب وزين العابدين عليهما السلام فعلها فى الكوفه والشام لتؤثر على العدو والصديق.

ص: ٣٨٢

١- (١). «تنشبت» من «النشوب» التثبت فى الشىء.

٢- (٢) «عروق» جمع «عرق» على وزن «صدق» أصل الشىء وأساسه.

٣- (٣) «تهدلت» من ماده «هدل» على وزن «جدل» المعلقه بضعف وتطلق على الغصون النازله والمعلقه.

وعليه لا بدّ من الإذعان بأنّ التسميه بأمرء الكلام تليق بأهل هذا البيت.

تأملان

١. عجائب اللسان

اللسان الظاهري أى هذه القطعه اللحميه فى فم الإنسان وتولى الأمور الهامه والمعقده وكذلك اللسان الفكرى الذى يعنى القدره على أداء الكلمات وترتيب العبارات وبيان المطالب، لمن النعم الإلهيه العظيمه، ومن هنا عدّ الفلاسفه والأعلام، النطق (اللسانى والفكرى) الفصل المميز وعرفوا الإنسان بأنّه حيوان ناطق. وكلما أمعنا فى هذين الأمرين واجهنا المزيد من العجائب.

الطريف أنّ هذا اللسان ملاً تقريباً جميع فضاء الفم تحت الأسنان، وحين تناول الطعام يرسل المواد الغذائيه بسرعه تحت الأسنان وينسحب بمهاره دون أن يصيبه أذى.

يقول الأطباء: هنالك أربعة أنواع من الهضم للطعام: الهضم الأوّل فى الفم حيث يرطب تماماً ويمزج بلعاب الفم فتجرى عليه تغييرات فيزيائيه وكيميائيه شتى، ثم يتجه إلى المعده وبالطبع فاننا ننتفع باللسان صباح مساء دون أن نقف على دوره المهم عند تناول الطعام.

والوظيفه الأهم للسان صنع الكلمات ومقاطع الحروف وصف العبارات وبيان جميع المقاصد الصغيره والكبيره والبسيطه والصعبه والمعقده للغاية التى تعد من عجائب الخليقه.

إلّا أنّ المهم عدم مهاره الجميع فى ذلك، فالمهاره فى الكلام تتوقف على عدّه عوامل أحدها وأهمّها الممارسه والتدريب، والثقه بالنفس وعدم خشيه الآخرين، ورباطه الجاش والايحاء إلى النفس من بين تلك العوامل المهمّه، ومن تلك العوامل أيضاً حضور مجالس أساتذه الكلام والانفتاح على تجاربهم واستخدامهم القضايا الظريفه إزاء مخاطبيهم.

طبعاً المطالعات المسبقه وإمتلاك الرصيد العلمى من العوامل المهمّه وهذا ما

يفسّر براهه البعض فى الخطابه فى التجمعات الكبرى، وإعياء البعض الآخر فى التجمعات الصغرى، كما أنّ حالات الإنسان الروحيه من قبيل الحزن والسرور والعافيه والسقم والهدوء والاضطراب لمن الأمور التى لها غايه التأثير فى هذه القضيه، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه بعبارة الامتناع والاتساع.

وقد ذكر ابن أبى الحديد نماذج رائعه فى الأشخاص الذى ارتقوا المنبر وتلعثموا فى الخطابه وعيوا فى الألفاظ فهبطوا من المنبر، فنقل عن كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ موارد منها:

إنّ عثمان صعد المنبر وتوقف عن الكلام فقال هذا الكلام، ونزل: «أنتم إلى إمامٍ عادلٍ أحوج منكم إلى إمامٍ خطيبٍ» (تركيز عثمان على مسأله العداله رائعه للغايه).

وروى أنّ عدى بن أرطاه رقى المنبر ولم تكذّ تقع عينه على الناس حتى توقف فقال: (الحمد لله الذى يطعم هؤلاء ويسقيهم) ثم نزل.

كما صعد روع بن حاتم، المنبر فلما رأى الناس يتطلعون إليه نادى: إخفضوا رؤوسكم وأغمضوا أعينكم فركوب الدابه صعب أول الأمر فإن فتح الله شيئاً سهل.

وقيل: أراد مصعب بن حيان أن يلقى خطبه فى النكاح فقال: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله. فقامت له ام العروس وقالت: عجل الله موتك ألهذا دعوناك! وسائر الموارد من هذا القبيل (١).

٢. أمراء الكلام

ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه (وإنّا لأمراء الكلام) حقيقه لا تنكر يعترف بها العدو قبل الصديق. وما خلفه هذا البيت من تراث خير شاهد على ذلك؛ كأحاديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله التى نشرت تحت عنوان (نهج الفصاحه، ونهج البلاغه) بأجزائه الثلاثه والأدعيه كدعاء كميل والصبح الذى ينتهى سنده للإمام على عليه السلام وخطبتي

ص: ٣٨٤

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٣ و ١٤.

سيده نساء العالمين فاطمه الزهراء عليها السلام ودعاء عرفه المسند للإمام الحسين عليه السلام وخطب أهل بيته في الكوفة والشام ثم المدينة عقب واقعه كربلاء وأدعيه الصحيحه السجديه كدعاء أبي حمزه الثمالي الذي ينتهي سنه للإمام السجاد عليه السلام وأمثال ذلك.

كما ينبغي الالتفات إلى إذعان الأعداء بهذه الحقيقه. وروى ابن أبي الحديد في الجزء الأول من شرحه لنهج البلاغه أنّ محقن بن أبي محقن دخل على معاويه فسأله من أين جئت؟

قال: «جئتُك من عندِ أَعْيَى النَّاسِ». فقال له معاويه: «وَيُحَكُّ كَيْفَ يَكُونُ أَعْيَى النَّاسِ فَوَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرُهُ» (١).

وروى عن عبدالحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبه من نهج البلاغه ففاضت ثم فاضت (٢).

وروى المرحوم السيد الرضى في مقدمته الرائعه على نهج البلاغه قائلاً:

قال ابن أبي الحديد كما ذكرنا في الجزء الأول ذيل الخطبه ٢٢١ بعد شرحه لجانب من كلام المولى في عالم البرزخ: «لو اجتمع فصحاء العرب قاطبه في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع ومطلعها: «قلم أصاب...»، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن» (٣).

ولمزيد من المعلومات بهذا الشأن يراجع كتاب «في رحاب نهج البلاغه» للشهيد المطهرى ومقدمه الجزء الأول من «نفحات الولاية».

ص: ٣٨٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤.

٢- (٢) السابق طبق نقل المرحوم العلامة المطهرى في رحاب نهج البلاغه، ص ٢٨.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٥٣.

وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصِطَلِحُونَ عَلَى الْأَذْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِنُهُمْ مُمَازِقٌ. لَا يُعْظَمُ صَغيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يُعُولُ غَنِيَّهُمْ فَقِيرُهُمْ.

الشرح والتفسير: خصائص البيئه الملوئه

تناول الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه، المفاصد التي ظهرت آنذاك إثر سياسات الخلافه السابقه والتي سرت تقريباً إلى جميع المجتمعات، ليرسم صورته واضحه لذلك المجتمع بإحدى عشره عبارته موجزه غايه في الدقه بحيث لم ينس شيئاً (وهذا مفهوم الفصاحه والبلاغه والخطابه المعجزه) فقال: «وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ (١)، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ».

فقد شخّص عليه السلام بهذه الصفات الثلاث، الجذور الأصلية لفساد المجتمع، سكوت أهل الحق خشية المعارضين أو إزدیاد الأزمات، وصمت الصادقين بفعل ضغوط البيئه والهيئه الحاكمه أو مخافه زوال مصالحهم الشخصيه أو التلوث بالكذب والإفتراء عوض الصدق وكذلك أولئك الذين ينشدون الحق ويطلبونه ينحون أو ينسحبون من المجتمع وليس هنالك من يسمع مقالتهم الحقه، وزبده القول ينسى

ص: ٣٨٧

١- (١). «كلیل» من ماده «كلّ» على وزن «حلّ» التعب والعجز والضعف والكلیل التعبان والعاجز والضعيف.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويهجر إرشاد الجاهل وتنبه العاقل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين هما في الواقع نتيجته للصفات الثلاث السابقة فقال:

«أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُضْطَلِحُونَ (١) عَلَى الْإِدْهَانِ (٢)».

لا- شك في أن هناك معاصٍ في كل مجتمع ومداهنه ومسايره، إلا أن البؤس والشقاء في حركه عامه نحو الذنب والمعصيه وبصوره مستمره ودائميّه، كما أن المصيبه والتعاسه في اصطفا المداهنيّن واتحادهم على هذا الأمر.

ثم قال عليه السلام في الصفه السادسة والسابعه: «فَتَاهُمْ عَارِمٌ (٣) ، وَشَائِبُهُمْ (٤) آتِمٌ».

من البديهي في الوسط الذي يصمت فيه أصحاب الحق ويغيب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تتلوث الأوساط الأسريه فينشأ الشبان في هذه الأوساط سيئى الخلق وفاقدى الأدب، كما أنه من الواضح أن هؤلاء الشبان حين يشيخون لا يفارقون الاعتياد على المعصيه ويغفلون عن أن عمرهم اقترب من نهايته وسيحل أجلمهم فيغنون في بحر المعاصى بسبب تلك الغفله.

وقال في الصفه الثامنه والتاسعه: «وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَازِقٌ (٥)».

نعم، فعلماء ذلك الوسط الذين أقبوا على الدنيا إنما يرون النفاق سبيلاً لنيلها، كما ورد في الخطبه ١٩٤: «وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَفِعْلُهُمْ الدَّاءُ الْعِيَاءُ».

وردت المفرده «قارئهم» في أغلب نسخ «نهج البلاغه» وهذا ما رجحه أغلب الشراح كونه يناسب عبارته السابقه، فالكلام هناك عن العلماء وهنا عن قراء القرآن والعابدين. بينما وردت في بعض النسخ (قارن) من ماده قرين بمعنى الصديق

ص: ٣٨٨

١- (١) «مضطلحون» اتفاق الأفراد على شيء، من ماده «صلح».

٢- (٢) «إدهان» تعنى في الأصل التدهين. ثم استعملت في الخداع والمساومه على أمر مرفوض.

٣- (٣) «عارم» سيء الخلق من «العرامه» الخشونه وسوء الخلق والسيول الجارفة والموانع التي تقام لصدها في الوديان.

٤- (٤) «شائب» الكهل والعجوز من ماده «شيب» على وزن «غيب» الكهوله.

٥- (٥) «مماذق» المرائى من ماده «مدق» على وزن «حذف» مزج اللبن بالماء.

ويصبح مفهوم العبارة أنّ الأصدقاء آنذاك منافقون؛ ولكن من الواضح أنّ النسخة الأولى أكثر تناسباً مع مجموع كلام الإمام عليه السلام.

وأخيراً قال في الصفتين العاشرة والحادية عشره من صفات أهل ذلك الزمان:

«لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يُعُولُ (١) غَنِيَّهُمْ فَقِيرُهُمْ».

واضح أنّ الشبان والياfecين تربوا بعيداً عن الأدب والخجل والحياء لا يحترمون كبارهم، كما أنّ الكبار الذين غرسوا هذه البذور يتجرعون مراره ثمارها.

ومن الواضح أيضاً أنّه إن غابت الفضائل الإنسانية عن المجتمع وحلّ مكانها الفساد والتكالب على الدنيا فإنّ الأغنياء سوف لن يرحموا الفقراء وينسون حقيقته أنّ الله جعل للفقراء حقاً في أموالهم، ومن هنا يرون أنّ جميع تلك الأموال لهم فينفقونها في ملذاتهم. هذا إن كانت تلك الأموال جمعت من الحلال، وإلّا إن كانت من الحرام ولا- يعلم أصحابها، فهي جميعاً للفقراء والمحتاجين.

وهنا يرد هذان السؤالان؛ الأوّل: لم عمّت كلّ هذه المفاصد المجتمع الإسلامي على عهد حكومه الإمام على عليه السلام؟ ولا تبدو الإجابة صعبة إن عدنا قليلاً- إلى الوراء وتأمّلنا عصر الخليفة الثالث وماذا فعل وبطائه بيت المال والمناصب الحساسه الحكوميه التي أغدقها على خاصته وقربته، فالتاريخ يفيد أنّ الفساد بلغ درجه بحيث قام المسلمون على الخليفه وقتلوه بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار وقلّما كان له ناصر.

السؤال الآخر: أين الجذور الأصلية لتلك المفاصد الإحدى عشره؟ لو تأملنا بدقه لرأينا أنّ أغلبها إن لم نقل جميعها ناشئه من فساد الخلافه، وكون الناس غالباً على دين حكاهم يواصلون تلك المسيره، وأحياناً يترسخ الفساد بحيث يشق الإصلاح على من يخلفهم، كما شق على الإمام عليه السلام.

حقاً لو دعوا الإمام يتسلّم زمام الأمور بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقود المجتمع

ص: ٣٨٩

١- (١) «لا يعول» من ماده «عول» على وزن «قول» كفاله الشخص، ومنه العيال.

الإسلامى بذلك العدل والزهد والدرايه بالمسلمين لكان للإسلام والمسلمين مسار آخر. الطريف أننا لو نظرنا إلى البلدان المعاصره التى تسودها حكومات فاسده لرأينا بوضوح كل هذه المفاسد التى أشار لها الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه.

ص: ٣٩٠

رَوَى ذِعْلَبُ الْيَمَامِي [اليماني] عَنْ أَحْمَدَ بْنِ قُتَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ دَخِيحَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامِ،

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فَقَالَ (١):

نظرة إلى الخطبه

محور البحث في كلام الإمام عليه السلام عوامل اختلاف الناس مع بعضهم وظاهر هذا الكلام أنّ نقص الناس وكمالهم في العقول والغرائز مرهون بمدى طهاره طبيعتهم التي جبلت عليها طبيعتهم، وإن رأينا ظاهرياً تقارب البعض وانسجامهم أو تباعدهم وتفرقهم فبسبب قرب أرضهم (طبعاً يختزن هذا الكلام أسئلة متتاليه سنخوض في طرحها والرد عليها باذن الله في الشرح والتفسير).

ص: ٣٩١

١- (١) سند الخطبه: رواه الزمخشري في الجزء الأول من كتاب «ربيع الأبرار». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨١).

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءَ طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فَلَاقَهُ مِنْ سَبِيخِ أَرْضٍ وَعَذِبَهَا، وَحَزَنَ تَرْبِهِ وَسَهْلَهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَّقَارِبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَيَأَمُّ الرُّوَاءُ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهَمِّ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيْبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبَةِ، وَتَائِهَةُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيْدُ الْجَنَانِ.

الشرح والتفسير: أساس الاختلاف

لا- شك في أنّ الناس مختلفون من الناحية الجسميه وكذلك من الناحية الروحيه والفكريه والأخلاقية كما لا ريب في أنّ هذا الاختلاف يمكن تغييره عن طريق التربية والتعليم. وعليه فالاختلاف لا يقود قط إلى سلب الاختيار ومسأله الجبر.

إلّا أنّ الكلام في أصل هذه الاختلافات؟ لم البعض طويل القامه والآخر قصير، البعض جميل الوجه والآخر غير جميل، فنه ذات استعداد عالي وأخرى ضعيفه وعاجزه، وطائفه كريمه وأخرى بخيله.

نسب الإمام عليه السلام هذه الاختلافات إلى مواد خلق منها جسم الإنسان وقال: «إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءُ (١) طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فَلَاقَهُ (٢) مِنْ سَبِيخِ (٣) أَرْضٍ

ص: ٣٩٣

١- (١). «مبادئ» جمع مبدأ بدايه كلّ شيء والمراد هنا العناصر التي تكون طينتهم.

٢- (٢) «فلقه» القطعه من الشيء من ماده «فلق» على وزن «حلق» الشق وبما أنّ الشق يقسم القطع وردت فلقه بمعنى القطعه.

٣- (٣) «سبخ» الأرض المالحة.

وَعَذِبَهَا (١) ، وَحَزَنَ (٢) تَزْبِيهِ وَسَهْلَهَا (٣) ، فَهَمَّ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ».

وعلى ضوء هذا الكلام فإن هذه الاختلافات ناشئة من تباين مواد الأرض المختلفه، وبالنظر إلى اختلاف بقاع الأرض والمواد التي تتركب منها واختلاف تركيب الناس من تلك المواد، والتأثير لاختلاف تلك المواد على اختلاف روحياتهم وأفكارهم وأخلاقهم كان هناك اختلافات بين الناس. وهنا يرد سؤالان: الأول: إن أبانا آدم عليه السلام خلق من التراب وولد الناس لاحقاً من نطفه آدم وأولاده، وليس من التراب.

والآخر: ألا يقوى هذا الكلام مذهب الجبر الذي يرغب أن كل إنسان مجبر على الأفعال ولا يمكن تغيير ذلك؟ ونترك الإجابة عن السؤال الثاني لمبحث التأمّلات في آخر الخطبه. وهناك سيّلان للإجابة عن السؤال الأول:

الأول: إن الناس وإن ولدوا بعد آدم من نطفته؛ إلّا أنّ النطفه تتركب من مواد مختلفه تعود الجوانب الرئيسيّه فيها للأرض وتتغذى في رعرعتها على غذاء الأم لتبلغ مرحله الكمال حتى تلد، وغذاء الأمّ كان يتألف من مواد الأرض، فالنباتات تخرج من الأرض والحيوانات تتناول النباتات وعليه فممو الجنين منذ كونه نطفه حتى تحوله إلى الكمال يستند جميعاً إلى مواد الأرض.

وربّما يتضح الموضوع أكثر بهذا المثال وهو أنّ الأشجار المثمره التي تنمو في أراضٍ مختلفه وكذلك الحيوانات وبدور الأظعمه مختلفه تماماً؛ مثلاً، العنب الذي ينمو في بقعه أحلى وألطف من الآخر في بقعه أخرى وهكذا سائر الثمار، والناس كذلك، وحيث إنّ رابطه الجسم والروح بالنسبه لبعضها قريبه جداً فإنّ تفاوت هذه

ص: ٣٩٤

١- (١) . «عذب» الحلو.

٢- (٢) «حزن» إن استعملت في الأرض عنت المتموجه و «حزن» تعنى الغم من هذه الماده.

٣- (٣) «سهل» إن استعملت عنت المستويه المنبسطة ومنه أيضاً السهل أى البسيط.

الجواب الآخر: بغض النظر عما قيل، إن ركزنا على خلق جسم آدم من التراب فمن الممكن أيضاً أن تحصل عدّه نطف من المواد المركبه لوجود آدم حين تتكون النطفه، ففي بعض الحالات، ماده الفلانيه ترد أكثر من النطفه وفي بعضها الآخر أقل، ومن هنا يختلف حتى الأولاد الذين يلدون من نفس الأب والأم وفي مناخ واحد وحتى التغذية الواحده للوالدين؛ فهذا أشجع وذاك أكرم وهذا أضعف وذاك أذكى، والقضيّه المهمه أيضاً أنّ المناخ يكوّن جانباً من وجود الإنسان؛ لكن الإمام عليه السلام ذكر هنا أساس الاختلاف ليقترنه على اختلاف مواد الأرض ولم يتطرق إلى المناخ، إمّا لقله تأثيره على مواد الأرض أو أنه يتأثر بها أيضاً، فالماء مالح في الأراضي السبخه والهواء ملوث، بينما الماء حلو والهواء لطيف في الأراضي السهله.

طبعاً لا يخفى التأثير الذي تلعبه أشعه الشمس، ولذلك ترى أغلب الأفراد في المناطق الاستوائيه من ذوى البشره السوداء وبعكسها في المناطق المعتدله، وبالطبع لا يقتصر ذلك التأثير على لون البشره، بل هناك تأثير خاص للموقع الجغرافى بسبب اختلاف أشعه الشمس أو المناخ والأرض.

على كل حال، استناداً لما قيل يمكن التسليم لكلام الإمام عليه السلام حسب دلاله ظاهره والذي ينسجم تماماً مع القواعد العلميه المعاصره، ولا حاجة إلى أن نقول المراد من (مبادئ طينهم) أرواح ونفوس الناس وتحمل سائر ألفاظ الإمام عليه السلام على اختلاف الأرواح؛ لا على اختلاف الأجسام التي لها تأثيرها في تفاوت الأخلاق والروحيات كما يفهم من كلمات ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه.

ثم يبين الإمام عليه السلام عدّه نماذج لتأثير الجسم على الأخلاق والفكر والفضائل النفسائيه ليختتم هذا البحث بذكره لسبعه نماذج من العلاقه بين الجسم والروح والتركيب الظاهري بالخلق والطبع الباطنى فقال: «فَتَأْمُ الرُّوَاءِ (1) نَاقِصُ العُقْلِ، وَمَأْدُ

١- (١). «رواء» من ماده «رى» على وزن «حى» تعنى فى الأصل الإرتواء ومن هنا يطلق رواء على الفرد الحسن المنظر كأنه كالنبات الذى ارتوى من الماء وحسن منظره.

الْقَامَهُ قَصَبٌ أَيْ هَمَّهُ، وَزَاكِيَ الْعَمَلِ قَيْحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ (١) بَعِيدُ السَّبْرِ (٢)، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيْبِهِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبِهِ، وَتَائِهٌ الْقَلْبِ مُتَّفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيْدُ الْجَنَانِ».

وما ورد بشأن العلاقات السبع بين الجسم والروح والماده الجسمانيه والأخلاق فى كلام الإمام عليه السلام قطعاً بصيغته قاعده كليه لا يطالها الاستثناء، بل وارده فى أغلب الأفراد، ومن هنا لمسنا بأعيننا استثناءاتها.

العباره «قَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ» والنظر إلى أنّ القعر هنا إشاره إلى قصر القامه، حيث ليست هناك من فاصله بين الرأس والأقدام لديهم وكانت مفردة «وَقَرِيبُ الْقَعْرِ» مناسبه لهم، والنظر إلى أنّ السبر يعنى التعمق والاختبار فإنّ العباره «بعيد السبر» إشاره إلى عمق الفكر وسعه الاطلاع.

كما يحتمل أن تكون العباره «بَعِيدُ السَّبْرِ» إشاره إلى أنّ أولئك الأفراد يصعب معرفتهم. وهو المعنى الذى أقره ابن أبى الحديد وابن ميثم وبعض الشراح.

والعباره «وَمَعْرُوفُ الضَّرِيْبِهِ» بالنظر إلى أنّ الضريبه تعنى السجيه والخصله والطبيعه والجليبه ما يقوم به الإنسان من عمل خلاف طبعه وكأنه يجلبه من الخارج، فإنّ المفهوم هو أنّ طائفه من أولئك الناس الطاهري الطبع يتعاملون خلاف طبعهم بفعل بعض العوامل الخارجيه من قبيل التربيه السيئه والوسط الملوث والدعايه السامه التى تفرز الدواعى الشيطانيه.

والعباره «وَتَائِهٌ الْقَلْبِ» ذات مفهوم جربناه عاده فى حياتنا وحياه الآخرين وهو أنّ الأفراد الذين يعيشون الاضطراب إثر مختلف العوامل يفقدون قدره التفكير المنظم فتضطرب بالطبع أفكارهم بحيث يتضح قلق قلوبهم من خلال اضطراب أفكارهم.

ص: ٣٩٤

١- (١). «قعر» تعنى هنا الباطن ويطلق القعر على آخر نقطه فى الشىء.

٢- (٢) «السبر» الاختبار والامتحان ويقال لمن يصعب الوقوف على أسراره بسهولة «بعيد السبر».

٣- (٣). «التائه» الحيران من ماده «تیه» على وزن «سعی» و «تیه» على وزن «جیم» الحيره والضلال.

والعبارة «وَطَلِيقُ اللَّسَانِ» ذات مفهوم مجرّب هو أنّ الخطباء الماهرين هم الأفراد ذوو القلوب الصلبة الذين لا- يهابون شيئاً ويتسمون بالشجاعة ومن هنا كانوا ماهرين في الخطابه.

تأملان

١. صلة الروح بالجسم

صرّح أغلب الأعلام والفلاسفة بأنّ لروح الإنسان صلة بجسمه بحيث تنعكس خصائص كلّ منهما على الآخر، وعليه فليس من العجب أن تكون هنالك علاقة بين شكل الإنسان وقامته وسائر ميزات البدنيه وبين روحياته وأخلاقه.

وقد ذكر المفكرون منذ قديم الأيام ولحد الآن تلك الصلات في مصنفاتهم حتى انشق علم معرفه الهيئه، لكنهم يعترفون بأنّ تلك الصلات (صلة الأخلاق بالهيئات الجسمانيه المختلفه) ليست كليّه، فهنالك العوامل الأخرى المؤثره في روحه الإنسان وخلقها بحيث يغلب تأثيرها أحياناً ويربك العلاقة السابقه؛ مثلاً- خلق الأيب والأيم وطبعهما، وتأثير المناخ المحلى والتعامل مع مختلف الأشياء حسب العمل والمهنه وأمثال ذلك، من شأنه التأثير في خلقيات الإنسان فيربك أحياناً كليه صلات علم معرفه الهيئه.

على كلّ حال، فما ورد في كلام الإمام عليه السلام آنفاً إشاره إلى جانب من علاقته الروح بالجسد ذكره على سؤال بعض أصحابه بشأن اختلاف روحيات الناس، وما مر علينا بالطبع مبدأ كلى ولا يخلو من استثناء.

ومن هنا يتضح ما يرى من مطالب في بعض الروايات على خلاف ما ذكر، على أنّه من تلك الاستثناءات كالحديث النبوى القائل «أُطْلِبُ الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ»^(١).

ص: ٣٩٧

١- (١) وسائل الشيعه، ج ١٤، ص ٣٧، ح ٤.

فى حىن ورد فى بعض الرواىات ضمن خطبه للنبى الأكرم صلى الله عله و آله أنه قال: «أَيْهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمَنِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خَضْرَاءُ الدَّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَتَبَتِ الشُّوءِ» (١).

٢. الاختيار وصله الروح بالجسد

السؤال الآخر الذى ىرد هنا: إننا إن قبلنا العلاقه بين ملوحه التربه وحلاوتها وطبىعه الإنسان وإرتباط الهىئات الجسمانيه بخلقيات البشر، فنتىجه ذلك لىس للأخيار قدره إتيان المساوى، ولا السيئين إتيان المحاسن وهذا هو مذهب الجبريه، والمعلوم على هذا الأساس إنكار الثواب والعقاب وعبثه بعثه الأنبياء، وبالتالى نفى عداله الله تبارك وتعالى.

ولا- تبدو الاجابه على هذا السؤال صعبه، فلىس هناك من يزعم أن الكىفيات الجسمانيه عله تامه لتلك الخلقيات فى الطبىعه البشرىه، وأنها مجرد أرضيه مساعده. ويمكن اىضاح ذلك بهذا المثل. فالكل يقول بتأثير الوسط الأسرى أو البيئه على أعمال الإنسان، إلّا أن ذلك لا يعنى سلب إرادته الإنسان، وما ذلك سوى أرضيه، ومن هنا نرى الكثير ممن تربى فى اسره سيئه لكنهم كانوا اناساً صالحين ومؤمنين. وبالعكس نرى بعض الأفراد السيئين ممن تربى فى وسط صالح، بعباره أخرى، فإنّ الجزء الأخير للعله التامه إرادته الإنسان التى تؤدى إلى التأثير الغائى.

كما تجدر الإشاره إلى أنّ من عاش وسطاً سيئاً وأجواء خلقيه شاذه وسلك الطريق السليم فإنّ أجره وثوابه يفوق نظيره الذى يعىش وسطاً وبيئه صالحه.

ص: ٣٩٨

قَالَ وَهُوَ يَلِي غُسْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَجْهِيْزَهُ (١)

نظره إلى الخطبه

أورد الإمام عليه السلام كما قيل، هذا الكلام حين ولى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه، كلمات ملتاعه تثير الحزن وتعكس غايه لوعه الإمام عليه السلام آنذاك، فى حين ترك الآخرون جسد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله واجتمعوا فى سقيفه بنى ساعده ليتأمروا على سلب خلافة النبى صلى الله عليه وآله.

ص: ٣٩٩

١- (١) سند الخطبه: رواه عدد ممن عاش قبل السيد الرضى ومنهم: أ) محمد بن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥) أى قبل ولاده السيد الرضى ب. ١١٤ سنة فى «الأمالى». ب) أبو اسحاق إبراهيم الزجاج (المتوفى سنة ٣١١ أى ٤٨ سنة قبل الرضى فى كتابه «الأمالى» عن بريد المبرد. ج) رواها الشيخ المفيد فى كتابه «الأمالى» بسنده عن ابن عباس. قال صاحب «مصادر نهج البلاغه»: لا شك أنّ هذا كلام على عليه السلام وإن نسبت لغيره فى زهر الأداب فذلك من الوهم (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨٢-١٨٣).

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبِيِّ وَالْإِنْبِيَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاوَاتِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَذْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً- وَالْكَمِيدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدُّهُ، وَلَا يُسَيِّطِطُّعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ.

الشرح والتفسير: عظم مصيبه رحيل النبي صلى الله عليه وآله

خاطب عليه السلام الجسد الطاهر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبِيِّ وَالْإِنْبِيَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاوَاتِ».

الجملة «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي». المتداوله لدى العرب عند ابداء الحب لأحد، إشاره إلى أني أفديك بأبي وأمي أعزّ أعزائي، لعل أب القائل وأمه ليسا على قيد الحياه حين قوله ذلك الكلام كما الأمر كذلك في هذه الخطبه، فذلك لا يقدر بمفهوم الكلام، فلهذه العبارة جانب كنائي ويشير إلى أنّ المخاطب عزيز إلى درجه أنّ الإنسان يفديه بأعزّ خاصته.

ورد في بعض الروايات أنّ هذه العبارة عقوق للوالدين إن كانا على قيد الحياه ومؤمنين (1).

ص: ٤٠١

١- (١) وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٥٣، ح ١.

إلا أن ظاهر هذه الرواية حين لا يكون المخاطب النبي أو الإمام، لأن هذه العبارة إزاءهم مدعاه للفخر فضلاً عن أنها ليست إهانه وعقوق.

ومن هنا كثيراً ما تشاهد هذه العبارة في أغلب الزيارات، في حين أن أغلب والدى الزائرين أحياء.

المفردات «نبوه»، «إنباء» و «أخبار السماء» ذات مفاهيم مختلفة: فالنبوه إشارة إلى مقامه صلى الله عليه وآله، والإنباء أسلوب النبي العملي في إبلاغ الرساله والوحي، وأخبار السماء تلك التي لا ترتبط بالمسائل الشرعيه من قبيل الأخبار الغيبية والحوادث المستقبلية والملاحم.

على كل حال العبارات المذكوره أخبار صريحه في خاتمه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ودليل بين على عدم نزول الوحي بعد النبي صلى الله عليه وآله وقد انقطعت هذه النعمه العظيمه التي عمّت العالم في ظل وجود النبي برحيله، وهذا سرّ حزن أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم أشار عليه السلام إلى أمرين فقال: «حَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسْلِيًّا (١) عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءً».

كيف لا- تكون مصيبه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شامله وهو رحمه للعالمين ووسيله نجاه البشريه من مختلف أنواع الانحرافات، فهو للجميع ويهتم بالجميع، فلا بد أن يبكيه الجميع في مصابه.

ومن جانب آخر أن المصاب يبدو أجلاً وأعزّ كلما كان الفقيد أعظم قدراً وأثراً، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله أكرم إنسان وأعز مخلوق كانت مصيبته تفوق جميع المصائب، وبعبارة أخرى تهون سائر المصائب إزاء مصابه.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين مصابه بالزهراء عليها السلام فخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلْدِي إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِ لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزُّ (٢)».

ص: ٤٠٢

١- (١). «مسلياً» من ماده «سلو» على وزن «غلو» الهدوء بعد الشده.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٢.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنْ اصْتَبَتْ بِمُصِيبِهِ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي مَالِكَ أَوْ فِي وَلَدِكَ فَادْكُرْ مُصَابِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ فَإِنَّ الْخَلَائِقَ لَمُصَابُوا بِمِثْلِهِ قَطُّ» (١).

ثم أشار عليه السلام إلى فضيه أخرى فقال: «وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا (٢) عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَالْكَمْدُ مُحَالِفًا، وَقَلَّا لَكَ!».

وبالنظر إلى أنّ شوون، جمع شأن التي تعنى هنا غدد الدموع فمراد الإمام عليه السلام لولا أنّك نهيتنا عن البكاء والجزع لبكيناك حتى ينضب ماء عيوننا، لكننا تعلمنا منك الصبر والجلد، فقد بكيت ولدك إبراهيم حين توفي لكنك لم تجزع، وهذا ما فعلته بمصاب عمك حمزه ومن هنا علمتنا الصبر.

و «المماطل»: المدين الذي يؤخر أداء الدين، ويقال: داء المماطل للمرض الذي لا علاج له والذي يشبه ذلك المدين.

و «الكمد»: الحزن الباطني، والمحالف: من يعاهد غيره ويفى بالعهد، فكمد محالف بإشاره إلى الحزن الباطني الثابت.

ويشير ضمير المثني في (قلّا لك) إلى ذلك الداء والكمد؛ أي أنّ ألم مصابك وحزنه الدائم لا شيء أيضاً إزاء عظمه مصيبتك.

ثم قال عليه السلام: «وَلِكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدُّهُ، وَلَا يُسَدِّ تَطَاعُ دَفْعُهُ!». فالبكاء والجزع لا يجدي نفعاً ولا بدّ من الصبر والرضا برضى الله.

ثم عبر في الختام أيضاً عن حبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتعلقه به فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ (٣)».

ومفهوم هذه العبارة أنّ روحك الطاهرة عرجت إلى الملكوت الأعلى جوار الربّ. فادع لنا هناك واسأل الله قضاء حوائجنا واستحضرنا على الدوام.

ص: ٤٠٣

١- (١) الكافي، ج ٣، ص ٢٢٠، ح ٢.

٢- (٢) «انفدنا» من «النفاد» انتهاء الشيء و «انفاد» مصدر باب افعال الانتهاء.

٣- (٣) «البال» الخاطر والقلب والحال.

١. البكاء على الأعزّه

يستفاد من هذه الخطبه والروايات، عدم المنع من البكاء على مصاب الأعزّه.

والمنع يقتصر على الجزع والجحود، فقلب الإنسان بؤره العواطف والتي تؤثر عليه سيما حين تشتد. فإذا فقد عزيزاً اضطرب القلب وجرت الدموع ويختنق الإنسان بعبرته وينطلق اللسان لبيان شوقه ولهفته للعزيز الفقيده، هذه الأمور جميعاً ليست ممنوعه، بل ممدوحه شريطه اقترانها بالصبر، والممنوع أن يجزع الإنسان ويضرب رأسه بالجدار ويخمش وجهه وينطلق لسانه بالباطل.

ففى الخبر: لما بلغ النبي صلى الله عليه وآله استشهاد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثه (فى موقعه مؤتة) بكاهما وقال: «إِنَّهُمَا كَانَا يُحَدِّثَانِي وَكُنْتُ آنَسُ بِهِمَا فَمَاتَا مَعًا»^(١).

كما ورد فى غزوه احد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما رجع إلى المدينه وكان يسمع كل بيت يبكى قتيله سوى بيت عمه حمزه، غضب وقال: «وَلَكِنْ حَمَزَةٌ لِأَبَوَاكِي لَهُ».

فلما سمع أهل المدينه ذلك أقسموا أن لا يبكوا أحداً حتى يبكوا على حمزه. وقد استمرت هذه السنه حتى اليوم (حين حديث الإمام الباقر عليه السلام)^(٢).

كما وردت عن المعصومين عليهم السلام عدّه روايات فى النهى عن الجزع، ومنها أن أميرالمؤمنين على عليه السلام قال: «إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَا جُورَ وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَعْدُورٌ»^(٣).

لا- ينبغى أن ننسى أن الجزع ناهيك عن كونه نوعاً من جحود الله، فهو ينطوى على آثار سيئه تصيب أعصاب الإنسان وتسوقه أحياناً إلى حد الجنون.

ص: ٤٠٤

١- (١) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٧٧، ح ٥٢٧.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ١٨٣، ح ٥٥٣.

٣- (٣) مستدرک وسائل الشيعه، ج ٢، ص ٤٣١، ح ٤٠.

٢. تجهيز النبي صلى الله عليه وآله

لا- خلاف في يوم وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث أجمعوا على وفاته يوم الاثنين ومشهور مذهب أهل البيت عليهم السلام أنه دفن بعد ثلاثه أيام.

ورغم ما يستفاد من الروايات باستحباب التعجيل في دفن الميت؛ إلا أن القضية تختلف حين يكون المتوفى شخص كرسول الله صلى الله عليه وآله ويريد المسلمون أن يصلوا عليه فوجاً فوجاً ويودعوه.

وكما يستفاد من الأخبار أنهم كانوا يدخلون عليه عشره عشره ويصلون عليه، ثم دفن هناك في حجرته، حيث كان لكل رأيه في دفن النبي صلى الله عليه وآله فمنهم من قال: في مكة، وآخر المدينة (في البقيع أو في صحن المسجد) فقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيًّا إِلَّا فِي أَطْهَرِ الْبِقَاعِ فَيَتَبَعِي أَنْ يُدْفَنَ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا».

فَاتَّفَقَتِ الْجَمَاعَةُ عَلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدُفِنَ فِي حُجْرَتِهِ (١). كما قيل فيمن دخل القبر أنه دخل على السلام والفضل ابن العباس وشخصان آخران (٢).

على كل حال، فمما لا شك فيه أن تجهيز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بما في ذلك غسله وتكفينه والصلاة عليه كان على يد على عليه السلام بينما سارع الآخرون إلى سقيفه بنى ساعده وانهمكوا بالحديث عن الخلافة حتى قيل إن معزى السقيفه لم يوفقوا للصلاة على النبي صلى الله عليه وآله. وللوقوف على المزيد بهذا الشأن يراجع كتاب بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٥٠٤.

ص: ٤٠٥

١- (١). تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢-٣.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٢٥.

اقتَصَّ فِيهِ ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ لِحَاقُهُ بِهِ (١)

نظره إلى الخطبه

لا حاجة هنا لشرح الخطبه وفق نظره كون كلامه عليه السلام غايه في القصر والايجاز.

ص: ٤٠٧

١- (١) سند الخطبه: رواه ابن الأثير في «النهايه» في ماده «وطأ» «مصادر نهج البلاغه» ج ٣، ص ٢٣٤.

فَجَعَلْتُ أَتْبِعُ مَا خَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأَ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ.

الشرح والتفسير: ذكر الحبيب

هذا الكلام كما ذكره المرحوم السيد الرضى جانب موجز من خطبه مفصله للإمام عليه السلام فضله الرضى لما رأى فيه من ظرافه فى عباراته من حيث الفصاحة والبلاغه. ويفهم من كتاب «تمام نهج البلاغه» أنّ هذا الكلام كان فى خطبه بين فيها الإمام مكانته من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وشرح فى كلّ جانب منها صلته الوثيقه بالنبى صلى الله عليه وآله ولطفه به والذى تتضح فيه تماماً مكانه أهل البيت عليهم السلام(1).

وهذا الكلام - كما أشرنا آنفاً - فى هجره النبى صلى الله عليه وآله إلى المدينه بعد ليله المبيت وبقاء الإمام فى مكه لأداء ودائع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الناس وانطلاقته خفيه إلى المدينه بعيداً عن أنظار خصوم الدعوه الإسلاميه.

فالإمام عليه السلام الذى عاش تلك المرحله العصبيه إبان فراق زعيمه وأستاذه العزيز كان يعانى من فراقه الذى شقّ عليه وكلامه هنا يعكس ذلك حيث قال: «فَجَعَلْتُ أَتْبِعُ مَا خَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأَ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ».

يشير هذا الكلام إلى مدى لوعه الإمام عليه السلام على فراق النبى صلى الله عليه وآله خلال تلك الفتره الوجيزه، فلا ينفك عن ذكره ويفصح عن مدى لوعته كمن فقد أعزّ أعزّته؛ لكن لا حيله، فلا بدّ أن يبقى ويؤدى إلى الناس ودائعهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله التى ائتمنوه

ص: ٤٠٩

١- (١) كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٢٤٦، خطبه ١٩ (وردت هذه العبارة فى تمامه الخطبه، ص ٢٤٩).

عليها، فانطلق بعيداً عن أعين الأعداء إلى المدينة، ويستفاد من التواريخ الإسلاميّة أنّ جروحاً بليغاً أصابت جسد الإمام إثر إبطاره بالحجارة ليله هجره النبي وقد نام على فراشه؛ لكنّه تناسى كل تلك الجراح وكان لا يفكر سوى بحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال المرحوم السيد الرضى فى ختام هذا الكلام:

إنّ قوله عليه السلام: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي رَمَى بِهِ إِلَى غَايَتِي الْأَيَّازِ وَالْفَصَاحَةِ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطِي حَبْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَكُنْتُ عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ.

فللإمام عليه السلام نكته ظريفه ودقيقه فى العبارة «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» والتي تابعها السيد الرضى وهى أنّ الإمام عليه السلام جعل ذكر النبي صلى الله عليه وآله كالطيف الجميل الساحر الذى يعطر الأجواء، وكان الإمام يعيش ذلك الجو ليله ونهاره، كمن يقول لآخر: إنّ ذكرك هو بيتى وحياتى، ذكرك أزقه مدينتى.

تأمل: قصه الهجره

إنّ قصه هجره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أروع القصص التاريخيّة فى الإسلام، وذلك عندما أحس رؤوساء قريش بالخطر المغدق بهم إثر دعوته الشريفه، وخصوصاً لو استمرت هذه الدعوه بين أوساط الناس وبهذه الصوره الجديّه، فيؤدى لا شك إلى انكسار شوكتهم وقدرتهم وتحطم أوثانهم بل وتتحول مكه إلى سجن كبير لهم، وعليه اختاروا طريق القضاء عليه وعلى دعوته الرساليه، اختاروا فى التصدى لدعوته أحد الطرق الثلاثه، إمّا يسجنوه، أو ينفوه من مكه أو يقتلوه وهذا ما أشارت إلى الآيه ٣٠ من سوره الأنفال.

ولكن أجمعوا على قتله ليلاً- لأنّهم محصوا هذا الرأى واتفقوا عليه، ولكنهم واجهوا مشكله بنى عبدمناف فى طلب الثأر له وبذلك تقع فتنه عظيمه وصراع كبير

بين قبائل مكة، ولهذا دعوا جميع القبائل ورؤوساء قريش وثبت رأيهم على على أن يضربوه بأسيا فمهم من أيدى جماعه من بطون مختلفه ليضيع دمه فى بطون قريش فلا تطلبه نبو عبدمناف وبالتالي يرضوا بالديه، فحاصروا بيت النبى صلى الله عليه و آله وانتظر الصبح إلى أن ينجلى ظلام الليل، ثم يحملوا عليه حملة رجل واحد.

فخرج النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأمر من الله تعالى من محاصره القوم بصوره إعجازه ورحل ليلاً إلى المدينه (ولكن عن طريق غير طريق مكة والمدينه حتى لا تستطيع الأعداء اقتفاء أثره) وأمر على بن أبى طالب عليه السلام أن يبيت فى فراشه وذلك لأنهم كانوا يترصدون البيت فعابنوا فيها شخصاً مسجى بالبرد الحضرى الأخضر، فلم يشكوا أنه هو فرصدوه ورمه ببعض الأحجار ليطمئنوا على أنه لازال فى فراشه.

ولما أصبحوا دخلوا عليه الدار وسلوا بسيوفهم وحملوا عليه ظناً منهم أنه رسول الله صلى الله عليه و آله وأحاطوا بفراشه وفجأه وجدوا علياً عليه السلام فى فراشه فلما دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ فقال عليه السلام: لا أدرى أو رقيباً كنت عليه؟

فعندما فشلت خطتهم غضبوا غضباً شديداً لأنهم انتظروه إلى الصباح وألقوا اللائمه على أبى لهب الذى منعهم من الهجوم ليلاً (لأن الهجوم ليلاً كان عندهم مع وجود الأطفال والذرارى عيباً كبيراً).

وتحرك النبى من مكة جهه الشمال إلى المدينه بدلاً عن الجنوب ووصل إلى جبل غار ثور واختفى فيه حتى لا تصل إليه أيدى الأعداء والمشركين، فخرج رجال قريش تبحث عنه فى أطراف مكة ولكنهم فشلوا ورجعوا إلى مكة دون أن يعثروا على رسول الله صلى الله عليه و آله وقد خرج من أيديهم وهاجر إلى المدينه(1).

ص: ٤١١

١- (١) انظر للمزيد من الاطلاع: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد فى شرح ذيل الخطبه، وتفسير الإمام الحسن العسكرى عليه السلام وكتاب «فروغ أبديه» لآيه الله جعفر السبحانى.

فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْعَمَلِ (١)

نظرة إلى الخطبه

يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغه» أنّ هذه الخطبه - جانب من الخطبه الغراء - تعدّ من عجائب خطب الإمام عليه السلام حيث شيع جنازةً ووّسد الميت في اللحد وكان أهله يبكوه فخطب تلك الخطبه (٢).

وتتألف الخطبه في الواقع من قسمين؛ الأوّل: عن المسارعه في العمل واستغلال الفرص، فلعل الموت يفاجئ الإنسان وتفوت الفرصه ويغلق باب التوبه.

والقسم الثاني: وصايا في مجاهده هوى النفس وكيفيه الانتفاع بفرص الحياه، فالخطبه بمجموعها ذات فائده قصوى لسالكي سبيل السعاده.

ص: ٤١٣

١- (١) سند الخطبه: كل ما ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغه» بالإضافة إلى «نهج البلاغه» في سند الخطبه أنّ الآمدى روى العبارة الأولى من الخطبه في «غررالحكم» باختلاف ويفيد أنّه كان لديه مصدر آخر ولو كان مصدره الوحيد «نهج البلاغه» لما كان ذلك الاختلاف (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨٥).

٢- (٢) شرح الخطبه الغراء طبق نقل السيد الرضى ذيل الخطبه ٨٣.

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسَيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْتُمَدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ، وَيَنْقُضِيَ الْأَجَلَ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَضَعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

الشرح والتفسير: اغتنام الفرص

شجّع الإمام عليه السلام بهذه العبارات الموجزة العميقة المعنى جميع مخاطبيه على اغتنام الفرص وحذر من أن هذه الفرص عابره زائله عاجلاً أم أجلاً، ولا بد من السعي قبل اليأس والحسرة.

فأشار في كيفية اغتنام الفرص إلى خمسة أمور:

قال في الأول: «فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ».

والعبارة «نَفْسِ الْبَقَاءِ» إشاره لطيفه إلى أن البقاء كأنما يشبه في الدنيا بالكائن الحي الذي يتنفس ولا بد من استغلاله قبل أن ينقطع نفسه.

وقال في الثاني: «وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ (١)».

إشاره إلى إمكانية الإضافة والإصلاح والتعديل ما دامت الصحيفة مفتوحة.

وفي الثالث: «والتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

إشاره إلى أن العوده قائمه ويمكن إطفاء نيران الذنوب المستعرة بماء التوبه مادامت أبوابها مفتوحة وتحصيلها واسع، فيلجأ الإنسان إلى الله ويفصح عن ندمه

ص: ٤١٥

ويسكب الدموع التي تفرزها التوبه النضوح والخالصه فيطفئ بها نيران الذنوب.

ورد في «الكافي» عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنه قال: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيَّ الشَّيْطَانَ وَأَجْرِيَّتَهُ مِنِّي مَجْرَى الدَّمِ، مَا جَعَلْتَ لِي شَيْئًا، فَقَالَ: يَا آدَمُ جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَن هَمٌّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بِسَيِّئِهِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ عَلَيْهِ سَيِّئَهُ، وَمَنْ هَمٌّ مِنْهُمْ بِحَسَنِهِ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَهُ فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشْرًا، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَن عَمِلَ مِنْهُمْ سَيِّئَهُ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ غَفَرْتُ لَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَهُ التَّوْبَةَ - أَوْ قَالَ بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ - حَتَّى تَبْلُغَ النَّفْسُ هَذِهِ، قَالَ: يَا رَبِّ حَسْبِي» (١).

وقال في الأمر الرابع والخامس: «وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمَسِيءُ يُزَجَّى».

إشاره إلى الدعوه والأمل الذي تضمنته الآيه الكريمة، قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢).

وقال تعالى: «وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» (٣).

وقال في العبارة السادسة والسابعة والثامنة: «قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ (٤) الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ (٥)، وَيَنْقَضِيَ الْأَجْلُ».

نعم، فما دام هنالك العمر فالعمل قائم والمهله مبدوله والفرصه سانحه وكل ذلك يفنى حين مغادره الإنسان لهذا العالم.

وقال في التاسعه والعاشره: «وَيُسَدُّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَضَعَدُ الْمَلَائِكَةُ».

ص: ٤١٤

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٤٤٠، ح ١.

٢- (٢) سورة الزمر، الآيه ٥٣.

٣- (٣) سورة الزمر، الآيه ٥٤.

٤- (٤) «يخمد» من «الخمود» على وزن «جحود» تعنى فى الأصل إنطفاء النار. ثم اطلقت على انتهاء كل شىء ومنهائيه الحياه.

٥- (٥) «مهل» جمع «مهله» وتستعمل هذه الكلمه عاده فى أمور الخير.

فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَنٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ. امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ. امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: كيفية اغتنام الفرصه

وعظ الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الخطبه بعشر عبارات موجزه وعميقه المعنى، الجميع باغتنام الفرص قبل فوات الأوان.

ثم ذكر فى عشر أخرى طرق كيفية الاغتنام لتلك الفرص، فالقسم الأول فى الواقع وعظ وتحذير والثانى أسلوب للعمل. قال: «فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ»، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ وَمِنْ فَنٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ».

تكرر الفعل الماضى (أخذ) فى هذه العبارات الأربع مرتين؛ لكنّه عنى الأمر. فقد أمر عليه السلام فى العبارة الأولى بضروره استفاده كل إنسان من رصيد وجوده لإدخار الحسنات، حيث وهب الله الإنسان إمكانات وطاقات إن وظفها فى المسار الصحيح وفرت له أسباب السعاده.

ورد عنه عليه السلام فى «غررالحكم» أنه قال: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا» (١).

وقد ورد نفس هذا المعنى فى العبارة الثانية بصيغته أخرى، «وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ».

وأشار فى العبارة الثالثة والرابعة إلى إمكانية التزود من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية ومن هذه الحياه الزائلة إلى تلك الخالده، ثم واصل كلامه قائلاً: «أَمْرٌ خَافَ اللَّهُ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ (١) إِلَى عَمَلِهِ».

حيث بين عليه السلام فى هاتين العبارتين ما ذكره فى العبارات السابقه بصيغته أخرى ووعظ الجميع بالانتفاع بهذه المهله التى منحهم الله ضروره خشيته والابتعاد عن التقصير.

ثم قال: «أَمْرٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ».

فقد شبه عليه السلام نفس الإنسان بالدابه الجموح إن لم يكن زمامها كما ينبغى أقحمته فى وادى المعصيه وحرفته عن مسار الطاعه عاده ما يستفاد من وسيلتين للسيطره على الدابّه الجامحه؛ إحداهما، اللجام وهو حبل يوضع فى فم الدابه ويوثق ليكون بيد راكب الدابّه، والزمام، الذى يوضع فى أنفها ويمسكه الراكب بحبل، ولما كان فم الدابه وأنفها من المواضع الحساسه فإنه يمكن من خلالها إيقاف الدابّه أو سوقها إلى جهه من خلال تحريكه إلى تلك الجهه.

والعبارة «لجام» و «زمام» إشاره إلى ضروره تهيئه اللجام والزمام الذى يليق بالنفس الجامحه بحيث يمكن بواسطته صدها عن الذنب والمعصيه وسوقها إلى طاعه الله، وما أكثر الأفراد الذين يلجمون أنفسهم بلجام ضعيف وهزيل بحيث يفقدون هذا اللجام حين إثارة الشهوات فيقارفون أنواع المعاصى.

ولكن ما هى الوسيله اللازمه للسيطره على النفس؟ يمكن الظفر بالجواب فى ما ورد من كلمات الإمام على عليه السلام فى «غررالحكم» و «بحار الأنوار». فقد ذكر عليه السلام أنّ

ص: ٤١٨

١- (١) «منظور» الممهل من ماده «نظر» التى لها معنيان: الأول الالتفات إلى الشىء والثانى الامهال.

القناعه عامل إصلاح النفس فقال: «أَعُوذُ شَيْءٍ عَلَى صِلَاحِ النَّفْسِ الْقِنَاعَةُ» (١).

وفى موضع آخر عدّ التعصب وسيله لإصلاحها فقال: «إِذَا صَعِبَتْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَاصْعَبْ لَهَا تَذَلُّ لَكَ» (٢).

ص: ٤١٩

١- (١) غرر الحكم، ح ٨٩٨٤.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٤٨٢٠.

فى شَأْنِ الْحَكَمَيْنِ وَدَمِّ أَهْلِ الشَّامِ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة فى الواقع من قسمين، ذم الإمام عليه السلام فى القسم الأول أهل الشام وندعتهم بالجفاه القساة الذين ينبغى أن يؤذّبوا ويربّوا ويخضع القاصر منهم لولايه العالم، إنهم ليسوا من المهاجرين والأنصار (العارفين بتعاليم الإسلام والحريصين على بقائه).

وأشار عليه السلام فى القسم الثانى إلى قضيه التحكيم فبيّن أنّ أهل الشام اختاروا لهذه

ص: ٤٢١

١- (١) سند الخطبة: قال صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغه»: «ذكرنا مصادر هذه الخطبة فى ذيل الخطبة ٢٦ والخطبة فصل من كتاب كتبه الإمام وأمر بقراءته فى مختلف المناطق» وإذا عدنا إلى مصادر الخطبة (الخطبة ٢٦) نجده قال هناك: هذه الخطبة جزء من خطب طويله اقتطف السيد الرضى بعضها وذكرها جماعه من قبل السيد بما يختلف مع ما ذكره ومنهم «إبراهيم بن هلال الثقفى» فى كتاب «الغارات»، «ابن قتيبه» فى كتاب «الإمامه والسياسه»، «الطبرى» فى كتاب «المسترشد» و «الكلىنى» فى كتاب الرسائل وقال هناك: «الخطبة ٢٣٦ هى عندنا جزء من الخطبة ٢٣٨ والدافع من رساله أنه سئل عن سبقه من الخلفاء. فكتب لهم هذه الرساله وأوصاهم برص صفوفهم» (الغارات، ج ١، ص ٣١٢؛ الإمامه والسياسه، ص ١٣٥ و ١٧٦؛ المسترشد، ص ٤٢٦) (مصادر نهج البلاغه، ج ١، ص ٣٩٠).

القضية عمرو بن العاص وهو أفضل من يحقق أطماعهم ومآربهم، واخترتم أبو موسى الأشعري أبعدهم عن هدفكم، وكان عليكم أن توجهوا قبضه ابن عباس إلى صدر عمرو بن العاص لا بواسطة الضعفاء كأبي موسى الأشعري.

ص: ٤٢٢

جُفَاهُ طَعَامٌ، وَعَعِيدٌ أَقْرَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتَلَقُّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَتَّبِعِي أَنْ يُفَقِّهَ وَيُؤَدِّبَ، وَيُعَلِّمَ وَيُدْرِبَ، وَيُؤَلِّيَ عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ.

لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

الشرح والتفسير: أتباع معاويه

خاض الإمام عليه السلام هنا كما ذكرنا في ذم أهل الشام وذكر صفاتهم التي تكشف عن مدى جهلهم وخبثهم فاستهل ذلك بخمس من صفاتهم قائلاً: «جُفَاهُ (١) طَعَامٌ (٢)، وَعَعِيدٌ أَقْرَامٌ (٣)، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ (٤)، وَتَلَقُّطُوا (٥) مِنْ كُلِّ شَوْبٍ (٦)».

ثم أضاف عليه السلام: «مِمَّنْ يَتَّبِعِي أَنْ يُفَقِّهَ وَيُؤَدِّبَ، وَيُعَلِّمَ وَيُدْرِبَ (٧)، وَيُؤَلِّيَ عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ».

واختتم عليه السلام قائلاً: «لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا (٨) الدَّارَ وَالْإِيمَانَ».

ص: ٤٢٣

- ١- (١). «جفاه» جمع «جافٍ» غليظ وفظّ جاهل.
- ٢- (٢) «طعام» جمع «طغامة» الأوغاد والأوباش والأشرار وترد أحياناً بمعنى المفرد.
- ٣- (٣) «أقزام» جمع «قزم» على وزن «خشن» الأفراد الأراذل.
- ٤- (٤) «أوب» الناحية.
- ٥- (٥) «تلقطوا» من ماده «تلقط» جمع الشيء من هنا وهناك.
- ٦- (٦) «شوب» خلط الشيء بآخر. ولها معنى اسمي؛ أي الأشياء المخلوطه والمراد في العبارة معناها الاسمي.
- ٧- (٧). «يدرّب» من «التدريب» التمرين والتعويد لتعلم الشيء.
- ٨- (٨). «تبوّأ» من «التبوّأ» السكن في مكان بقصد البقاء والدوام من ماده «بوّأ» بمعنى تساوى أجزاء المكان.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا الكلام بعض كتاب كتبه الإمام عليه السلام ليطلع المسلمين على جميع الأحداث في عصره وما سبقه ليكون تعليمات تبعث لجميع المناطق والتعريف بأهل الشام وأتباع معاوية الذين تمردوا على إمام المسلمين وأججوا نيران صقّين وإيضاح سوء نيتهم وكيفيه اجتماعهم.

تأمّل: جهل أهل الشام

ما أورده الإمام عليه السلام بشأن جهل وحمق عسكر معاوية (رغم كثره الأفراد الداعين في أهل الشام) لمن القضايا التي تؤيدها سيره معاوية ومن ذلك هاتان الواقعتان اللتان نقلهما المسعودي في «مروج الذهب».

الواقعة الأولى: إنّ رجلاً من أهل الكوفة على بعير له قدم إلى دمشق في حال منصرفهم عن صقّين فتعلّق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت منّي بصفّين، فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون أنّها ناقته فقضى على الكوفيّ وأمره بتسليم البعير إليه.

فقال الكوفيّ: أصلحك الله إنّّه جمل وليس بناقه.

فقال معاوية: هذا حكم قد قضى، ودسّ إلى الكوفيّ بعد تفرّقهم فأحضره وسأله عن ثمن البعير فدفع إليه ضعفه وبرّ وأحسن إليه وقال له: أبلغ عليّاً أنّي اقاتله بمائه ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقه والجمل.

الواقعة الثانية: ولقد بلغ من أمرهم من طاعتهم له (لمعاوية) أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صقّين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال. (وقبل الناس وصلّوا الجمعة في يوم الأربعاء وهذا كان من جهل أهل الشام)(١).

كما ورد في الحديث أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)، وقد

ص: ٤٢٤

١- (١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢ مطابق لما نقله المرحوم العلّامة الأميني في الغدير، ج ١٠، ص ١٩٥.

شهد عمار صفين مع علي عليه السلام حتى قتل، فلما اجتمع بعض الصحابه عند قتل عمار، وأن معاويه هو وأصحابه هم الفئه
الباغيه الذين قتلوا عمّار، قال عمرو بن العاص:

إنّ علياً هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته(1).

والعجيب أنّ البعض قبل هذا الرأى.

ص: ٤٢٥

١- (١) الغدير، ج ١٠، ص ١٩٦.

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشَتَّيْمُوا سَيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ.

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهْلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى؟

الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه

خاض الإمام عليه السلام في القسم السابق في التعريف بأهل الشام الذين اجتمعوا حول معاوية ليصفهم بأنهم جهال وأوباش وأشرار، وقال هنا رغم جهلهم وانحطاطهم لكنهم تفوقوا عليكم في الجانب السياسي، فقد اختاروا للتحكيم من يضمن مصالحهم اللامشروعه (عمرو بن العاص) بينما اخترتم (أبو موسى الأشعري) من يتحرك ضد مصالحكم ومصالح المسلمين، فهلموا وتلافوا أخطاءكم: «أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ».

ثم خاض عليه السلام في التعريف بأبي موسى الأشعري وركز على آخر فتنه دون الإشارة إلى سوابقه السيئه فقال: «وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ:

«إِنَّهَا فِتْنَةٌ»، فَقَطَّعُوا أَوْتَارَ كُمْ (١)، وَشِيمُوا (٢) سُيُوفَكُمْ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ».

الطريف ما أورده المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغه عن سويد بن غفله أنه قال: كنت مع أبى موسى الأشعري على شاطئ الفرات فى خلافه عثمان فروى لى خبراً عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: سمعته يقول: «إِنَّ بَنَى إِسْرَائِيلَ اخْتَلَفُوا فَلَمْ يَزَلْ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ حَتَّى بَعَثُوا حَكَمِينَ ضَالِّينَ ضَلًّا وَأَضَلًّا مَنْ اتَّبَعَهُمَا»، فقلت له:

احذر يا أباموسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصى هذا (٣).

ويريد بذلك أنه لا يقبل التحكيم ويتبرأ منه، ولكنه قبل وحكم وأضل الناس مع عمرو ابن العاص، وبذلك صدق رسول الله صلى الله عليه و آله فى كلامه هذا وما تنبأ به بإعجاز عن قوله (ضالين ضللاً وأضلاً من أتبعهما).

وعقب كل هذا التحليل الدقيق اقترح على صحبه اقتراحاً نافعاً، وقال: «فَادْفَعُوا فِي صِدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بَعِيْدَ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهْلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ (٤) الْإِسْلَامِ».

ثم اختتم عليه السلام كلامه بهدف خلق الدافع لديهم وإثارة حسهم الدينى والإنسانى فقال: «أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى وَإِلَى صِفَاتِكُمْ (٥) تُرْمَى؟».

ص: ٤٢٨

١- (١) «أوتار» جمع «وتر» على وزن «سفر» السهم الذى يجمع طرفاه كالقوس فإذا سحب تقوس أكثر فإن اطلق قذف إلى الأمام وقطع الأوتار هنا كناية عن عدم الاطلاق.

٢- (٢) «شيموا» من ماده «غيم» على وزن «عيب» سل السيف ووضع فى الغمد.

٣- (٣) ذكر هذه الروايه أولاً- ابن أبى الحديد فى الجزء ١٣، ص ٢١٥ فى شرح الخطبه، ثم ذكرها المرحوم ابن ميثم والعلامة التستري فى شرحهما لهذه الخطبه.

٤- (٤) «قواصى» جمع «قاصيه» الطرف والناحيه و «قواصى الإسلام» إشاره الى أطراف العراق والحجاز ومناطق أخرى تابعه لحكومته أمير المؤمنين على عليه السلام.

٥- (٥) «صفاه» مفرد وتعنى فى الأصل الحجر الصلد وتستعمل كناية عن القوه وفسرت بأرض الحياه التى ينظمها الإنسان.

حقاً لم يكن أبو موسى الأشعري الأبله من يسعه مواجهه الماكر عمرو بن العاص وكان أفضل من يسعه مواجهته رجل قوى وواع كابن عباس، إلا أن مؤامرات معاويه وبعض الخونه من بطانه الإمام عليه السلام حالت دون ذلك.

كتب الكاتب الإسلامى المصرى عبدالكريم الخطيب فى كتابه «على بن أبى طالب»: وكان الإمام قد أعد ابن عباس ليلقى عمرو بن العاص، ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه، وكان الأشعث بن قيس (المنافق) رأس الجماعه التى نازعت فى اختيار ابن عباس، والأشعث هو الذى مهّد التحكيم، وأكره هو وقومه علياً على قبوله.. ولا- شك أن الصله كانت قد توثقت بين معاويه والأشعث.

وهذا الذى سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب (على وبنوه) لطفه حسين فى شرح الخطبه ١٩، ج ١، ص ١٥٢: من أن الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف واختاروا الحكيمين سلفاً(١).

ثم ذكر المرحوم مغنيه جانباً آخر من كلام عبدالكريم الخطيب فى كتابه: «كان ابن العاص صاحب مصلحه فى أى خير يصيبه معاويه من التحكيم، لأنّ الصك بملك مصر فى يده.. وليس لابن عباس شىء أن خلصت الخلافه لعلّى، وهل لأحد مع على مطمع؟ إنّ كلّ الذين يعملون مع على يعملون لله لا له، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبه عليها ولا من الله، فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن؟ إنهم لا- يخشون إلا أن يرفع ابن العاص عن كيد مارد لا يفطن إليه إلا رجل أوتى مثل ما أوتى ابن عباس من ألمعيه وذكاء(٢). نهايه معركة صفين عن طريق رفع المصاحف على أسنه الرماح على هامش هزيمه جيش معاويه ومن ثم قضيه التحكيم، لمن أفجع حوادث التاريخ الإسلامى، وكانت معاناه الإمام عليه السلام ومصابه بذلك بما لا يمكن وصفه والذى حصل من قبل جماعه دنيويه بعينه عن الإيمان والتقوى(٣).

ص: ٤٢٩

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم مغنيه، ج ٣، ص ٣٦٢.

٢- (٢) . المصدر السابق.

٣- (٣) ورد المزيد بشأن الحكيمين فى ذيل الخطب ١٢٥، ١٢٧، ١٧٧.

يُذَكَّرُ فِيهَا آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

الخطبه في الواقع قسم واحد ومحورها فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم الرفيعه في الأُمَّه الإسلاميه وإدراكهم الصحيح للدين وبالتالي ضروره إتباعهم وعدم مخالفتهم.

ص: ٤٣١

١- (١) سند الخطبه: جاء في مصادر نهج البلاغه أنّ هذا الكلام جزء من الخطبه ١٤٥ (حسب ترقيمتنا ١٤٧) التي تبدأ بالعباره (فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله) حتى يقول: (فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل) وأوردها السيد الرضى منفصله. ورواها الكليني في «الكافي» باختلاف طفيف في بعض الكلمات كما ذكرت في آخرها بعض العبارات في «محاضرات الأدباء» للراغب الاصفهاني. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٦ و ١٧٧).

هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنِ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنِ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

وَهُمْ دَعَائِمُ الْأَسْلَامِ، وَوَلَاتِجُ الْأَعْتِصَامِ. بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَأَنْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنِ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنِ مَنِّبَتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَهُ وَرِعَايَهُ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ.

الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين

ذكر عليه السلام في هذه الخطبة الموجزة اثنتي عشره فضيله لأهل البيت عليهم السلام تثبت عظم منزلتهم وتسوق مخاطبيه لاتباعهم. وهى الصفات التى تستوعب فضائل الإنسانية وتنطوى على مواصفات القيادة.

قال فى الصفة الأولى والثانية: «هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ»، فقد شبه عليه السلام العلم والجهل هنا بكائنين حين وأن آل محمد يهبون العلم الحياه ويميتون الجهل وبعبارة أخرى هم روح العلم وعنصر موت الجهل.

وهذا هو الحديث المعروف الذى ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَهْلُ بَيْتِي كَالنُّجُومِ بِأَيْدِيهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»(١).

كما ورد فى روايه أخرى عن ابن عباس أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «النُّجُومُ أَمَانٌ

ص: ٤٣٣

١- (١) ورد هذا الحديث فى مصادر الفريقين فقد رواه الذهبى فى ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٨٢؛ ابن حجر فى لسان الميزان، ج ١، ص ١٣٦.

لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْغَزَقِ وَأَهْلِ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْأَخْتِلَافِ فَإِذَا خَالَفَتْهَا قَبِيلَهُ مِنَ الْعَرَبِ اخْتَلَفُوا فَصَارُوا حِزْبَ إِبْلِيسَ» (١).

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى فقال: «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصِيَمُهُمْ عَنْ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ».

تشير العبارة «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ» إلى علاقه وثيقه بين العلم والحلم، فالجاهل ليس حليماً وسرعان ما يغضب إزاء الأحداث المختلفه وما يطرح عليه من سؤال؛ أمّا العالم فحليم إزاء ذلك، وكذلك العلاقه بين الظاهر والباطن حيث إنّ حسن الظاهر فى الغالب والسلوك والتصرف يدلّ على حسن الباطن، وهكذا علاقه الصمت الذى يكشفه المنطق الحكيم وقد دلّت تجربه على أنّ من قلّ كلامه كان أكثر دقّه وصواباً فى الكلام كما ورد فى الحديث الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتًا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقَى الْحِكْمَةَ» (٢).

ثم قال فى الصفه السادسة والسابعه: «لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

ودليل ذلك واضح، فلهم من جانب مقام العصمه ومن جانب آخر الإحاطه التامه بأحكام الله والوحى والسنة، ومن كان كذلك فلا ينطلق خلاف الحق ولا يختلف فيه.

جاء فى الحديث النبوى المعروف: «عَلَيَّْ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَعَلَى لِسَانِهِ وَالْحَقُّ يَدُورُ حَيْثُ مَا دَارَ عَلَيٌّ».

وقرأ بتعبير آخر فى نفس الحديث قال صلى الله عليه وآله: «عَلَيَّْ مَعَ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ، وَالْحَقُّ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» (٣).

ونعلم أنّ أئمة العصمه من ولد على عليه السلام ورثه علمه، ومن هنا فإنهم لا يحدون

ص: ٤٣٤

١- (١) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٤٩.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ١، ص ١٥٤.

٣- (٣) روى المرحوم العلامة الأمينى هذين الحديثين بعبارات متفاوتة لكنها قريبه المعنى من مختلف مصادر العامه مثل: مناقب الخوارزمى؛ فرائد السمطين للحموينى؛ وربيع الأبرار للزمخشرى؛ والإمامه والسياسه لابن قتيبه. (الغدیر، ج ٣، ص ١٧٨ وما بعدها).

قط عن الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَفَضْلٌ مَا بَيْنَكُمْ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ» (١).

فكيف يمكنهم الاختلاف في الحق. فالاختلاف علامه الجهل، ومن كان عالماً بكل هذه الأمور يستحيل عليه الاختلاف.

ثم ذكر صفتهم الثامنة والتاسعة فقال: «وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَائِحُ (٢) الْأَعْتِصَامِ».

وهكذا فالدين كالخيمة وأوتادها آل محمد، وكما تنهار الخيمة إذا زالت الأوتاد، فإن نحينا آل محمد عن الإسلام وقرأناه دونهم، إنهارت فروعه وأصوله.

وواصل عليه السلام كلامه ببيان الصفات الثلاث الأخيرة فقال: «بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ (٣) ، وَأَنْزَاحِ (٤) الْبَاطِلِ عَنْ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنِّيهِ».

تشير هذه العبارة إلى الانحرافات التي حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لاسيما على عهد الخليفة الثالث، فقد أصبح بيت مال المسلمين لعبه بيد فئة من المتكالبين على الدنيا ومن بنى أمية - ومنهم عدو الإسلام الأول، أي أبو سفيان - تسلموا المناصب الحساسة في الحكومه الإسلاميه ففعلوا كل ما استطاعوا فعله وكانت نتيجة ذلك الثوره على الخليفه والتي أطاحت به وبيطانته (٥) بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار دون أن يدافعوا عنه.

ص: ٤٣٥

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٦١، ح ٩.

٢- (٢). «ولائح» جمع «وليجه» من «الولوج» الدخول وتطلق على حامل أسرار الشخص أو جامعها ولكن ليس من أهله. ويقال وليجه لكل من يرد قوماً من الخارج ويحمل أسرارهم وهي قريبه المعنى من مفردة البطانه.

٣- (٣) «نصاب» الأصل وموضع الرجوع والمكان المناسب لكل شىء وأساسه وبدايته. ثم اطلق على المقدار فى باب الزكاه وأمثال ذلك.

٤- (٤) «انزاح» من ماده «زوح» على وزن «زوج» تعنى فى الأصل الرحيل من المكان. ثم اطلق على كل شىء يزال عن مكانه.

٥- (٥). انظر: تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٤٠ و ٤٤١.

ولكن حين تسلّم الإمام على عليه السلام زمام الأمور عاد الحق إلى نصابه ونحى أتباع الباطل ولم يجروا أحد على الدفاع عن الوضع السابق ويصادر حقوق الطبقات المستضعفه والمحرومه ويغدقها على طلاب الدنيا وذوى الأطماع. ولا يقتصر هذا الأمر على أمير المؤمنين عليه السلام بل لو تسلّم أئمّه أهل البيت عليهم السلام مقاليد الأمور لاتبعوا ذلك النهج بفضل عصمتهم التى يستدل عليها بعدّه أدله ومنها حديث الثقلين.

ثم اختتم الكلام بذكر صفتهم الأخيره فقال عليه السلام: «عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَهُ (١) وَرَعَايَهُ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَهُ. فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَاةُ (٢) قَلِيلٌ».

قطعاً العلم بالدين له مراتب كالعلم بأى أمر آخر، المرحله الأولى سماع ونقل الألفاظ والمرحله الثانيه فهم المعنى وإدراك المضمون والمرحله الثالثه الإيمان واليقين العميق الذى ينفذ فى جميع كيان الإنسان ويسوقه للعمل، وأهل البيت عليهم السلام فى ذروه المرحله الثالثه ومن هنا أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وأكد على الأئمّه بالتمسك بالقرآن وأهل البيت من بعده ليأمنوا الضلال والغى.

ص: ٤٣٦

-
- ١- (١). لم ترد هذه المفرده بهذه الصيغه فى المصادر اللغويه وصحيحها «وعاء» ظرف الشىء ويبدو أنّ النسخه الأصلية كانت وعاء التى تلائم السماع فى العبارة اللاحقه.
- ٢- (٢) «رعاه» جمع «راع» المراعى.

قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ؛ وَقَدْ جَاءَهُ بِرِسَالِهِ مِنْ عُثْمَانَ، وَهُوَ مَحْضُورٌ يَسْأَلُهُ فِيهَا الْخُرُوجَ إِلَى مَالِهِ بِيَتْبَعِ، لِيَقْلَّ هَتْفَ (١) النَّاسِ بِاسْمِهِ خِلَافَهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَأَلَهُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢).

نظره إلى الخطبه

مضمون هذه الخطبه واضح. فلما حاصر المسلمون عثمان في بيته سنة ٣٥ هـ وطالبوا بعزله من الخلافه، هتفت الجماعه أن الخلافه حق على بن أبى طالب، فرأى عثمان ابعاد على عليه السلام عن المدينه لمصادره ذلك الهتاف، لذلك اقترحه على الإمام عليه السلام هذا فى الوقت الذى اقترحه سابقاً على الإمام عليه السلام ففعل.

ثم كتب للإمام عليه السلام بالعوده والدفاع عنه. فلما عاد اقترح عليه التوجه إلى ينبع

ص: ٤٣٧

١- (١). «هتف» المناداه والصراخ والمراد هنا أن الأمة كانت تنادى بخلافه على عليه السلام وقيل: «هتف» تعنى الصوت الذى يسمع ولا يعرف قائله.

٢- (٢) سند الخطبه: ذكر ابن عبد ربه بعض هذا الكلام فى «العقد الفريد» وكتب أن علياً عليه السلام خرج من المدينه وذهب إلى ينبع (ينبع موضع قرب المدينه قرب البحر الأحمر الذى كان آنذاك بعضه لعلى وأوقفه) لكن عثمان كتب كتاباً آخر بعد مدّه قصيره وطلب منه الرجوع إلى المدينه (ويدافع عنه) ثم قال صاحب كتاب نهج البلاغه: ذكر ذلك أيضاً المبرد فى «الكامل» وابن قتيبه فى «الإمامه والسياسه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨٩).

فقال عليه السلام هذا الكلام: ما يريد عثمان إلّا أن يجعلني جملاً ناضحاً فأقدم إن كانت مصلحته في ذلك أو أخرج.

ص: ٤٣٨

يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالْغَرْبِ: أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ
الآن يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا.

الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان

قضية قيام المسلمين على عثمان، إحدى القصص المأساوية المؤسفة في صدر الإسلام. فكانت تلك الحركة طبيعيه جداً خلافاً لما يظنه المتعصبون، فعثمان سلّم جماعه من بنى أميه وقرابته الذين لم يكونوا من الصالحين، مناصب حساسه فى الدوله الإسلاميه، ومن جانب آخر تصرّف فى بيت المال كما يتصرف فى أمواله الشخصيه، فيهب بطانته ما يشاء، فى حين كان أغلب المسلمين يعيشون الحرمان.

وقد عمّت أصداء هذين الفعلين المشينين كلّ مكان وأديا إلى تلك الانتفاضة العارمه على عثمان، وإن كان علم تلك الانتفاضة طائفه من المصريين وأهل الكوفه؛ إلا أنّ أهل المدينه تضامنوا معهم وصمت المهاجرون والأنصار ولم يهَبّ للدفاع عنه سوى على عليه السلام، فالإمام عليه السلام وإن كان من أشد الناقمين على أفعال عثمان، لكنه لا يرى فى قتله مصلحه للأئمه الإسلاميه.

على كلّ حال، كتب عثمان عدّه كتب متناقضه للإمام عليه السلام طلب منه أولاً- الخروج من المدينه إلى ينبع، ثم طلب منه العوده، ثم كتب له أخيراً بالخروج من المدينه، وسبب ذلك التناقض أنّه ظنّ بادی الأمر بأنّ بقاء الإمام عليه السلام فى المدينه مدعاه

لتشجيع المسلمين على عزله ومبايعه الإمام عليه السلام للخلافه.

ثم خرج الإمام من المدينة، شعر عثمان أنه لا يسع أحد الدفاع عنه سوى على عليه السلام وينقذه من أيدي الناقمين ولذلك طلب منه الرجوع إلى المدينة، وحين بلغه أن المسلمين هتفوا بالبيعه للإمام عليه السلام استولى عليه الخوف، فطلب من الإمام عليه السلام الخروج مَرَّه أخرى من المدينة، ولما كان حامل الكتاب هذه المره ابن عباس، خاطبه الإمام عليه السلام قائل: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا (١) بِالْغُرَبِ (٢): أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ!».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدِمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ!».

وتشير هذه القضية إلى أن ضغوط المسلمين كانت على درجه من الشده بحيث ارتبك عثمان وكان كل لحظه يتخذ قراراً وقد غفل فوات الأوان وقد انتهى عهد حكمه ولن يقبل المسلمون له عذراً فرأى نفسه مضطراً هنا للتعامل مع على الذى لا تخفى مكانته عند الله ورسوله والمسلمين.

الطريف أن عثمان لم يصدر مثل هذه الأوامر المتناقضه مع أحد آخر، فلم يكن للآخرين مثل ذلك الدور فى الوسط الإسلامى فكان حضورهم وغيابهم سياتى فى التأثير.

ثم أشار عليه السلام فى الختام إلى قضيه مهمه فى أنه بذل أقصى جهده فى الدفاع عن عثمان؛ الأمر الذى لم يفعله غيره ولا يسعه فعله فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا».

لعل هذه العبارة إشاره إلى أن الدفاع أكثر من الحد عنم إرتكب تلك الأفعال نوع من دعم الظلم وهو عمل غير جائز، هذا أفضل تعبير يمكن ذكره للعبارة السابقه

ص: ٤٤٠

١- (١). «ناضح» الجمل الذى يحمل الماء من ماده «نضح» على وزن «نظم» رش الماء.

٢- (٢) «غرب» بمعنى الدلو العظيمه.

وإن ذكر ابن أبي الحديد وابن ميثم في شرحهما احتمالين آخرين؛ الأول قوله عليه السلام:

(لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً)، لأن الوقوف بوجه أولئك الذين قاموا عليه ربّما يدعوهم للهجوم على فينالون منّي وهذا ذنب، الآخر: أخشى أن يؤدي دفاعي إلى بثّ الفرقة والخلاف فيصاب البعض بالأذى وهذا ذنب أيضاً، ولكن من الواضح أن أيّاً من هذين الاحتمالين لا يناسب العبارة.

ورد في «العقد الفريد» أنّ ابن عباس قال: أرسل إليّ عثمان فقال لي: اكفني ابن عمك، فقلت: إنّ ابن عمي ليس بالرجل يرى له، ولكنّه يرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت، قال: قل له: فليخرج إلى ماله بينبع، فلا أعتّم به ولا يعتّم بي، فأتيته فأخبرته، فقال: ما اتّخذني عثمان إلّاناضحاً، ثم أنشد:

فَكَيْفَ بِهِ أَنِّي أَدَاوِي جِرَاحَهُفَيُدَوِي فَلَا مَلَّ الدَّوَاءِ وَلَا الدَّاءِ

إلى أن قال: فخرج على عليه السلام إلى ينبع، فكتب إليه عثمان حين اشتدّ عليه الأمر، أمّا بعد، فقد بلغ السيل الزبي، وجاوز الحزام الطيبين، وطمع فيّ من كان يضعف عن نفسه، فأقبل إليّ، وكن لي أم عليّ صديقاً أم عدواً(1).

ويؤيد هذا الكلام ما ذكره السيد الرضي أنّ عثمان تناقض في أوامره حين أربكه قيام المسلمين الكبير عليه.

ص: ٤٤١

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٩، ص ٢٥٤ (بتلخيص طفيف).

يُحْتُّ بِهِ أَصْحَابُهُ عَلَى الْجِهَادِ (١)

نظرة إلى الخطبه

هدف الإمام عليه السلام كما يتضح من الخطبه حتّ أصحابه على الجهاد، لكنه أورد أموراً دقيقه بعبارات موجزه تعكس عمق تدبيره للقضايا المتعلقة بالحكومه والجهاد.

ص: ٤٤٣

١- (١) سند الخطبه: ذكر الأمدى فى «غررالحكم» بعض عبارات الخطبه بكلمات قصيره (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩٠).

وَاللّٰهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمَهِّلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَّحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ، فَشُدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ، وَاطَّوُّوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلْمَ لِتَذَاكِيرِ الْهَمَمِ!

الشرح والتفسير: شَمَرُوا واستعدوا للجهاد

صرّح صاحب «تمام نهج البلاغه» الذي ألف لجمع وإكمال الخطب التي جمعها المرحوم الرضى فى «نهج البلاغه» أنّ الإمام عليه السلام خطبها يوم صَفِين (١) ومضمون الخطبه يناسب هذا المعنى.

على كلّ حال فقد وعظ الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات قصيره لسماع رساله الجهاد فقال: «وَاللّٰهُ مُسْتَأْدِيكُمْ (٢) شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمَهِّلُكُمْ (٣) فِي مِضْمَارٍ (٤) مَّحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ (٥)».

ورغم أنّ الشكر ذكر بصوره مطلقه فى هذه العبارة ومنسجمه مع إطلاقاته فى القرآن الكريم مثل: «وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» (٦) ولكن يبدو هدف الإمام عليه السلام بيان

ص: ٤٤٥

١- (١). تمام نهج البلاغه، ص ٤٤٥.

٢- (٢). «مستأدى» الطالب من ماله أداء طلب أداء الشىء.

٣- (٣) «ممهّل» معطى المهله.

٤- (٤) «مضمار» الميدان الذى تضم فيه الخيل للسباق كما وردت بمعنى اسم الزمان.

٥- (٥) «سبق» المال الذى يقرر للفائزين بالسباق.

٦- (٦). سورة البقره، الآيه ١٥٢.

الشكر الحكومى الذى أودعه الله الصالحين فى عصره عليه السلام ويؤكد ذلك العبارة الثانية «وَمُورَّثَكُمْ أَمْرَهُ».

فالأمر هنا بمعنى أمر الحكومه. ويتضح من هنا كيفيه مناسبه الشكر للحث على الجهاد، لأنَّ الجهاد الخالص والباسل تحفظه حكومه الصالحين وحفظ النعمه والانتفاع بها مساوٍ لشكرها.

العبارة «وَمُمَّهَلِكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَّحْدُودٍ...» إشاره لما ورد فى سائر خطب نهج البلاغه أنه عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدًا السَّبَّاقَ وَالسَّبْقَةَ الْجَنَّةَ وَالْغَايَةَ النَّارَ» (١).

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب ذى المقدمه والنتيجه فقال: «فَشُدُّوا عُقَدَ (٢) الْمَآزِرِ (٣)، وَاطُّوْا (٤) فُضُولَ الْخَوَاصِرِ (٥)».

فالعبارتان «فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطُّوْا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» كناية عن الاستعداد التام للقيام بالعمل، لأنَّ الشخص الذى يحكم محزمه يقوى عموده الفقرى على الإتيان بالأعمال الشاقه، كما تسهل عليه الحركه والانتقال إن جمع ثوبه ووضعته تحت حزامه والذى كان عريضاً آنذاك، حتى اليوم الذى غاب فيه الثوب الطويل عن الرجال ما زال القول المتداول أن فلاناً شمّر عن ثياب الهمة ليفعل كذا.

كما لم يستبعد بعض شراح نهج البلاغه أن المراد من العبارة «وَاطُّوْا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» ترك النهم فى الطعام وترهل البدن، إلّا أن التفسير الأول أنسب.

ص: ٤٤٦

١- (١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٨.

٢- (٢). «عقد» جمع «عقده» ما تربط به الأشياء.

٣- (٣) «مآزر» جمع «مئزر» على وزن منبر الثياب الداخليه.

٤- (٤) «اطووا» من ماده «طى» معروف.

٥- (٥) «خواصر» جمع «خاصره» الضلع.

ثم حذّر الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات عميقة المعنى وفصيحة وبلغه وأوضح لهم سبيل الانتصار فقال عليه السلام بادي الأمر: «وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ (١)».

وقال عليه السلام: «مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ».

وقال عليه السلام: «وَأَمْحَى الظُّلْمَ (٢) لَتَذَاكِيرِ (٣) الْهِمَمِ!».

حيث أشار عليه السلام في هذه العبارة الموجزة والعظيمة المضمون إلى بضعه أمور مهمّة للموفقيه في الحياه والإداره منها:

١. التحلى بالاستعداد على الدوام ومهما كانت الظروف أو حسب تعبير الإمام شدوا المآزر....

٢. مقاطعه الترف والدعه التي لا تؤدي سوى إلى الضعف والكسل.

٣. مواجهه دواعى النسيان التي تجعل الإنسان ضعيفاً وذليلاً ومسلوب المنهج.

٤. الارتقاء بمستوى الهمة ومكافحه كل ما يضعفها ويهبطها.

فإن راعى مدرء المجتمعات الإسلاميه هذه الوصايا الأربع سيتغلبون قطعاً على جميع المشاكل.

تأمل: آفات النهم والترف

ما ورد في الخطبه بهذا الشأن مِمَّا ذكر مسهب في الروايات. عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لَا تُمَيِّتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَمُوتُ كَالرُّزُوعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهَا الْمَاءُ» (٤).

كما قال صلى الله عليه وآله: «الْقَلْبُ يَمُجُّ الْحِكْمَةَ عِنْدَ امْتِلَاءِ الْبَطْنِ» (٥).

ص: ٤٤٧

١- (١) «وليمه» الطعام الذى يعدّ فى العرس. ثم اطلقت على كل طعام يعدّ فى الدعوه للضيافه وهى هنا كناية عن الترف.

٢- (٢) «ظلم» جمع «ظلمه» العتمه.

٣- (٣) «تذاكير» جمع «تذكار» على وزن «منقار» التذكير.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣١، ح ٧.

٥- (٥) مجموعه ورام، ج ٢، ص ١١٩.

وقال عليه السلام: «مَنْ قَلَّ أَكَلُهُ صَفَا فِكْرُهُ»^(١).

وأخيراً قال فى الحديث الرابع: «إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يَسِمُ الْقَلْبَ بِالْقَسْوَةِ وَيُنْطِئُ بِالْجَوَارِحِ لِلطَّاعَةِ وَيُصِمُّ الْهَمَمَ عَنِ سِجَاعِ الْمُوعِظِهِ»^(٢).

وجاء فى رساله أمير المؤمنين على عليه السلام إلى عثمان بن حنيف حين قيل له: كيف تقوى على الأعداء وهذا طعامك؟ فقال: «أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُوداً وَالنَّبَاتَاتِ الْعِدِيَّةَ أَقْوَى وَقُوداً»^(٣).

وتعبير الإمام بالوليمه لا تقتصر على الطعام والشراب وهى كناية عن مطلق اللذه والمتعه، أنشد المتنبي بهذا الخصوص:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي

وسيره مختلف الأقسام تؤيد ما ورد فى هذه الروايات والخطبه المذكوره، فالأقوام المثابره والمجتهده بلغت ذروه الاقتدار فى العالم؛ أما تلك الكسله والمتقاعسه كانت متخلفه وفاشله.

وأخيراً حيث اختتمت الخطب بهذه الخطبه فقد قال الرضى: وَصَيَّلَى اللّٰهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَى وَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ونحمد الله الذى وفقنا بعد أربع عشره سنه من عمل دؤوب باختتام شرح خطب نهج البلاغه التى تعتبر أهم أجزاء نهج البلاغه بما يقارب ثلثيه.

ص: ٤٤٨

١- (١) غرر الحكم، ح ٧٤٠٢.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٧، ح ٤٠.

٣- (٣) نهج البلاغه، الرساله ٤٥.

١. شرح وتفسير جميع فصول وفقرات كلّ خطبه خلافاً لما ورد في أغلب الشروح التي تقتصر على الأقسام المطلوبه.
٢. إرتباط عبارات وأقسام الخطبه وصلتها الوثيقه والمنطقيه مع بعضها والتي اغمض عنها في أغلب الشروح، ففسّروا كلّ قسم بصوره مستقله دون الالتفات لارتباطها بما قبلها وبعدها.
٣. التركيز على الروح الحاكمه لجميع الخطبه وجميع الأبحاث في إطارها وغمض النظر عن المطالب الهامشيه غير المرتبطه بالخطبه وإن كان يثير الوسوس.
٤. إرساء التأسيس للأصل في تفسير العبارات؛ أي، استفاده مفهوم مستقل لكل عباره خلافاً لما يشاهد في بعض الشروح، حيث يعتبرون العبارات المتشابهه تأكيداً وينحون اختلافاتها.
٥. إضافه مواضيع تكمليه مرتبطه بالخطبه بصوره منفصله تحت عنوان (تأملات) بما فيها المسائل التاريخيه والأخلاقية والاجتماعيه والعقائديه و....
٦. ذكر اسناد الخطبه بالاستفاده من المصادر التي بحثت اسناد نهج البلاغه.
٧. ذكر جوّ وخالصه كلّ خطبه في مستهلّ البحث تحت عنوان (نظره إلى الخطبه).
٨. ذكر معاني المفردات الصعبه في الحاشيه بالاضافه إلى جذورها ومعانيها الأصليه والفرعيه.

٩. تناول الشرح بصورة مبسطة بما يخدم عامه الناس دون الهبوط بمستوى المواضيع.

١٠. الالتفات إلى المطالب المهمّة التي وردت في الشرح من خلال قبولها أو نقدها أو إكمالها.

١١. والغاية الأساسيّة من هذا الشرح، هي أن يكون قابلاً للاستفادة للجميع وللخاص والعام والعالم والعامي، وكل يستفيد منه بحسب طاقته وقدرته العلميّة وفهم وإدارته.

ص: ٤٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

